محمود قاسم

الأدب العربي المكتوب بالفرنسية

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الأدب العربي

المكتوب باللغة الفرنسية

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

علياء أبوشادى

الأدب العربي

المكتوب باللغة الفرنسية

محمود قاسم



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٦



الفهـــــرس

الموضـــوع	الصفحة

قبــل أن تقــرأ

اليس من المثير للجدل ان المرء عنـدما يتصفح ارفف اية مكتبـــة فرنسية فانه يجد مجموعة كبيرة من الكتب عن الثقافة العـربية المكتــوبة اساسا باللغة الفرنسية فى نفس الوقت الذى يلاحظ ان مثل هذه العناوين تكاد تكون غير موجودة فى ارفف المكتبة العربية ؟

لا شك ان المرء سيصدم لو طالع هذا الكم الهائل من العنــاوين الخاصة بهذا الموضوع باللغة الفرنسية • والكثيـــر من هذه الكتب قديم تاريخا وحديث أيضا • ورغم ذلك فانه لا يوجد فى المكتبة العـربية كتاب واحد يدرس هذه الظاهرة • ويقدمها الى القارىء العربى •

وليس الكتاب الذى بين يديك فقط هو الأول من نوعه فى المكتبة العربية ، بل هو أيضا الأول من نوعه الذى يفرد مثل هذه الصفحات عن الأدب العربى المكتوب باللغة الفـرنسية فى كل الوطن العـربى وخارجه • ففى عناوين الكتب التى رجعنا اليها نجد هناك تقسيمات واضحة للأدب العربى المكتوب باللغة الفرنسية حسب المناطق • وكأنه أدب معزول • فهناك أدب فى المغرب العربى وآخر فى مصر • وكأن جغرافية ليبيا على سبيل المثال قد حجزت بين الأدبين ، ثم هناك أدب ثالث فى لبنان • أما الكتب التى تتناول الأدب الفرانكفونى فهى تتعامل أساسا مع اللغة التى تجمع بين الأدباء فى أماكن عديدة من العالم • منها كنـــدا وبلجيكا • وســويسرا وأفريقيا • وبعض المستعمرات الفرنسية القديمة المتناثرة فى العالم • ولم يكن أمامنا سوى أن نتتبع نفس المنهج فى الكتابة

وقد أوضحنا فى هذا الكتــاب ، وفى خلال فصوله العـــديدة ان الأدب « العربى » المكتوب باللغة الفرنسية ليس ابدا ادبا فرنسيا • رغم أنه منشور فى دور النشر الفرنسية ، ورغـم أنه مكتــوب باللغـــة الفرنسية ، لكن اللغة لم تصنع ابدا هوية قومية مختلفة للكاتب الذى ولد عربيا • ولكن ظروف نشأته وتعليمه جعلته يتقن اللغة الفرنسية التى اعتبرت بالنسبة له لغة كتـــابة أولى • لكنها لم تطمس أبدا فيه هويتـــه العربية • ولو شئنا أن نقيس ذلك بشكل واضح فان الفصل الذى قدمناه عن الأدباء اليهود الذين كتبوا باللغة الفرنسية قد بين كيفيـــة الاختــلاف

بين الكاتب اليهودى الغربى الذى يعيش فى نفس المدينة باريس • السفارديم منهم حيث يعتبرون أنفسهم عربا يهودا • وهم لم يناصروا اسرائيل فى سياستها ولم يقوموا بزيارتها ولم يتخلوا عن هويتهم العربية •• وظلوا يكتبون دوما عن سنوات الحنين التى عاشوها فى مصر والمغرب العربى •

وقد شئنا أن نضع هذا المقياس لنوضح كيف أن الأدباء العرب الذين يكتبون باللغة الفرنسية قد ظلموا كثيرا فى أوطانهم • وقد جاءت المأساة من أن هذا الظلم وقع من جوانب عديدة • منها مقياس حركة الترجمة من ناحية ، ومنها النظرة اليهم نظرة بها ريبة واضحة • وقصدية كأن هذا الكاتب الذى قد اتخذ لنفسه لغة تعبير هى أساسا للمستعمر قد جنح بذلك الى العمالة (!!) وهو تصور ساذج سمعته من الكثيرين الذين علقوا على عالم البير قصيرى بعد أن ترجمت له أربع روايات • ثم فى عالم اندريه شديد • حيث نظر البعض الى هذا الأدب الذى يدور أغلبه فى الأحياء الشعبية باعتباره أدبا يشوه وجه مصر • وان مصر أبدا لم تكن هذه الحوارى رغم أن هؤلاء انفسهم قد أعجبوا كثيرا بنفس العالم فى الروايات العربية التى كتبها أدباء من طراز نجيب محفوظ ويوسف السباعى وأمين يوسف غراب وآخرون •

كما أن هذا الأدب قد تعرض للغبن فى عالمه العربى بشكل ملحوظ حيث ان هؤلاء الأدباء لم يشكلوا تجمعا • وكانوا بعيدين ، جسمانيا ، عن دائرة الحلقات الأدبية • وبذلك ترك الباحثون العرب الساحة مفتوحة لأقرانهم الأجانب ، وخاصة الفرنسيين ، للاهتمام بهذا الابداع • والغريب أن كاتب هذه السطور ـ على سبيل المثال ـ اكتشف هذا العالم بالمصادفة • وفى فترة متأخرة حين وقعت عيناى على رواية «شحاذون ومعتزمون» لقصيرى • وما ان قرأت الفصل الأول منها حتى شرعت فى ترجمتها دون أن أكملها • ثم كان ذلك بمثابة مدخل الى قصيرى : الذى ترجمت له بعد ذلك روايات « منزل الموت الأكيد » و « العنف والسخرية » • و « كسالى فى الوادى الخصيب » •

وكما سنرى •• فان هؤلاء الأدباء يواجهون بازدواجية أدبية • فهم فى بلادهم العربية ينظر اليهم على انهم كتاب اجانب يعيشون فى بلد اجنبى • ومن المعروف ان أغلبهم قد رحل الى فرنسا بعد أن تقلصت أنشطتهم فى مصر • وخاصة بعد ان توترت العلاقات مع فرنسا عقب العدوان الثلاثى على مصر فى عام ١٩٥٦ ، لبلاده التى جاء منها • وعندما تغيرت كتاباته ، تحت وقع الزمن لجأ الى تجريد ابداعه من الزمان

والمكان ٠ ولم ينظر أبدا الى المكان الذى « هاجر » اليه وعاش فوقه ٠ لكنه أبدا لم ينفعل به كمكان ٠٠ فهو ينظرون اليه كمهاجر ليس أبدا من أبناء الوطن ٠ وهو فى المقام الأول أيضا مثقف « فرانكفونى » ولم تتعامل الأوساط الفرنسية أبدا معهم على أنهم فرنسيون حتى لو حصلوا على الجنسية الفرنسية ٠

ولذا ، فان فى هذا الكتاب فصولا لم نرجع فيها الى الكتب الكثيرة التى رجعنا اليها حين اعداد هذا الكتاب ٠ ولكن هذه الفصول وليدة نفسها مثل الفصل الخاص بالابداع الفلسطينى المكتوب بالفرنسية والفصل الخاص بابداع الجيلين الثانى والثالث من المهاجرين العرب الذين يعيشون اليوم فى فرنسا ٠ ويحملون الجنسية الفرنسية ٠ وهم أبناء المهاجرين الأوائل الذين سافروا الى فرنسا عقب الاستقلال أو قبله بقليل ٠

وقد حاولنا فى هذا الكتاب أن نرصد ، بانوراميا ، الكثير من الأسماء المهمة فى عالم الأدب العربى المكتوب باللغة الفرنسية ٠ فخصصنا شبه قاموس صغير لكتاب كل بلد فى نهاية الفصل الخاص به ٠ هذا بالاضافة الى القاء الأضواء مركزة على أبرز الأسماء فى بلادها ٠٠ من خلال البحث والتحليل والرصد لهذا الأدب ٠

هل هو أدب عربى ٠٠ ؟

أجل ٠٠ هو أدب عربى ٠٠ وقد جاء الأوان للاعتراف به ٠٠ وتقديمه الى القارىء العربى ٠٠ وذلك بعد هذه الظلال الكثيفة التى ألقيت عليه ٠٠ وانسحبت فوق بساطه ٠



الفصل الأول :

السمات العامة للأدب العربى المكتوب باللغة الفرنسية

انهم من وطن واحد • وجميعهم مهاجر الى لغة وطن لا يتكلم بهـا وطنه • وهم واقعون فى ازدواجية ثقافية واضحة • ثقـافة البـلاد التى ولدوا فيها وانتموا اليها • وثقافة البلد الذى وجـدوا انفسهم يتكلمون لغته • أو يختارونه مهجرا •

هذا هو حال اغلب الأدباء العرب الذين يكتبون ابداعهم باللغـة الفرنسية • ان لم يكن حال جميعهم • ولا شـك أن هنـاك مجمـوعة من السمات العامة التى يمكن أن تربط فيمـا بينها اتب هـؤلاء الكتـاب أو ابداعهم • أو حتى علاقتهم بالمجتمع الذى يعيشون فيه • سواء الذى جاءوا منه أو القادمين اليه • وسوف نتحدث هنا عن مجموعة من أهم هـذه السـمات :

☐ ارتبط هذا الأدب فى المقام الأول بوجود قوات احتلال فرنسية فى بعض البلاد ، فلا شك أن بعض الأدباء فى المغرب العربى يعتبرون أن لغتهم الأولى هى اللغة الفرنسية • وذلك بواقع أكثر من مائة وثلاثين عاما من الاحتلال الفرنسى لكل من الجزائر وتونس والمغرب • وقد لعب الاستعمار الفرنسى دورا خطيرا • لم يلعبه أى احتلال آخر فى دول العالم العربى • حتى فرنسا نفسها لم تلعب مثل هذا الدور فى دول أخرى احتلتهـا فى المنطقة ، ولعل هذا يرجع الى عدة أسباب منها الفترة الزمنية الطويلة التى ظلت فيها قوات الاحتلال فى شمال افريقيا • وأيضا لاقتراب هذه المنطقة جغرافيا من فرنسا •

هذا الدور الذى نقصده هو « الفرنسية » او صبغ البلاد التى احتلتها بكل ما هو فرنسى • وخاصة اللغة • وقد تنبه الفرنسيون الى أن اللغـة

باعتبارها المنطوق الأساسى للبشر ، يمكن أن تزيد من انتماء المتحدث بها الى ثقافة هذه الدولة ٠

وعلى مدى أجيال متعاقبة تمكنت اللغة الفرنسية من أبناء المغرب العربى ٠ ثم بدأت هذه اللغة تصبح لغتهم الأولى ٠ ولم يعد صعبا على المواطن العربى الذى ينتقل بين بلاده وفرنسا أن يجد أى اختلاف بين اللغة التى يتكلمها فى أى من الأرضين ٠ فزاد احساسه بالانتماء الى الأرض الفرنسية من ناحية ٠ كما زاد ارتباطه بالثقافة الفرنسية من ناحية اخرى ٠

ولذا ، فان الأدباء العرب الأوائل الذين كتبوا بالفرنسية ٠ لم يجدوا أية غربة أو غرابة فى ان تكون كتاباتهم باللغة الفرنسية ٠ مثل كاتب ياسين ٠ ليس لأن الفرنسية هي لغتهم الأولى فقط ٠ بل لأن علاقتهم باللغة العربية كانت واهية وضعيفة ، خاصة أن تميز الكاتب غالبا ، وأساسيا هو تميزه فى اختيار مفردات لغته الأدبية ٠

ولذا ، لم يكن غريبا على الكاتب أن يكتب باللغة الفرنسية فى البداية ، ولعل الأمر قد تغير كثيرا مع زيادة حركة التعريب فى شمال أفريقيا ٠ وهنا بدأت الأسباب تتغير ، حيث بدأت اللغة العربية تعود الى حالة ازدهارها القديم ٠ ولكن بعض المثقفين وجدوا انفسهم يمتلكون ناصية اللغة الفرنسية اكثر ٠ ثم وجد الكثير منهم أن الكتابة بالفرنسية أفضل لعدة أسباب منها أن الكاتب يمكن أن يتعايش طيلة حياته من عائد كتاب واحد لو نشره فى احدى دور النشر الفرنسية، بينما عائدات الكتب الصادرة فى العالم العربى هزيلة ٠ ولا تقيم أية حياة كريمة أو غير كريمة للكاتب ٠ ومن هذه الأسباب أيضا كثرة المحظورات الرقابية فى العالم العربى أمام الكاتب ، وانكماش حركة النشر والقراءة ، بينما ازدهرت هذه الأمور بشكل ملحوظ فى فرنسا ٠

ولو نظرنا الى نفس النقطة السابقة فسوف نجد أن السمة الثانية فى الأدب العربى المكتوب باللغة الفرنسية مرتبطة فى غالب الأحيان بالمهجر ٠ اى هجرة الكاتب ٠ ومن المعروف ان الأدب العربى قد شهد فى بداية القرن ما يسمى بحركة الهجرة الأولى التى اتجهت نحو أمريكا اللاتينية ٠ وقد شهدت هذه الحركة ازدهارا ملحوظا فى الأدب العربى المكتوب خارج حدود الوطن ٠ حيث ظل الأدباء ، لفترة ، لا يكتبون الا باللغة العربية ، قبل ان يذوبوا واولادهم واحفادهم فى هذه البلاد ٠٠ أما حركة الهجرة الثانية فقد جاءت من شمال المغرب الى فرنسا ٠ وقد ازدادت بشكل ملحوظ عقب استقلال بلاد المغرب العربى ٠ ووصلت حركة

الهجرة الى أعلى معدلاتها فى نهاية الستينات ومع سنوات السبعينات الى درجة جعلت السلطات الفرنسية ـ كما جاء فى جريدة الأهرام ٤ يناير ١٩٨٦ ـ الى أن تعتبر اللغة العربية هى اللغة الثانية فى المدارس الفرنسية . وقد كتبت انى كريجيه كرينكى فى كتابها « المسلمون فى فرنسا » أن « المناضلين الذين اشتركوا فى الحرب لاخراج الفرنسيين من الجزائر قد سعوا بأنفسهم الى فرنسا بعد أن أعلنوا : « لقد كسبنا هذه الحرب » .. ليعملوا ويقيموا بها . ويبدو أن القادمين من شمال افريقيا قد أرادوا أن يردوا الدين لفرنسا فسعوا لاستعمارها مثلما استعمرتهم » (١) .

ويهمنا أن نذكر ، كما جاء فى نفس المرجع السابق ، أن عدد الجزائريين الذين وصلوا الى فرنسا وصل الى ١٫٨ مليون نسمة . والآن وبعد أكثر من ثلاثين عاما ظهرت ثلاثة أجيال من المهاجرين . أو حسبما يقول أحد الشباب المسافرين حديثا الى فرنسا .. « نتلقى ثلاثة أنماط من التعليم : تعليم من آبائنا . وآخر من مدرسينا . وثالث من الحياة .. وهذه الأنماط تتضارب ، فهؤلاء الذين رحلوا فى النصف الأول من الستينات قد تجاوزوا الآن الثلاثين .

وتقول الكاتبة ان العرب يعملون هناك فى مهن عديدة ويضع أكثرهم عينيه على عالم الفنون . وتقول ان الكثير من الأعمال الأدبية والسينمائية التى يبدعها المهاجرون تنادى بالارتباط بالوطن الأم من ناحية ، والعودة اليه من ناحية أخرى ، حتى لا تنقطع الروابط بين المرء ووطنه اذا طال غيابه .

وما دمنا بصدد هذه النقطة ، فان العرب الذين يسافرون الى فرنسا قد كتبوا باللغة الفرنسية فى المقام الأول ، ورغم أن المطابع العربية قد انتقلت الى فرنسا لتصدر الصحف والمجلات والكتب التى توزع فى المنطقة العربية لأسباب سياسية وأمنية . فان أدب هؤلاء القادمين من شمال أوروبا كان فى الغالب ناطقا باللغة الفرنسية . أما ما كانوا يكتبون فى مجلات وصحف مثل « اليوم السابع » وغيرها فكان غالبه مترجما عن اللغة الفرنسية .

☐ لم ينحصر هم الكاتب العربى الذى يكتب باللغة الفرنسية بالانبهار فقط بالثقافة الأوربية . بل كان همه الأول هو البيئة العربية وثقافتها

---

(١) Les musulmans en France, Annie K. Kriniki : Maison neuve Paris, 1985, p. 32.

(٢) المرجع السابق .

القديمة والحديثة · ولذا ، فنحن نقول اننا امام ادب « عربى » مكتـوب باللغة الفرنسية ؛ لأنه مرتبط بالمكان الذى يكتب عنـه · وبالنـاس الذين يعيشون فى هذا المكان · بثقافتهم وسلوكهم الخاص والعام · وهو دائما أسير هذا المكان الذى عاش فيه أغلب سنوات طفولته وشبابه لا يستطيع أن ينزع نفسه منه · وأغلب هؤلاء الأدباء عرفوا لحظات الابداع الأولى فى بلادهم قبل أن يفكروا فى الرحيل الى أوربا · بل ان الكثيرين منهم قد نشروا كتاباتهم الأولى فى بلادهم قبل أن يفكروا فى الرحيل الى فرنسا · وعندما تم الرحيل ، وهو غالبا رحيل اختيارى ، فان الكاتب ظل ملتصقا بوطنه · ليس فقط من خلال احتفاظه بالجنسية العربية التى جاء منها · بل أيضا فى ارتباطه بالأرض النبـــع ·

ولعل هذا يرجع الى عدة أسباب · منهـا أن الكاتب مهمـا فعل ، ومهما تجنس بالجنسية الفرنسية فهـو فى منظـور الوطنيين الفرنسيين « أجنبيا » مهما فعـل · كما أن القارىء الغربى يميل الى أن يقرأ عن أجواء الشرق ، بلغته ، من قبل ادباء قادمين بأنفسهم من هذه المنطقة وينتمون اليها · وليسوا مجرد سائحين سافروا لبضعة أيام أو اكثر للاقامة فى الشرق ، ثم يعودون مرة أخرى حاملين ذكريات عابرة ·

لذا ، فنحن نؤكد انهم ادباء « عـربيو » ابداعا وانتماء ·· وقـد تكون هناك حالات استثنائية ، غيرت فى ابداعاتها الأدبية مثلما حدث مع جويس منصور مثلا · لكن هذه الشاعرة المصرية كانت منذ البداية سريالية الاتجاه ·· حاولت فى كل أعمالها تجريد المكان من مدلولاته ورموزه ·

والكاتب العربى الذى هاجر الى فرنسا للمعيشة فيها كان مضطرا بدافع الضرورة · فلو لم يفعل ذلك فلن يكون مقروءا ، لا فى بلاده ، ولا فى فرنسا · مثلما حدث مع الشاعر المصرى أحمد راسم · وهؤلاء الكتـاب لا ينبهرون عند سفرهم الى فرنسا بنفس الدرجة التى تحدث لمن يكتبون عامة باللغة العربية ؛ لأنهم يحسون انهم توجهوا الى بلد يعرفون لغتـه وثقافته · موجود داخلهم · وكثيرا ما تدفع الهجرة ، أو فلنقـل المنفى الاختيارى ، الكاتب الى أن يرتبط اكثر بجذوره القادم منها ، والا ينفصل عنها · وبعض هذا الأدب يتحدث عن التباين الذى اكتشفه الكاتب فى هذا المجتمـع الذى يعـامله على أنه « عـربى » ، أو مواطن من الدرجة الثانية فلا يسعى الى نفى هذه الهوية · بل يؤكدها ·· هو فى كلا الجانبين : الغربى والفرنسى يعتبر غريبا ، واجنبيـا ·· وقد اتضح هـذا الأمر فى مقـدمة رواية « نجمة » للكاتب الجزائرى كاتب ياسين حيث أكد صاحب دار نشر سوى Seuil اننا امام كاتب اجنبى ·

□ لعبت المدارس الأجنبية التى تم انشاؤها فى كل من مصر ولبنان وسوريا دورا فى تكوين مجموعات من الناس يحسون انهم ينتمون الى ثقافة واحدة · ففى البداية تم انشاء مدارس فرنسية لأبناء الخبراء والموظفين الفرنسيين الذين استعانت بهم الحكومات فى مصر والشام ، ثم بدأ ابناء البلد من المواطنين فى الانضمام الى هذه المدارس · وقد خلقت هذه الظاهرة التعامل المباشر باللغة أولا فى المجتمعات المغلقة ، كالبيوت والنوادى والصالونات ، باللغة الفرنسية · وقد اعتبرت هذه الظاهرة سمة من سمات الارتقاء الاجتماعى · لأنه فى تلك الآونة ، وربما حتى الآن ، فان تكاليف الدراسة فى مثل هذه المدارس لا تتناسب سوى مع أصحاب الدخول المرتفعة · وقد تولدت صداقات عميقة بين المتحدثين بالفرنسية أو «المتفرنسين» · وظهرت حركة نشطة لصناعة ادبهم بدأت أولا فى المدن الساحلية كالاسكندرية ، ثم انتقلت الى العاصمة · بمعنى انه كان هناك الأدباء أولا · ثم كان لابد من ظهور صحف ومجلات لتستوعب كل هذا الانتاج · ثم كان لابد من ظهور نقاد لهذا الأدب من الذين يكتبون أيضا باللغة الفرنسية

□ انقسمت المنطقة العربية جغرافيا الى قسمين رئيسيين، حسب البيئة التى يتكلم بعض ادبائها باللغة الفرنسية · القسم الأول يمثل مصر وسوريا ولبنان · ثم القسم الثانى الذى يمثل المغرب والجزائر وتونس ·· وقد بدا كان هناك انقساما ما واضحا بين القسمين · وفى كل منهما كانت حركة الأدباء واتصالاتهم تتم بشكل حيوى · بينما تبدو الأمور كان هناك سورا عاليا يفصل بين القسمين · فقد راح ادباء لبنان وسوريا ينتقلون بين القاهرة وبيروت· فتعلم ابناء دمشق وبيروت فى بعض مدارس الاسكندرية· وصنع هذا ادبا عربيا وليس محليا · فقد أحس اللبنانى غالبا انه فى وطنه مصر · وكم كتب عنها كانه مصرى · مثل جان اركاش واندريه شديد وسيلين اكسلوس · وفى الكتب التى تتحدث عن ادباء لبنانيين يكتبون بالفرنسية نجد ان الكثيرين منهم عاشوا طويلا فى مصر ·· وليس بين ايدينا من كتاب مغاربة جاءوا للعيش فى القاهرة سوى روبيريلوم الذى جاءت أسرته من تونس لتعمل فى القاهرة عام ١٩٠٤ ولكن اقامته لم تطل بها · حيث رحلت اسرته عام ١٩٢٤ الى باريس ·

أما فى المغرب العربى فقد بدت الصلة قوية بين ادباء الدول الثلاث· ولكن حالات الاتصال مع ادباء الشرق العربى لم تكن بنفس القوة · ولعل هناك اتصالا حدث فيما بينهم عندما اختار الكثير منهم باريس من أجل الاقامة فيها · فارتبط بعضهم بصداقات قوية مع الأدباء الفرنسيين ، مثلما حدث مع ألبير قصيرى وأندريه شديد · بينما راح كاتب مثل الطاهر بن جلون

يكتب عن الأدب العربي بشكل عام وتعريف القارئ الفرنسي باتجاهاته وجـذوره ·

□ هناك ظاهرة في غاية الأهمية وهي أن الأدب العـربي المكتـوب بالفرنسية لم يقتصر على أبناء طائفة دون غيرها ، أو أبنـاء دين دون غيره · فهناك أدباء يونانيون اختاروا الكتابة باللغة الفرنسية ، وهنـاك أدباء أرمن كتبوا أيضا في مصر باللغة الفرنسية · بل هناك من لهـم جذور ايطالية ، كما كتب هذا الأدب مسيحيون ومسلمون ويهـود · وإذا كان بعض الكتاب قد اهتم ، بشكل عابر بمسـألة الدين ، خاصـة بعض اليهود ، فان الكاتب العربي الذي يبدع باللغة الفرنسية كان همه الأساسي هو الارتباط بالمكان ·· حيث كان لدى هـذا الكاتب شغف خاص بالمكان · سواء عنـــدما عاش فوقه · أو عندما هجـره الى أرض أخرى للاقـامة فيها · فأدباء مثل ألبير قصيري وقوت القلوب وكاتب ياسـين وادريس شرايبي ورشيد بوجدرة قد كتبوا عن بلادهم العربية ، واختاروا قاع هذا المجتمع بالذات ، وهم يعيشون فوق أرضها · وذلك قبل أن يرحلوا الى فرنسا · وسوف نرى أن الأدباء المغاربة من اليهود قد ارتبطوا على سبيل المثال بالحركة الوطنية لمناهضة الاستعمار ·· وسوف نرى أن هؤلاء الأدباء اليهود من المصريين قد توجهوا الى فرنسا ولم يفكر أي منهم في الاتجاه الى تل أبيب ، كما لم يشأ أي منهم أن يمارس لعبة السـياسة ، وكانوا يكتبون دائمـا عن أوطانهم التي جاءوا منها خاصـة ادمون اليابس ، أوجابيس ، الذي ترك مصر عام ١٩٥٧ وظل يكتب قصائد عن الصـحراء المصرية حتى مات عام ١٩٩٠ ·

وإذا كانت المدارس الفرنسية قد استقبلت في أول الأمر الكثير من المسيحيين في مصر، فان المسلمين مالبثوا أن التحقوا بهذه المدارس· وهكذا فان الأدب العربي المكتوب باللغة الفرنسية كان مرتبطا في المقام الأول بالمكان قبل الديانة · بل ان الدين كان يأتي دائمـا في الخلفيـة ، حيث كان اهتمام هؤلاء الأدباء هو الاطلاع على الثقافات المعاصرة · والتعريف بها · ومحاولة تحطيم الاشكال التقليدية في الفـن ، وخاصـة في فـن الشـعر ·

□ هناك سـمة غريبة في لغة الكاتب ، وخاصة الروائي العربي الذي يكتب باللغة الفرنسية · فعند قراءة أعمال ألبير قصيري أو أندريه شديد · أو عند قراءة الأعمال الأخيرة لكاتب ياسين أو الطاهر بن جلون ، فسـوف نلاحظ ان الحوار الفرنسي المكتوب في هذه الروايات مكتوب أساسا في داخل الكاتب باللغة العامية · وأن الكاتب قد قام بترجمته من هذه اللغة المحلية الى الفرنسية مباشرة · وقد اتضحت هذه الظاهرة في روايات من

طراز « نوم الخلاص » و « اليوم السادس » لاندريه شديد · حيث ان ابطالها يسكنون البيئات الشعبية · ويستخدمون مصطلحات شعبية فى المقام الأول · وتبدو هذه الكلمات واضحة لدى متابعتها · ولا شك أن من قام بترجمة مثل هذه الروايات سوف يقع فى حيرة أمام ترجمتها اما بالفصحى أو العامية · وقد حدث هذا لمترجم رواية « نوم الخلاص » المنشورة فى روايات الهلال عام ١٩٩١ · والغريب أن القارىء لم يستسغ هذه اللغة ، باعتبار أنه أمام أدب مترجم · ولذا ، فان كاتب هذه السطور قد وقع فى نفس الحيرة وهو يترجم روايات « شحاذون ومعتزون » و « منزل الموت الأكيد » و «العنف والسخرية » لألبير قصيرى الى اللغة العربية · واختار اللغة العربية البسيطة خاصة عند ترجمة الحوار ، رغم أنه يعرف أن فى هذا قصورا واضحا ·

☐ انحصر الابداع العربى المكتوب باللغة الفرنسية فى الشعر فى المقام الأول ·· ثم فى الرواية وفن القص بشكل عام · وقد جاء الشعر فى هذا المقام لما لهذا الفن من مكانة لدى المبدع العربى فى المقام الأول · وقد استفاد الشاعر العربى الذى يكتب بالفرنسية ، خاصة فى الشرق العربى ، من شكل القصيدة الفرنسية · فراح يسعى بدوره الى كسر البنية التقليدية للقصيدة العربية · ولم تجىء الاتجاهات الحديثة فى الشعر المعروفة باسم الحداثة الا من خلال هذا الالتقاء ·

وبينما غلب فن الشعر فى مصر ولبنان وسوريا الى جانب الرواية · فان الروائيين قد تملكوا ساحة الأدب العربى المكتوب باللغة الفرنسية فى المغرب العربى · وبشكل عام ، فان هذا يرجع الى الحركة التاريخية · باعتبار ان الأدب العربى المكتوب بالفرنسية فى الشرق العربى كان اقدم من مثيله فى المغرب العربى · وعليه ، فقد بدأ بالشعر ، ثم لحقت الرواية · أما الأدباء العرب فى المغرب فقد ظهروا فى منتصف الأربعينات فى زمن ازدهار الرواية · ورغم هذا فان الكثير من هؤلاء الكتاب قد كتبوا الشعر والرواية فى نفس الوقت · مثل الطاهر بن جلون واندريه شديد وكاتب ياسين وغيرهم ·

☐ من الغريب ان هذا الأدب قد احتضنه الفرنسيون وقدموا عنه الكثير من الدراسات · بينما ندرت مثل هذه الدراسات فى الوطن العربى · وعلى مدى علمى ، فانه لا يوجد كتاب واحد باللغة العربية عن هذا الأدب · ولكن حكومات المغرب العربى تنظر دائما بعين الارتياح الى الهجرة الدائمة التى يقوم بها بعض أبنائها الى أوروبا · حيث ان أغلب المهاجرين يحققون انجازات بارزة فى ميادين الأدب والفن بشكل عام · فقد حظى عرب عديدون بمكانة متميزة فى مجال الأدب والسينما · وسعيا وراء

تقليل المسافة بين المهاجرين وأوطانهم فان الجزائر ، مثــلا ، تبث اذاعة لابنائها فى المهجر باللغة العربية وتذيع القرآن الكريم والسنة النبوية • وبعض التعاليم الدينية التى يجب أن يحافظ عليها المسلمون فى غربتهم وحثهم على اتباع تعاليم دينهم والارتباط بالتقاليد الشرقية اينما كانوا • ولهذا ، فان العـــربى ما أن يعـــود الى بيتــه حتى يحس أنه عــاد الى بلده •• لأنه مؤثث على الطراز العربى : الجدران والاثاث واللغة • ولذا فان الحنين أقل حدة • ولا شك أنه قد ظهر نوع ثالث من الأفراد الذين مزجوا بين العربية والفرنسية ليس فقط فى اللغة • ولكن أيضا فى العادات المتناقضة بين العالمين •

كان السؤال المطروح دوما هو عن علاقة الكاتب العربى المهاجــر بالوطن الذى هاجر اليه • فهل يعد الكاتب العربى المهاجر الى باريس عبئا على ثقافتها ، أم اضافة اليها ؟ • لقد خصصت الحكومة الفرنسية فى عام ١٩٧٧ مبلغ عشرة آلاف فرنك لكل مهاجر يعود الى بلده • ففرنســا اذن تسعى الى التخلص من بعض العمالة المهاجرة اليها وليس كلها • لكن بلاشك ، فان فرنسا مستفيدة من هذه العمالة على المستوى المهنى من ناحية • ومن الناحية الثانية على المستوى الفكرى والثقافى كما قال عبد الله بوحميدى : « ان ما قدمه المهاجرون الى الثقافة الفرنسية لم يكن يستهان به فى خاتمة المطاف • فبفضل رحلاتهم المتعددة بين شواطىء البحر المتوسط شمالا وجنوبا اصبحوا يشكلون رابطة عضوية بين فرنسا والمغرب العربى ويسهمون بذلك فى التقاء الثقافتين » (١) • كما انها اصبحت أكثر وعيا بتعدد مقومات هويتها • فقد تعرفت تلك الهوية على حقيقتها • ووقفت عنــد مصادر ثرائها • والأدب المكتوب باللغــة الفرنسية صادر أغلبه ، خاصة فى السنوات الأخيرة ، عن دور النشر الفرنسية • وقد كان جــزء كبير من هذا الابداع منشورا فى البلاد العربية خاصة المكتوب فى العشرينات والثلاثينات والأربعينات فى مصر ولبنان • لكن الأدب العربى المكتوب بالفرنسية فى السنوات الأخيرة صادر داخل فرنسا وبتمويل فرنسى • ومع ذلك فانه يحمل روحا جديدة وهوية مختلفة • فبدا كأن بعضه قد تم تطعيمه بخبرات الهجرة • فالازدواج الثقافى أصبح غالبا • وبدت الحركية فى الاعمال الابداعية الجديدة • وقد أدى ذلك الى ازدهار هذا الأدب بشكــل ملحوظ يدفعنا الى أن نخصص له كتابا •

---

(١) مجلة رسالة اليونسكو ، العدد ٢٩٢ • •

الفصل الثانى :

الأدب المصرى المكتوب باللغة الفرنسية

لماذا نشطت اللغــة الفرنسية كلغة تعبير فى مصر · رغــم ان فرنسا لم تحتل مصر مثلما فعلت فى الجزائر ؟ وكان الاحتلال بريطانيا لأكثر من سبعين عاما ؟

يرجح الكثيرون من المحللين ان هنـــاك اسبابا عديدة من ابرزها الحملة الفرنسية التى جاءت لمدة ثلاث سنوات فى اواخر القرن الثــامن عشر · ثم لأن محمد على قد توجه الى فرنسا من خلال مشروعه الحضارى وليس الى انجلترا · فقد ارسل البعثات الأولى ، خاصة ما يرتبط منهـــا بالتعليم والثقافة ، الى فرنسا ·

ورغم أن الحملة الفرنسية التى انتهت عام ١٨٠١ قد خلفت فى قلوب المصريين المرارة والحزن ، الا ان الفرنسيين بعد أن رحلوا تركوا وراءهم أشياء عديدة لم يكن يمكن تجاهلها · مثل آلات الطبــاعة ومركــز أبحاث علمى · ومعهد للدراسات · ولم يكن أمــام المصريين ســـوى استغلال هذه الأشياء خاصة أن محمد على الذى صنع النهضـــة فى مصر قـــد جاء الى مقعد الحكم بعد رحيل الفرنسيين بأربع سنوات · فقد راح محمد على يستعين بالخبرات الأجنبية من أجل تحديث بلاده ، خاصة فى مجال صناعة الأسلحة · وفكر محمد على فى الفرنسيين فى المقام الأول · كما فكـــر فى الايطاليين · وقد كانت فرنسا اكثر تأثيرا وقوة فى تلك السنوات من ايطاليا · على الاقل على المستوى الاقتصادى ·

وهكذا بدأت اللغة الفرنسية تدخل بصفة رســمية الى مصر · فــلم يكن للخبراء الفرنسيين أن يتعاملوا مع قوم لا يتكلمون لغتهم · وأحس محمــد على أنه من الأهمية بمكان أن يتعـــلم المصريون اللغـــة الفرنسية ، فأرسل المبعوثين الى فرنسا · وكان من بينهم كمـــا هو معـــروف ، رفاعة الطهطـــاوى وعلى مبـــارك · وجاء الفرنسيون كى يصنعوا صحافة عـــلى شــاطىء النيــل ·

وقد ساعد احساس المصريين بانهم فى حاجة الى الفرنسيين على تخفيف اجواء التعصب ضد الاجانب • وقد شجع نجاح المشروعات التى يقوم بها الفرنسيون أبناء الجاليات الاخرى على القدوم الى مصر مثل اليونانيين والاتراك واللبنانيين والارمن وغيرهم •

وزاد نشاط الاجانب في أوجه الحياة الاجتماعية فى مصر • وراجت تجارة الاغذية • وقد جعلت هذه الظاهرة المدن المصرية ساحة جديدة لأبناء الجاليات الذين يتكلمون بلغاتهم الأصلية • على الأقل بشكل شفاهى • ومن هنا بدأ المصريون يتعلمون هذه اللغات ، وقد جلب هذا أيضا الى المصريين عادات جديدة وشعائر واحتفالات صنعها الاجانب • أو جلبوها من بلادهم •

وشيئا فشيئا بدأت هذه الجاليات فى النمو عددا • وبدءوا يفتحون لأبنائهم مدارس خاصة لتعليم اللغات القومية بالاضافة الى اللغة العامة فى البلاد • وأصبحت اللغة الفرنسية هى اللغة الأولى ، كما أصبح للاجانب دور العلاج الخاصة بهم • ثم نواديهم • وساعد هذا على ارتفاع أهمية رجال الأعمال ودورهم فى المجتمع حيث عملوا على جلب عدد آخر من مواطنيهم من أجل مساعدتهم • كما شهدت البلاد ظاهرة الاقتران بين أبناء الجاليات الأوربية والأجنبية •

وفى نهاية حكم محمد على كان بعض الفرنسيين قد وصلوا الى مناصب ادارية عليا فى البلاد • كما كانت مصر دائما مصدر جذب بمناخها المعتدل للأجانب •

ويقول جان جاك لوتى Jean Jaques Luthie صاحب أشهر كتاب عن « اللغة الفرنسية فى مصر » (١) ، أن هناك سببا دينيا كان يحول دون وجود الاجانب فى البلاد • حيث ان السلطان العثمانى كان يتصرف بصفته المدافع الأول عن الاسلام • ولكن محمد على قد شجع تواجد الفرنسيين • ولعب أبناؤه دورا كبيرا فى التعاون مع الفرنسيين •

ويقول الكاتب ان المدارس الأجنبية قد لعبت دورا سياسيا فى تجميع ابناء الجاليات الأجنبية من ديانات مختلفة ليصبحوا تلاميذ فيها • ومن أهم هذه المدارس : الفرير للاخوة المسيحيين ، والآباء اليسوعيون • كما ظهرت بعد ذلك المدارس الانجليزية مع دخول الاحتلال البريطانى • وبداية القرن الحالى • وكانت هناك لغات أخرى سائدة مثل اليونانية والايطالية • فقد تم افتتاح أول مدرسة من مدارس الفرير المسيحية فى

---

(١) Le français en Egypte, J. J. Luthie, Beyrouth, 1981.

الاسكندرية عام ١٨٤٧ • ثم مدرسة الفرير اللازاريين عام ١٨٥٢ • « ومدرسة الآباء لصحبة المسيح » فى القاهرة عام ١٨٧٩ • « ومدرسة الآباء للمهمات الأفريقية » فى طنطا عام ١٨٨٣ • ثم مدرسة « الفرير البلومرية » عام ١٩٠٣ • كما تم افتتاح مجموعة من المدارس لتعليم البنات • مثل « الأخوات سان فانسان بول » فى الاسكندرية عام ١٨٨٤ • ثم مدارس اخرى فى القاهرة • وقد وصل عدد مدارس اللغات الفرنسية للبنات التى تم انشاؤها حتى عام ١٩٣٥ اثنتى عشرة مدرسة والتى انتشرت فى انحاء البلاد •

وبالاضافة الى ذلك ، تم انشاء معاهد تعليمية مثل « مدرسة الحقوق الفرنسية » التى تأسست عام ١٨٩٠ • وفى مجال التعليم فان الدولة لم تتوقف عن ارسال بعثاتها التعليمية الى الخارج حيث بدأت البعثة الأولى عام ١٨١٥ ثم سافرت البعثة الثانية عام ١٨١٩ • وقد درس مئات من الطلاب المصريين دراسات عليا فى فرنسا • ونظروا الى باريس باعتبارها منبعا للقانون والأدب • باعتبار ان مصر فى تلك المرحلة كانت تعتمد على نصوص القانون الفرنسى (تم ذلك حتى عام ١٩٥٠) •

كان نابوليون بونابرت قد أنشأ « معهد مصر » فى عام ١٧٩٨ • ولكن تم اغلاقه مع رحيل الفرنسيين فى عام ١٨٠١ • وفى عام ١٨٥٩ أعيد فتحه تحت اسم « المعهد المصرى » ثم استعاد اسمه الأول عام ١٩١٨• وقد اهتم بدراسة المجتمع المصرى جغرافيا وسياسيا • وقد آمن العاملون بهذا المعهد أن مصر هى نافذة العالم • فكانوا يدخلون منه الى أوروبا • وفى عام ١٨٨٠ تم انشاء المعهد الفرنسى للآثار الشرقية • والذى كانت مهمته – ولا تزال – دراسة مصر القديمة ، وأيضا تاريخ الحضارات الشرقية بشكل عام • وقد أصدر المعهد مطبوعات شبه دورية •

وقد تم انشاء مجموعة من الادارات والمؤسسات التى تعاملت مع اللغة الفرنسية فى المقام الأول • ومن هذه المؤسسات جمعيات ادبية وفنية عديدة • مثل « الاتحاد الفنى » الذى تم انشاؤه عام ١٨٩٨ • وقد ظل لمدة عشرين عاما مسرحا لعرض أهم الأعمال المسرحية الفرنسية والمصرية • وفى عام ١٩٢٠ تكونت « جماعة أصدقاء الفن » • والتى استمر نشاطها اثنى عشر عاما • وتم أنشاء « اتيلية الفنانين » عام ١٩٣٣ بواسطة الفنان التشكيلى محمد ناجى • وقد ظل هذا الأتيليه ، وما يزال ، بؤرة للنشاط الفنى فى الاسكندرية حتى الآن • اما القاهرة فعرفت نشاطا ثقافيا كبيرا حيث تكونت جماعات مثل « المحاولون » عام ١٩٢٤ ، و « أصدقاء الثقافة الفرنسية فى مصر » عام ١٩٢٦ ، ثم « اتحاد كتاب مصر الذين يكتبون

الفرنسية » عام ١٩٢٩ · وجماعة « الضيافة » عام ١٩٣٠ · ثم جماعة « الفن والحرية » عام ١٩٣٩ التى اهتمت بالفن السريالى ·

وقد أوقفت الحرب العالمية الثانية أنشطة أغلب هذه الجمعيات · ثم اهتزت العلاقات الفرنسية المصرية بعد حرب السويس · ولم يبق الآن من مؤسسات لها أنشطة فى هذا المضمار سوى مؤسسات قليلة مثل الأتيليه بالاسكندرية ، والمركز الثقافى التابع للقنصلية الفرنسية فى القاهرة والاسكندرية ·

وفى فترة الثلاثينات والأربعينات ازدهرت الصالونات الأدبية مثل صالون جريجوار سركسيان فى الاسكندرية ، وصالون الأميرة نازلى ، والكاتبة قوت القلوب الدمرداشية ·

ويقول جان جاك لوتى فى كتابه الذى اعتمدنا عليه فى هذا الجزء من التقديم التاريخى ، ان أول صحيفة صدرت فى مصر باللغة الفرنسية حملت اسم « لوكوربير دى جيبت » عام ١٧٩٨ و « لاديكا دى جيسيان » فى نفس العام ، اعتمدت الأولى على المعلومات والأخبار· أما الثانية فكانت ذات صبغة علمية · وفى عصر اسماعيل ظهرت مجلات سريعة ولم تتكرر المحاولة · ثم ظهرت جريدة « النيل » التى كانت تصدر كل اسبوعين · وهى تهتم بالأخبار والاقتصاد · وكان يطبع منها ١٦٠٠ نسخة · وسرعان ما تطورت الصحف الفرنسية ، فظهرت جريدة « البسفور المصرى » عام ١٨٨١ التى ما لبثت ان توقفت بعد الاحتلال الانجليزى ، وقد ساعد اغلاقها على اعطائها الكثير من الأهمية · وخلقت رأيا عاما مؤثرا فى الأوساط الشعبية · فعادت مرة أخرى الى الظهور · وكانت تتابع العروض المسرحية والفنية ، ثم أغلقت عام ١٨٩٥ ·

وقد تعددت الصحف ، وتخصصت بعضها مثل « البورصة المصرية » عام ١٨٩٩ · وشهدت سنوات العشرينات نشاطا ملحوظا فى صدور صحف يومية مثل « الحرية » عام ١٩٢١ ، و « الخبر » عام ١٩٢٥ ، و « الفنار المصرى » عام ١٩٢٥ وكانت تصدر بين القاهرة والاسكندرية · ومن أهم هذه المطبوعات « مصر الجديدة » التى دافعت عن حرية الفتاة المصرية · وهناك أيضا « المصرية » التى صدرت لمدة عشرين عاما · أما أهم المجلات فهى « الاسبوع المصرى » عام ١٩٢٦ وهى مجلة ادبية وسياسية · وقد استطاعت أن تصبح مركزا ثقافيا لأغلب الأدباء الذين كتبوا بالفرنسية ، وكان من أشهر أبنائها جورج حنين وأحمد راسم · وفى عام ١٩٢٨ صدرت مجلة « القاهرة » التى كانت لسان حال المفكرين المصريين ·

وقد صدرت مجلة « ايماج » عن دار الهلال عام ١٩٢٩ ٠ الا ان كل هذه المطبوعات قد اختفت تماما بعد عام ١٩٥٦ ٠ بينما صدرت جريدتان باللغة الفرنسية لا تزالان تصدران حتى الآن هما « لوبروجريه اجيبسيان » و « جورنال ديجبت » ٠

تركز نشاط الأدباء العرب الذين يكتبون باللغة الفرنسية فى ثلاثة مجالات رئيسية : الشعر والرواية ، ثم المقالات والفلسفة والنقد ؛ وعندما جاء الشعر الفرنسى الى مصر ٠ وجد نفسه فى مواجهة ثقافة فنها الأول على مدى التاريخ العربى وهو الشعر ، ويقول جان جاك لوتى فى كتابه السابق الاشارة اليه ان الشعر العربى فى القرن التاسع عشر بدأ يغير مجراه بعد احتكاكه بالشعر الفرنسى ؛ وقد تميز الكثير من الشعراء العرب فى تلك الفترة بنزعاتهم الرومانسية فى جوهرها ٠

وقد ظهر الشعراء البارنثيون بعد الرومانتيكيين ٠ وكان ذلك انعكاسا للتغييرات الاجتماعية التى شهدتها البلاد ٠ ثم ظهرت المدرسة السريالية فى عام ١٩٣٧ ٠ وقد كثفت هذه المدرسة كل جهودها من أجل تبنى كل من يسعى لايجاد أشكال فنية جديدة واختراق الأشكال التقليدية ٠ ووجدت هذه المدرسة من ينضم اليها ممن يكتبون بالعربية والفرنسية على السواء ؛ وضمت بعض الأسماء التى لم تنتم الى السريالية نفسها ومنهم ألبير قصيرى ٠ وأحمد راسم ٠ وقد حاول الأدباء الذين يكتبون بالفرنسية استلهام البيئة المحلية لتكون نسيج أعمالهم الابداعية ٠ ويرى ج ٠ ج ٠ لوتى أنه ليس من الغريب أن أهم شعراء هذه المرحلة كانوا ممن يكتبون عن البيئة المصرية ولم يحاولوا الانفصال عنها مثل راسم جان عراش ٠

ظل شكل القصيدة يتطور دائما ويتغير على أيدى الأدباء العرب الذين يكتبون باللغة الفرنسية ٠ وكانت قضية الشاعر دوما هى الحصول على أكبر قدر من الحرية فى التعبير ٠ ووسط هذه الاجواء بدأت العلاقات السياسية تتوتر ٠ ووجد البعض ــ حتى ما قبل ذلك ــ ان فرص النشر فى باريس ستكون افضل ٠ علما بانها لم تكن ابدا سيئة ٠ لكن بلا شك فأن أشياء كثيرة قد تقلصت ٠ ومن هنا شد بعضهم الرحال الى باريس مثل جويس منصور واندريه شديد ٠

أما فى مجال القصص والحكايات ؛ فمن المعروف أن أول كتاب عربى جذب اهتمام الفرنسيين هو « ألف ليلة وليلة » ٠ وقد ظهر القصاصون الذين يكتبون بالفرنسية قبل ظهور الشعراء ٠ فقد كتب جوزيف أجوب كتابه « الحكيم ميكار » عام ١٨٣٥ ٠ ورغم أن الكتاب كان بمثابة محاولة ساذجة الا أن التجارب اللاحقة كانت أفضل ، مثل

كتاب « اللآلىء المتناثرة » لواصف بطرس غالى المنشور عام ١٩٢٣ ٠ وقد فتح ذلك الباب لظهور مجموعة من المجموعات القصصية القصيرة المنشورة على فترات مختلفة مثلما فعل ألبير قصيرى ، وأندريه شديد ، وميرى فانسان ٠

ولم يكن ميدان الابداع فى القصة القصيرة بخصب لدى هؤلاء الأدباء قدر الابداع الروائى الذى وجد فرسانه ٠ ولا شك ان نجاح رواية « زينب » المنشورة باللغة العربية عام ١٩١٤ ٠ قد شجع اثنين من الكتاب هما ألبير عدس وألبير جوزيبوفتش أن يقدما «كتاب جحا البسيط» فى عام ١٩١٩ حول بعض نوادر جحا ٠ وفى الفترة بين عامى ١٩٢٤ و ١٩٢٩ نشر فرانسوا بوجان ثلاثيته « منصور » ٠ ويقول لوتى فى كتابه (١) ان هذه الثلاثية محاولة لتأصيل التدين لدى الطبقة البرجوازية المصرية المحافظة ٠ وبينما كانت الدولة تتجه نحو الصناعة قدمت اليان فينين رواية عن حياة الفلاح الذى يرسم الحقول ويهندسها من اجل مد المصانع بما تحتاجه وذلك فى رواية « مناضلو النيل » عام ١٩٢٨ ٠ وقدمت نفس الكاتبة رواية أخرى أرخت فيها لثورة ١٩١٩ تحت عنوان « حسين » ، ثم رواية ثالثة عن العلاقة بين اليهودية والاسلام عام ١٩٣٣ باسم « عباد الله » ٠

وقد اهتم الكثيرون من الأدباء المصريين الذين كتبوا بالفرنسية بالحياة فى الريف ، ومنهم ايضا اندريه شديد التى قدمت روايتها الأولى « نوم الخلاص » عن فتاة ريفية تعانى القهر من زوجها دائما ٠

أما ألبير قصيرى فيعتبر من أهم الكتاب الذين توغلوا فى أروقة مدينة القاهرة وأحيائها الشعبية فى روايات من طراز «شحاذون ومعتزون» و « منزل الموت الأكيد » ، وقد حاول البعض أن يسير على نفس النهج الذى مشى عليه أقرانهم الذين يكتبون باللغة العربية ٠ بالكتابة عن أجواء الأسرة المصرية وأساليب حياتها ، حتى لو كان التمرد فى العلاقات واضحا مثلما فى رواية « زنوبة » لقوت القلوب و « رمزة » ، وأيضا أندريه شديد فى أعمالها « نوم الخلاص » و « اليوم السادس » ، وفوزية أسعد فى «المصرية» ، الا أن البعض الآخر حاول أن يخرج عن أجواء الأسر مثلما فعل قصيرى فى « شحاذون ومعتزون » ٠

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٤ ٠

وفى مجال الابداع المسرحى كانت التجارب والمحاولات قليلة للغاية.
واغلب الذين كتبوا عن مصر من مسرحيات كانوا من الفرنسيين المقيمين .
وذلك لأن المسرح فى المقام الأول ليس نصا ادبيا بقدر ما هو نص يجب
أن يشـــاهده الجمهــور . وكان لابد لهــؤلاء المبـــدعين أن يفـــرزوا
من داخلهم من يكتب نقدا لأعمالهم ويتابعها . ولذا برزت بعض الأســماء
فى مجال النثر غير الابداعى مثــل راؤول كمــال والأمير عمر طوسون
وروجيه جوديل وأنور عبد الملك .

قـــوت القلـــوب :

قوت القلوب الدمرداشية هى واحدة من شهيرات الكاتبات المصريات اللائى يكتبن باللغة الفرنسية ، كما أنها من أوائل سيدات المجتمع المصرى اللائى آمن بقيمة الكلمة ، وفتحت بيتها ليكون صالونا ادبيا يأتى اليـه أبناء المجتمع البارزون من الرجال والنساء ٠

ولم تكن قوت القلوب امرأة متفرنسة ، بل هى امرأة مصرية ، سواء فى الدور الذى قامت به اجتماعيا ، أو فى ادبها الذى لم يجد طريقه الى اللغة العربية ، مما ساعد على أن تصبح مجرد شخصية هامشية ، بل يكاد لا يكون لها وجود فى خريطة هذا الأدب ، والسبب بالغ البساطة ، أن رواياتها ، وقصصها القصيرة لم تترجم حتى الآن الى اللغة العربية ، شأنها فى ذلك كل اقرانها الذين كانت هناك ايد خفية لوضعهم وراء الهامش بحجة أن لغة الابداع عندهم غير عربية ٠

ولذا ، مرت الســـنون الطويلة ، دون أن ينتبـه الناس الى هـذا الأدب ، وأصبح من الأهمية بمكان القاء الضوء على هؤلاء الكتاب وخاصة أن المراجع التى يمكن للمرء الرجوع اليهـا لمعرفة المزيد عن هؤلاء الأدباء كثيرة باللغة الفرنسية ٠

وتكاد تكون قوت القلوب هى الأديبة الوحيدة التى ارتبطت رواياتها بالأجواء الشرقية ، وعالم النساء فى الحريم ، وقد امتزجت أجـواؤها أيضا بالصـوفية ، وهو ليس أمرا غريبا على امرأة عاشت فى أسـرة متصوفة شهيرة ٠

وقـوت القلوب المولودة فى أواخـر عـام ١٨٩٢ تنتمى الى أسرة تنحدر من سلالة أحد أمراء المماليك ٠ هذا المملوك بدوره قادم من القوقاز مع العثمانيين الذين اتوا الى مصر عام ١٥١٧ ٠ وقد حملت هذه الأسرة اسم « **تيمور تاش** » والذى تحول بمرور الوقت الى الدمرداشية ٠ وتقول عن ابيها فى روايتها « ليلة المصير » المنشورة فى باريس عام ١٩٥٤ : « كان معروفا بحكمته ، ينمى فينا حب عاداتنا ، دون أن يعـرفنا أهميـة التربية الحديثة ٠ فالى ابى الذى ظل شيخا طوال سبعين عاما واعطانى النموذج الحى للرحمة » ٠

وقد كتب ناصر الدين النشاشيبي فصلا عنها في كتابه : « نساء من الشرق الأوسط » قال فيـه : « انها من عائلة رائدة في التصوف ٠ وكانت الطريقة الدمرداشية في التصوف تمتاز بالتربيـة الذاتيـة ، والخلـوات الفردية ، والتعبد الفردى ٠ انها مجـرد واحـدة من بين أكثر من ستين طريقة دينية صـوفية في مصر ٠ كمـا اسـتمرت الطريقة الدمرداشـية كغيرها من الطرق الصوفية المصرية تحاول أن تجمع في مسلكها وتصرفات أنصارها وخطوات المسئولين فيها شيئا من مظـاهر الاحتفالات الدينيـة الصاخبة التي يسيطر عليها التطرف في الاداء ، والصخب في الصوت ، والضجيج في الابتهالات ، مع الحرص على المساهمة في خدمة المجتمع ٠ ورعاية الفقير وتعليم الأولاد » ٠

« لقد عاشت قوت القلوب الدمرداشية وهي تسبح عكس التيـار بالنسبة لانتمائها الصوفي أو مسلكها العام أو تصرفاتها الشخصية » ٠

كانت قوت القلوب هي الابنة الوحيدة للشيخ عبد الرحمن الدمرداش الذى كان يعتبر نفسه شيخ الطريقة الدمرداشية في مصر ٠ وكان على جانب كبير من الثراء ٠ لذا نشأت في جو مليء بالرفاهية وبعيد عن الزهد والتقشف ، فتزوجت من رجل مصرى يقل عنها وجاهة وثراء ـ كمـا يقول النشاشيبي ـ فاحتفظت بحق العصمة في يدها ٠ ورزقت منه بثلاثة أولاد وبنت واحدة » ٠

« وعندما مات أبوها ترك لها ميراثا ضخما ، ومستشفى خيريا خاصا يحمل اسمه لا يزال يقوم بدوره في المجتمع حتى الآن ، مما مكن « قـوت القلوب أن تتسلح بأرفع ما تتمناه الفتاة من علم وثقـافة واجادة للغـات الأجنبيـة » ٠

وقد تسلحت الكاتبة بأمرين ساعداها على أن تحقق طموحها ، الأول هو المال ٠ أما الثاني فهو ثقافتها ٠ وفي كتاب « الأدب الناطق بالفرنسية منذ عام ١٩٤٥ » أن قوت القلوب أقامت صالونا ادبيـا للأدباء الـذين يكتبون بالفرنسية ٠

دخلت الكاتبة عالم الأدب بعـد أن تجاوزت الخامسة والأربعين ، في فترة أصبح فيها دخول المرأة المصرية الى الشارع والمجتمع قويا ٠ ونشرت روايتها الأولى عام ١٩٣٧ في دار المعارف باللغة الفرنسية تحت عنوان « مصـادفة الفـكر » ٠ وفي نفس العـام نشرت روايتهـا « حـريم » في دار جاليمار ٠

وقد تنوع عطاء الكاتبة بين الرواية والقصـة القصيرة واليوميات ٠ ومن رواياتها : زنوبة (جاليمار ١٩٤٠) والخزانة الهندسية (جاليمار

١٩٥١) والتى كتب مقدمتها الروائى المعروف جان كوكتو ، ثم «ليلة القدر» عام ١٩٥٤ (جاليمار) • وفى نفس دار النشر قدمت «رمزة» عام ١٩٥٨ • و «حفناوى الرائع» عام ١٩٦١ • وهو نفس العام الذى كفت فيه عن الكتابة • أما قصصها القصيرة فهناك « ثلاث حكايات عن الحب والموت » عام ١٩٤٥ • وعقب مصرعها على يدى ابنها باثنى عشر عاما • أى عام ١٩٨٠ نشرت يوميات الكاتبة المصرية تحت عنوان « ليالى رمضان » بالاضافة الى مجموعة من القصص التى لم تنشر من قبل •

ولعل المرة الوحيدة التى تعرف فيها القارىء المصرى على قوت القلوب هى فى عدد شهر ديسمبر عام ١٩٤٩ من مجلة « الهلال » حين نشر ملخص لروايتها « زنوبة » •

أما الباحثون المصريون فقد تعرفوا على قوت القلوب فى حدود ضيقة من خلال الدراسة التى نشرتها المكتبة الفرنسية المصرية بالقاهرة عام ١٩٨٥ تحت عنوان « قوت القلوب أو رؤية مصر الامس » أعدتها الدكتورة سونيا ابراهيم عقداوى • والتى حللت فيها أدب الكاتبة •

فى كتابها « ليلة القدر » تتكلم قوت القلوب عن نفسها قائلة : « لقد ولدت تحت أقدام مئذنة ، والتى كانت أول شيء رأيته ، فأحسست بها كأنها اصبع تشير الى السماء • أما أول شيء سمعته فهو اسم الله يتردد خمس مرات يوميا بصوت المؤذن فينشى روحى » •

وكما جاء فى مقدمة كتابها « ثلاث قصص عن الحب والموت » التى كتبتها أندرية موروا ، أن قوت القلوب قد ربت أبناءها تربية دينية حسب الشريعة الاسلامية ،كما تلقوا أيضا أسس العلوم والفنون الغربية • وكان بيتها مزارا لكل كتاب العالم الذين يأتون الى القاهرة أمثال فرانسوا مورياك ، واناطول فرانس •

وترى الدكتورة سونيا ابراهيم فى دراستها أن قوت القلوب لم تكن كاتبة « واقعية » ، ولكنها أختارت من الواقع عناصره الرئيسية • وكانت بطلات رواياتها من نساء المجتمع البرجوازى •

من هؤلاء النساء هناك زنوبة ، ورمزة ، وغيرهما ، وزنوبة امرأة تعيش فى بداية القرن العشرين تنتمى الى أسرة فقدت عائلها ، وهى فتاة جميلة ، كان عليها أن تتزوج رجلا على عتبة الشيخوخة ، ولكنها فوجئت أن هناك نسوة فى المنزل يسعين الى افساد هذا الزواج • وعندما تم القران أصبح الرجل الذى ارتبطت به مربوطا ربط الخيط بالمقص • وفى ليلة الزفاف لم يوجه العجوز الى زوجته كلمة غزل واحدة • وقضى ليلته ممددا على مقعد طويل •

وعندما اقبل الصباح لم تجده في حجرتها • فقد مات العجوز • وهكذا ظلت عذراء في ليلة عرسها وهي الأرملة الصغيرة ، وبعد عدة اشهر تتزوج من رجل يدعى عبد المجيد • كان كل همه ان تنجب له ولدا • لكنهـا لم تحمل بالسرعة التي تحدث للنساء في البيوت المجاورة • فراحت تدعي أنها حامل • ولم تكن كذلك • « فلم يتطرق الشك الى ذهن أحد ممن كانوا يرونها ويراقبون تطور حالتهـا • الى ان ذهبت الى بيت ابيهـا لتضـــع مولودها فيه جريا على العادة المتبعة • فاذا بالمولدة تقـدم الطفلة الوليدة لحماتها • فأسرعت زنوبة الى أسرتها • ثم عادت مرة أخرى الى منزلها • وعند الميلاد تشعر بمشاعر جديدة : « اقتربت الأم الشابة من طفلتهـــا الصغيرة وحملتهـا بين ذراعيهـا وضمتها الى صدرهـا • وقدمت لهـا صدرها • وارتفعت أصوات النساء بالزغاريد » •

لكن الفرحة لم تكتمل ، فليس الانجاب هو المهم في هذا المجتمع ، بل أيضا انجاب الذكور • فالويل كل الويل لمن ليس له ولد ! والويل ألف مرة للمســكين الذي لم ينجب ذكرا • ان نعشه يحمله الأغــراب ، ولن يجد المعزون في بيته من يوجهون اليه العزاء » •

والحرية هي احدى المسائل البالغة الأهمية في روايات قوت القلوب خاصة حرية المرأة • فالمرأة الشرقية مسورة بقيود تمنعها من حريتها ، وأم «رمزة» على سبيل المثال كانت في سن تسمح لهـا بالمغـامرة • ولكنهـا سرعان ما دخلت الى حريم الأمير • ولانها فتاة ذكية ، فقد حصلت على حظوته ، وعلى مكانة طيبة داخل الحريم • ولكن ابنتها راحت تتمتـع بحريتها • وقد بدا ذلك واضحا من خلال ترددها على المكتبة ، واستيعاب المعرفة • وهي تعتبر نموذجا مخالفا لزنوبة • فهي فتاة ذات استقلال خاص • وطموح ، حيث ترفض ألا يراها زوجها قبل الارتباط •

وفي روايتها «الخزانة الهندسية» نرى نموذج عائشة الريفية البسيطة التي كان من حسن حظها أن تربت مع ابنة رضوان بك في القاهرة • وإذا فهي لا تتصرف كخادمة • ولكن كابنة لرضوان • وقد استطاعت أن تجذب انتباه المجتمع من حولها • وهي تهوى الموسيقا وتجيد العزف على العود، مما دفعهـا أن تصبح مطربة مشهورة ، وتجيء أهمية نموذج عائشة ليس فقط من انها تحررت من القيود الاجتماعية البالية ، لكن في انها أصبحت مثالا يحتذى به للكثير من الفتيات •

وقد رأت رمزة أن خلع الحجاب ليس أبدا تمردا على الدين ولكنـه حالة من الانفصال عن سطوة الرجل الذي ينظر اليها نظرة جنسية •

- أما رمزة بطلة الرواية التى تحمل نفس الاسم فهى فتاة فى الرابعة عشرة من العمر عليها الا تكشف وجهها قط عندما تخرج من المنزل · خاصة عندما تدخل سلاملك أبيها · وهى تعيش فى مدينة الاسكندرية التى يعيش فيها أبناء جنسيات عديدة · وتتفاوت مسألة الحجاب بالنسبة للفتاة حسب الأمور ، فعندما تنزل الى الحديقة ، عليها أن ترتدى حجابا ثقيلا حتى لا يراها أحد · أما اذا ذهبت الى صديقاتها الفرنسيات فيجب أن ترتدى حجابا أبيض خفيفا ، وهى لا تخفى أنه يسبب لها ضيقا ويعرقل حركتها ··

وفى رواية « حفنـاوى الرائع » تذهب زكيـة الى رأس البـر مـع زوجهـا الذى يفـرض عليهـا أن تغطى كل جسـدها لأنه يشـعر بالغيرة عليهـا ·

وقد وصفت قوت القلوب حالة العبودية التى تعيشها بعض النسـاء بعد الزواج فى قصصها ورواياتها وخاصة فى « رمزة » · لكن هذه المرأة لا تلبث أن ترفض أن يقوم الرجل بتعريتها حين ينظر اليهـا · فهى ليست حيوانا · ولكنها كائن يفكر ويحس : وسلوك رمزة يثير قلق أمهـا التى تقول لها : « ستفعلين مثل الأخريات يا ابنتى ؟ سـيقولون لأنك ذهبت الى المدرسـة ·· ولأنك تعلمت · تريدين ان تحطمى تقـاليدنا » · لكن الفتاة لا تود أن تعامل كسلعة · فقد مضى عهد استعباد المرأة · وتقرر أن تقـوم باختيار زوجها بنفسها · ولأن مسألة اختيار الزوج صـعبة فى هذا المجتمع فانها تردد : « عندما تودين حلية فانك تذهبين الى الجواهرجى ، وعندما تودين مسكنا، تسالين سمسارا · واذا رغبت فى زوج فيجب أن تكـونى قادرة وماهرة فى الاختيار » ·

وأغلب نساء قوت القلوب لا يقفن موقفا سلبيا فى المجتمـع · فـ « رمزة » تتعلم القراءة والكتابة أيضا فى « الكتاب » ثم تتطور فى تحصيل المعرفة ، وتصادق الفرنسيات ، وتحب رجلا يدعى ماهر وتبدو واضحة وهى تعبر له عن مشاعرها ، ثم تتزوجه ضد رغبة أبيها · وتكون الصدمة أن زوجها يرفض أفكارها المتحررة ·

هذا هو بعض من عالم قوت القلوب والذى كتب عنه أدباء مشاهير من طراز اناطول فرانس ، وأندريه موروا الذى رأى أن عالمهـا أقـرب الى ما قدمته لنا الكاتبة النيوزلندية الشهيرة كاثرين منسفيلد ، فى طى حديثه عن المجموعة القصصية « ثلاث حكايات عن الحب والموت : نظيرة ، زهيرة ، ظريفة ، هؤلاء البنت البائسات الثلاث قد قمن بتعريفى الكثير عن مصر · أكثر مما أعرفه عن انجلترا · عن نساء كاثرين مانسفيلد ، أو مما تعلمته عن نساء فرنسا كما كتبت كوليت » ·

ألبير قصـــيرى :

لم يتنبه القارىء العربى الى أهمية الكاتب المصرى ألبير قصيرى الا بعد ترجمة روايته « شحاذون ومعتزون » الى اللغـة العـربية عام ١٩٨٧٠ وتأكدت مكانته بعد ترجمة روايتى « منزل الموت الأكيـد » و « العنف والسخرية » وهكذا ، ظلت اللغة الفرنسية التى يكتب بهـا قصـيرى ابداعه حائلا دون أبناء وطنه من العـرب ٠

وقد أثارت هذه الرواية انتباه القراء العرب لأسباب عديدة منهـا أنها تدور فى حى الأزهر والمنـاطق الشـعبية القريبة منـه ٠ وهى نفس المنطقة التى دارت فيها أحداث بعض روايات نجيب محفوظ ، بالاضافة الى أن أبطال هـــذه الرواية كانت لهم مواقف واضحة من النـــاس والمجتمع والحياة ٠ وخاصة أن أغلب هذه الشخصيات كانت معروفة للناس مثل بطله الشاعر يكن الذى كان يحمل نفس الاسم فى الحياة٠ كما أن الحقبة الزمنية التى تدور فيها أحداث الرواية ـ بداية الحرب العالمية الثانية ـ لم يلق عليها الفن الروائى المصرى الضوء بالقدر الكافى ٠

وأبطاله رواية « شحاذون ومعتزون» Mendiants et Orgueilleux وترجمة الرواية الحقيقية هى « ومتكبرون » ، لديهم حس وطنى عـال ، لا يتسم بالزعيق مثلمـا نرى فى الكثير من الروايات السياسـية ، بل هم يتعاملون مع هذه الحكومات المتتابعة بسلبية شديدة لانها لا تنتبه الى مشاكل الناس ٠ وخاصة أن هـذه السمة موجـودة فى روايـات عـديدة للكاتب ، حيث تتحول السلبية الى نوع من السخرية فى رواية « العنف والســخرية » ٠

وبعد ثلاثة أعوام من ترجمة «شحاذون ومعتزون» الى اللغة العربية، منحت الاكاديمية الفرنسية قصيرى جائزتهـا السـنوية الـكبرى للأدب المكتـوب باللغـة الفرنسية ٠ وقـد منحت الجـائزة لقصيرى بصفته كاتبا مصريا ٠ فحصل على ما قيمته ٤٠٠٠ ألف فرنك فرنسى ٠ وفى نفس السنة تم تحويل هذه الرواية الى فيـلم سينمائى مصرى أخرجته أسماء البكرى وحصل على جوائز عديدة ٠ فهو كاتب مصرى قلبا وقالبا ٠ ليس فقـط لأنه لايزال يحمل الجنسية المصرية منذ أن رحل الى فرنسا فى عام ١٩٤٥ ؛ ولكن أيضا لأنه رغم رحيله فانه لم يكتب سوى عن البيئة التى جاء منهـا بل وعن قاع المجتمع فى مصر ٠ كما فاز عام ١٩٩٥ بجائزة جاك أوديبرتى فى مدية أنتيب الفرنسية تقديرا لأدبه ، ولمرور نصف قرن على اقامته فى نفس الغرفة بالفندق ٠

وألبير قصيرى من مواليد مدينة القاهرة فى الثالث من نوفمبر عام ١٩١٣ ٠ من أبوين مصريين ٠ التحـق بالمـدارس الدينيـة الفـرنسية فى

القاهرة مثل اغلب ابناء جيله بعد أن عاشت اسرته لفترة بين الاسكندرية ودمياط ٠

وقد عشق قصيرى القراءة فى سن مبكرة ٠ وأعجب بالشاعر الفرنسي بودلير الذى كان له تأثير قوى عليه ، لدرجة أنه استلهم عنوان كتابه الأول الذى نشره فى القاهرة تحت عنوان «اللدغات» les morsures من بودلير ٠ كان قصيرى قد سافر الى باريس لأول مرة عام ١٩٣٠ ٠ وفي العام التالى نشر ديوان شعره الأول الذى ضم عددا قليلا من الصفحات ٠

وفى عام ١٩٣٩ سافر البير الى الولايات المتحدة ، وهناك التقى بالكاتب الاباحى المعروف هنرى ميللر الذى اعجب بابداعاته ، وترجمها الى اللغة الانجليزية ٠ وكان قصيرى ينشر فى تلك الفترة قصصه فى مجلة « الاسبوع المصرى » ، ومن هذه القصص « رجل متفوق » ٠ وهى مجلة كانت تصدر فى القاهرة باللغة الفرنسية ٠ ومن الجدير بالذكر أن هذه القصة قد غير عنوانها الى « ثار ساعى البريد » التى نشرت فى مجموعته القصصية الأولى والوحيدة ، « الناس الذين نسيهم الله ، les hommes oubliés de dieu عام ١٩٤٠ ٠ وهو نفس العام الذى صدرت فيه بالقاهرة ايضا روايته الأولى « منزل الموت الأكيد » ٠

وقد انضم قصيرى الى جماعة ادبية يسارية المنهج والاتجاه عرفت باسم « الفن والحرية »التى كانت تؤمن أن الفن « لا يتكون من صور أو أشكال منحوتة ، لكنه يمثل شيئا آخر ٠ ابعد من كل الترجمات الممكنة للحياة ٠ وأبعد من كل التفسيرات المؤقتة أو الخالدة للأحاسيس ٠ ولكل حالات وأوضاع الوعى ٠ الفن يمثل طريقة وجود موقف حيوى ٠ وفى نفس الوقت عاطفى وواع » (١) ٠ وكان من ابرز أعضاء هذه الجماعة جورج حنين وأنور كامل ورمسيس يونان وفؤاد كامل وكامل التلمسانى ٠ وقد أصدرت الجماعة مجلة أدبية مهمة تحمل عنوان « التطور » ترجمت فيها لالبير قصيرى ثلاث قصص هى « قتل الحلاق امرأته » ، و « مدرسة الشحاذين » ، و « ساعى البريد رجل مثقف » ٠

ومثلما صادق قصيرى الكاتب الأمريكى ميللر قبل الحرب ٠ فانه تعرف على الكاتب البريطاني لورانس داريل الذى كان يعيش فى مصر فى تلك الآونة ، وهو صاحب رباعية الاسكندرية ٠

(١) السريالية فى مصر ــ سمير غريب ــ هيئة الكتاب ــ القاهرة ــ ١٩٨٦ ص ١٥٠ ٠

وفى عام ١٩٤٥ عمـل قصيرى فوق سفينة تجـارية · وحول هذه التجربة تحدث الى كاتب هذه السطور حين زيارته لمصر فى عام ١٩٨٩ قائلا : « لم أكن أنوى مغادرة مصر · لكن هى روح المغامرة التى كانت تتلبسنى دائما منذ الطفولة ، كنت أحلم بالقيام بجولة حول العالم لأختلط بأجناس بشرية عديدة · فالتحقت عام ١٩٤٥ للعمل كبحار مبتدىء فى احدى السفن المصرية التجارية · كان بها جزء مخصص للركاب وتحمل اسم « النيل » ظلت تجوب بى الموانىء شهورا طويلة · كنا نترك الميناء لنـذهب الى أخرى ·

« فى نهاية الرحلة رست السفينة على الساحل الفرنسى · فوجدت أننى عثرت على ضالتى · فهنا يمكننى أن أنشر كتبى باللغة التى أجيـد التعبير بها · هنا مركز ثقافى واشعاعى يمكننى أن أتكيف معه ·

« كانت فرنسا بابا مفتوحا بعد الحرب العالمية الثانية · وكانت تشهد حركة ثقافية وفكرية كما ننشدها جميعا كمثقفين مصريين من أعضاء جمـاعة الفن والحـرية · وذلك فى الأدب والفلسفـة والفـن التشـكيلى والسينما » ·

ومن المعروف أن قصيرى قد أقام منذ تلك الآونة فى فندق صـغير بباريس عقب نزوله المدينة · وظل يسكن به منذ ذلك التاريخ حتى الآن · لا يفكر أن يغيره ، ويقع هذا الفندق فى الحى اللاتينى الذى تقع فيه مقهى المونمارتر التى يجلس عليها أشهر أدباء فرنسا · وقد صادق كـلا من جان بول سارتر وسيمون دى بوفوار وجان جينيه · أما أقرب أصـدقائه الى نفسه فقد كان الكاتب ألبير كامى ·

وقد كتب منتصر القفاش على لسان ادوار خراط أن قصـيرى كانت حياته « تدور كلها داخل مثلث رؤوسه الثلاثة المقهى والفندق والمطعم ، ولا يخرج عنها تقريبا · قال لى انه من دمياط أصلا · وانه أوشك أن ينسى التحدث بالعربية منذ موت والدته التى كانت تقيم معه فى باريس ولم تتعلم حرفا من اللغة الفرنسية · ولا تعرف القراءة والكتابة الا باللغة العربية · لاحظت أنه يتردد أحيانا فى العثور على الكلمة باللغة العربية · وفضلنا مواصلة الحوار بالفرنسية » (١) ·

ورغم أن الكاتب عاش فى باريس كل هذه السنوات ، الا أن الصحف الفرنسية اطلقت عليه اسم « المنسى من الجميع » أما مجلة « لاكتويل » فقد قالت فى عددها الصادر فى ابريل ١٩٩٠ انه أشهر كاتب كسول فى العالم ·

---

(١) البير قصيرى ــ منتصر القفاش ، جريدة الحياة ، ٦ ديسمبر ١٩٩٠ ، ص ١٢ ·

لم يدفعه هذا الكسل الى الكتابة فقط عن الكسالى والذين لا يحبون العمل · بل انه لم يكتب فى حياته سوى سبع روايات منها « كسالى فى الوادى الخصيب » les faineants dans la vallée fertile ١٩٥٤ · و«شحاذون ومعتزون» عام ١٩٥٥ · و «العنف والسخرية» la violence et la dérision عام ١٩٦٤ · و « مؤامرة مشـــعوذ » un complot de saltimbanque عام ١٩٧٥ · وقد اشـترك فى كتـابة مجمـوعة من سيناريوهات أفـلام سينمائية عديدة ·

وتقول الدكتورة رجاء ياقوت فى محـاضراتها المنشـورة باللغـة الفرنسية عن قصيرى : «ان اقامته فى باريس فتحت آفاقا جديدة وسمحت له أن يستكمل دراسته وأن يتمكن أكثر من اللغـــة الفرنسية · بدرجــة لا تجعــل أحــدا يضاهيه » ·

ومفتاح الدخول الى أعمال قصيرى هى حالة الكسل التى يعيشهـا أبطاله والسخرية التى يتحدثون بها عن الحكومة · فهذه الشخصيات تعيش فى مجتمعات فقيرة · ولا تميل الى العمل مثل قصيرى نفسه · ولعل هذا المدخل يمثل ردا نموذجيا على هؤلاء الذين لم يعجبهم عالم قصيرى · فقد تصور البعض أن قصيرى يكشف للأجـانب الجـانب السـلبى فى مصر بتصويره الأحياء الشعبية · وكأن هنـاك علاقة بين الابداع والسياحة · فقد توغل قصيرى فى هذه الاماكن · كمـا توغـل فى الاشخاص الذين عاشوا فى هـذه الامـاكن · فكـل من يكن وجوهـر والكردى فى رواية « شحاذون ومعتزون » · قد آثروا ان يعيشـوا على هامش المجتمـع · خاصة جوهر استاذ التاريخ الذى قدم استقالته احتجاجا على تفاهة وزيف المناهج · وقرر أن يعيش كســولا فى غرفة ليس بهـا من الأثاث سوى ورق الصحف · وهو رجل يعشق الليل لمـا به من سكون · ويبتعد عن النهار لمـا به من حركة وحياة صاخبة ·

وقد ظهرت نماذج عديدة من الكسالى فى روايته « منـزل المـوت الاكيد » la maison de la mort certain · خاصة شخصية عبدالعال بائع الشمام · فهو لا يبيع طيلة العام الا الشمام فى موسمه · وهو موسـم قصير للغاية · وفى بقية الشهور يظل بلا عمل يعانى من الفقر والجوع · كما أن الحوذى قد آثر ان يعيش أيضا فى بيت مشروخ الجـدران وهـو قليلا ما يعمل · والعجوز كاوه أيضا رجلا بلا وظيفة · كما أن احمد صفا يجيد التحايل على الآخـرين من أجل أن يأخذ مبلغا صغيرا من المـال كى يذهب به الى « الغرزة » المجاورة ليعيش لحظـات صفاء ·· وهناك رجل آخر يمكنه أن يسرق الماعز كى يذبحه ويلتهمه وهو لا يعمل · رغم انه وأسرته يعانون من جوع شديد ·

أما العاملون فى هذه الرواية فهما الزبال ولاعب القرود • والزبال فى هذه الرواية يبدو كريها • رغم أنه الوحيد الذى يعمل فى وظيفة حكومية تميزه عن الآخرين • وهو لا يتوانى عن ان يفخر بهذه الوظيفة أمام سكان العطفة • وهو رجل متقدم فى السن • متزوج من فتاة صغيرة مصدورة • شديد الغيرة عليها • ويغلق الأبواب حتى لا ترى العالم من حولها • فاذا خرج بها لزيارة أهلها أحاط الأمر بسرية تامة •• وهو فى نهاية الرواية يترك البيت الآيل للسقوط بنفس السرية من أجل السكن فى مكان آخر • ويصور قصيرى هذا الشخص أقرب الى الجلف الذى لا يجيد التعامل مع البشر ، وخاصة زوجته وجيرانه •

وهؤلاء الأشخاص يعيشون دائما على هامش المجتمع • منسيين من المجتمع • ومن السماء • وأيضا من الحكومة • ولو راجعنا الطريقة التى يتكلم بها أبطال رواية « منزل الموت الأكيد » عن الحكومة ، فسوف نراها مليئة بالسخرية وتنم عن مدى انفصال الطرفين • فسكان هذا المنزل يتعاملون مع الحكومة بصفتها شخصا محدد الهوية • فهم لم يذهبوا مثل البشر الى المدرسة • وهم لا يعرفون ماذا تكون الحكومة سوى أنها حكومة • ولا يظهر من هذه الحكومة سوى رجل الشرطة الذى يأتى ليستدعى سكان المنزل الآيل للسقوط للادلاء بشهادتهم فى أمر الرسالة التى أرسلوها ••

أما الحكومة فى رواية « شحاذون ومعتزون » فهى غالبا رجل الشرطة • ضابط البوليس المصاب بالشذوذ والذى يبدى تعاطفا واضحا مع هؤلاء البشر الهامشيين والمنسيين • وهناك أيضا « مخبر » يراقب الكردى فى الترام وكأنه يبلغه انه يطارده • فضلا عن المخبر الذى دسه رؤساؤه فى بيت الهوى الذى تمت فيه الجريمة •

وهؤلاء البشر منسيون أيضا من السماء • وخاصة فى رواية «منزل الموت الأكيد» ، فأحداث الرواية تدور فى شتاء قارس بالغ القسوة • وفى مكان عال من القاهرة • قريب من القلعة ، وتفتتح الرواية فصولها بطفل دخل الى البيت الآيل للسقوط وقد تجرد تماما من ملابسه وهذا الطفل يبدو كأنه استعذب عريه الاجبارى ؛ لأننا سنراه يلعب مع الأطفال فى مكان آخر من الرواية وهو مازال عاريا :

وتقول الدكتورة رجاء ياقوت ، فى البحث المشار اليه : انه اذا كان أبطال روايات قصيرى المكتوبة قبل عام ١٩٦٤ منسيين، فان أبطال الروايات المكتوبة بعد هذه الفترة من القرويين وهم يريدون من خلال نشاطهم الثورى أن يكونوا شهودا على مواقفهم •

ولـكن هـذا لا يلغى ان موقف الهامشيين فى رواية « شحاذون ومعتزون » ، ثم عبد العـال فى « منزل الموت الأكيد » وطاهر فى « العنف والسخرية » ثورى · وان كان موقف جوهر الثورى السلبى · الذى ينسحب بسهولة من الميدان كى يتعاطى الأفيون والمخدرات ، فان عبد العال يعلم السكان التمرد ويطلب منهم عدم دفع الأجرة لصاحب البيت لأن المنزل بلا سكان لا يعتبر بيتا ، اما طاهر فيؤمن بضرورة اغتيال المحافظ وأن ما يفعله المتمردون الساخرون ليس سوى نوع من لعب الاطفال ·

ورغم أن الكثير من هـؤلاء البشر منسـيون ، الا أنهـم أصـحاب مبادىء ، ولا يمارسون الشرور الكبرى · فشرورهم ، ان وجدت ، صغيرة وعابرة · مثل الشخص الذى يمكن ان يسرق قطا من اجل بيعه · وفى رواياته هناك المغنى الذى يبحث عن فرصة · والموظف الباحث عن امرأة يمارس معها الهوى · حتى جريمة جوهر فى « شحاذون ومعتزون » فهى جريمة مجانية · لم يقصد أن يقوم بها ، ولذا لم يكن من السهل اكتشـاف فاعلهـا ·

أما عن المكان ، فترى د· رجاء ياقوت ، انه قبل عام ١٩٦٤ كان ابطال روايات قصيرى من الفقراء · ولكن بعد ذلك بدأ يزحف الى شارع فؤاد حيث عالم الأثرياء · فهذا الشارع مليء بالمحلات التى تبيع بضائعها للاثرياء · وهؤلاء الاغنياء يتسمون بأنانية ملحوظة · ولا توجد شخصية نموذجية فى هذه الروايات من الاغنياء · ومن هؤلاء الاغنياء سى خليل صاحب البيت فى رواية « منزل الموت الأكيد » · والحقيقة ان عالم قصيرى ظل كمـا هو · فرواية « العنف والسـخرية » تدور فى أروقـة مدينـة الاسكندرية ، وفوق سطح منزل يطل على البحر ·

وفى بعض روايات قصيرى فان الفقراء يظلون قابعين فى احيائهم ، التى يصورها الكاتب قذرة عفنة ، اما احياء الاغنياء فهى نظيفة ومشمسة، وفقراء المدينة لا يفكرون كثيرا فى الانتقال الى حيث يعيش الاغنياء ·· فاذا كان « يكن » مغـرما بفتاة تتعـلم الموسيقا وتسكن فى أحـد الأحياء الافرنجية، فان أحدا لا يذهب بالمرة الى هذه الأحياء فى رواية «منزل الموت الأكيد» · بينما البشر المنسيون فى الرواية التى تحمل نفس العنوان عندما يذهبون الى الحى الافرنجى يحسون انهم تائهون « يمرون قريبا من هذه الاضواء كأنهم ظلال خائفة · ينقلون معهم جيهم المليء بالطين ومأساتهم القذرة · ويجمعون ندمهم · ندم قديم مستغرق فى الأرض · ورغم كل شيء فانهم لا يريدون أن يموتوا » (١) ·

---

(١) Albert Cossery, Cours donnés, en Français, Rajaa Yaquotte, le Caire.

وهؤلاء الفقراء ليس لهم الحق أن يحلموا ٠ فالأحلام دائما خطـرة ٠ قد تجعلهم يتطلعون ويطمحون وهذه هى قمة المأساة ٠ فعندما تطلـــع جوهر الى اساور العاهرة ارنبة فى رواية « شحاذون ومعتزون » لم يكن يعرف أنها أساور مزيفة ٠ وارتكب من أجلها جريمة قتـل مجانية ، وكذلك فان « يكن » عندما تطلع الى التلميذة التى تســـكن الحى الافرنجى فانه لم يأخذ سوى تلك الرسالة التى دسها فى يدها وهى عائدة ليلا الى منزلها ٠

ويهمنا أن نصـــور النساء فى روايات قصيرى ٠ فدائمـا هنـاك امرأة تعيش على الهـامش ٠ والرجل فى روايات قصـيرى ينظر الى المرأة على انها شىء يمكن ان يجده ويمارسه مثلما يفعل مع المخدرات ٠ والمرأة فى رواية « شحاذون ومعتزون » تمارس الهوى فى أغلب الحالات ابتداء من أرنبة التى ماتت وهى تغوى جوهر ٠ ومرورا بالنماذج التى ساقها الكاتب فى الرواية ٠ أما فى « منزل الموت الاكيد » فهى فى اغلب الحالات زوجة ٠ ولكنها زوجة شرسة ، حتى وان كانت عجوزا ٠ وهناك عـاهرة سابقة تزوجت من سى خليل صاحب البيت ٠ كما ان هناك فتاة صغيرة يمكنها أن تغوى العجوز كاوة من أجـل ثمرة برتقال مضروبة ٠ والعــاهرة فتاة طيبة فى « العنف والسخرية » فهى تصدق كلمات كريم ٠ وتعود اليه دوما لأنها تثق فيه ، ولا تأخذ منه المال رغم أنها لا تعرف أنه مفلس ٠ كما أن العاهرة فى« تسالى فى الوادى الخصيب » تحب رجلا وتود أن تتزوج منه لكنه رجل كسول ينام أياما دون يقظة ٠

والمرأة أداة لدى ابطال قصيرى ٠ لا يتمردن أبدا ٠ ويمكن للرجل ان يغير المرأة مثلما فعل فى رواية « منزل الموت الأكيد » ٠ أما فى رواية « العنف والسخرية » فان هيكل يعرف من صديق له أنه لا يستطيع أن يغير سيارته كل سنة ٠ لكن من السهل أن يغير زوجته فى كل عام ٠ وهـــو يستخدم فتاته الصغيرة ، كى تحصل على معلومات عن مشاريع المحافظ وتحركاته بصفته صديق أبيها ٠

ونحن نقف من وصف قصيرى لهذا العالم موقف الحياد ٠ فهـذه هى رؤيته للعالم ٠ وهى رؤية مبدع ٠ ولعل قصيرى كان يكتب عن عـالم ضيق ٠ مثل عالمه القاهرى الذى وصفه ٠ وايضا عالمه الضيق الذى عاشه فى مدينة باريس ٠ فأبطاله ، كما سبق أن اشرنا ، كسـالى مثله ٠ أو لعله هو الذى اكسبهم هذا الكسل ٠ فمن الغريب فعـلا ٠ وفى عاصـمة فرنســا ، أن يعيش شخص لأكثر من خمسـين عاما فى غرفة صـــغيرة بفندق بسيط ٠ لا يمكن لهذا الشخص ، حين يكتب ، أن يتكلم عن اشخاص يملؤهم الطموح ٠ ويسعون للعمل ، أو يسدون المنـزل الذى يكاد ينهـار فوق رؤوسهم ٠ وذلك بدلا من اطلاق اللعنات ٠ مرة تجاه صاحب البيت المخادع « سى خليل » فى رواية « منزل الموت الأكيد » ومرة أخرى تجـاه

الحكومة التى لا يعرفون كيف يخاطبونها · أو كيف يتعاملون معها وهم فى النهاية ، عدا الزبال ، يجلسون فى البيت الآيل للسقوط ينتظرون أن يسـقط عليهـم ·

والجدير بالذكر ان هناك سخرية مريرة تتمثل فى بعض روايـات الكاتب وهى سخرية منسكبة أيضا من قصيرى نفسه · فهو شخص ، كما لمست حين التقيت به اكثر من مرة ، يتمتع بخفة ظل · وقـد بدت هـذه السمة من خلال الحمار « برغوت » فى رواية « شحـاذون ومعتـزون » صاحب النكتة الشهيرة · وأيضا من خلال مواقف عديدة تعرض لهـا « يكن » الذى تطارده الشرطة · حين ذهب للاقامة فى فنـدق يعطى الأغطية للزبائن ·· ثم يسحبها منهم بعد أن يغطوا فى النوم من أجل اعطـائها لزبائن جدد · ومثل هذه السمة لم تبد كثيرا فى رواية « منـزل المـوت الاكيد » · الا من خلال مواقف بالغة المرارة · مثل النساء اللاتى ذهبن لمقابلة سى خليل والأطفال الذين ألقوا بدراجة سى خليـل فى الوحل وأيضا حكاية المهندس المزعوم الذى جاء يعاين البيت الآيل للسقوط · ولكنهـا بادية فى السخرية من المحافظ فى « العنف والسخرية » بتعليق صوره فى الميادين والأماكن العامة تمتدحه ويبدو فيها مثيرا للضحك · وكذلك فى موقف الخاطبة وهى تدلك قفـا الأب فى رواية « كســالى فى الـوادى الخصيب » ·

من المهم أن نقـدم فى ختام حديثنا عن أدب قصيرى المكتوب باللغة العربية أنه يرتبط باللغة عند الكاتب · فعند قراءة النص الفرنسى يمكن أن نحس لأول وهلة انه مكتوب باحساس عربى أو أنه رواية عربية تمت ترجمتها الى اللغة الفرنسية ، وليس العكس ، سواء فى اختيار أسـماء الأشخاص وكتابتها مثلما هى فى النص الفرنسى · فهو حين يكتب سى خليل ، أو سـليمان العبيط ، فانه يكتب الاسـمين كاملين بالحـروف اللاتينية · كما حدث ذلك فى اسم « الحاجة زهرة » فى رواية « كسالى فى الوادى الخصيب » ·

وتقول الدكتورة رجاء ياقوت ان تعبيرات الكاتب لهـا أشـكال تؤكد أنه لايزال عربى الهوية والاحساس · ومن الصعب ترجمة هذه التعبيرات الى اللغة الفرنسية · فيتركها بنفس معناها العربى · ففى رواية «شحاذون ومعتزون » · فان « أم يكن » تعتبر ابنها جميلا لأن القرد فى عين أمه غزال · وفى رواية « العنف والسخرية » فانه عندما يطلب طاهر من صديقه القديم كريم أن يقدمه الى هيكل ، فانه يقدمه بطريقة مصرية :

« باسم العيش والملح الذى اكلناه معا · أحلف لك انني لم اتصل بهـذا الرجـل » ·

وقد ساقت الدكتورة رجاء العديد من النماذج في روايات أخرى ·
واكدت ان هذه المصرية قد وصلت ايضا الى اسماء الاماكن مثل شارع فؤاد · ومدخنة عابدين ثم شارع عماد الدين في رواية « كسالى فى الوادى الخصيب » ، ورغم أن كل مؤشرات المكان تدل على أن « العنف والسخرية » تدور أحداثها في الاسكندرية الا آنه يجرد الأماكن مثلما يجرد الشخصيات·

وروايات ألبير قصيرى صـعبة المفردات اللغوية والأدبية · ولكنها فى نفس الوقت مكتوبة بلغة جميلة · اما بالنسبة للحـوار ، وخاصة فى هذه البيئة الشعبية فان المرء يحس انه مكتـوب بلسان هـؤلاء الناس · وأغلب الظن أن قصيرى لو كان يكتب باللغة العربية ، لاختـار أن يكون الحوار باللغة العامية المصرية· وقد يكون من السهل على المترجم ان يكتب ترجمته باللغة الفصحى · لكن اللغة العامية التي يقصدها الكاتب من الصعب ترجمتها بدقة · وهناك فى الحوار كلمات مثل « بس » و « لسه » وجمل أخرى كثيرة مماثلة · ويمكن لقارىء ألبير قصيرى ان يترجم داخل ذاته الجمل الفصحى التى يكتبها سواء أكانت بالفرنسية أم تمت ترجمتها الى اللغة العربية الى لغته العامية الدارجة فى أحياء مصر الشعبية · وخاصة فى أواخر الثلاثينات التى تدور فيها اغلب اعماله الأدبية ·

وقد جاء على لسان ادوار خراط : « ما من شك عندى فى انه كان من الرواد المغامرين الأوائل للعبثية بمعناها الفلسفى مترجمة فى مشاهد أو مواقف روائية خالصة ، ولم أقرأ حتى الآن ما يقـارب حسه المأساوى الكوميدى فى وقت واحد بمشهد حضيض مدينة القـاهرة · وتظل فاجعة الاملاق ومعاناة المعدمين وشطحات المدمنين والبغايا اللائى لا يضفى عليهن ادنى مسحة من هالة التمجيد والتقديس الذى كان معتادا فى الاربعينات اذ كانت البغى تصور غالبا باعتبـارها ضـحية بريئـة ومثيرة للعطف والرثاء · وكأن العلاقة بها نوع من انتهـاك المحارم وتدنيس المقدسات · عند قصيرى هى ضحية بالفعل لكن من غير أدنى طرطشة عاطفية ولا ادنى تهويل قدسى معكوس ، بل هى كائن خشن وانسانى جدا بفظاظته وصغاره وحنانه أيضا · تظل الفاجعـة فى هذا السياق عنده مضحكة قليلا ولذلك فهى مؤثرة اكثر · وتظل عبثية قليلا ولكنها تنطوى على بشارة بمسـتقبل مشرف وعلى الأخص فى أعماله التى كتبها بعيدا عن الوطن ، كما شجبت معه قوة تصويره للمشاهد القاهرية وللشخصيات المصرية المتميزة التى بدت فى نهاية أعماله اقرب الى التجريدات المتعلقة والتأملات والذكريات الباهتة قليلا · لا شك ان فى ذلك ضريبة الغربة المزدوجة · الغربة فى اللغة والغربة فى أرض الوطن (١) ·

(١) روايات ترسم شخصيات نادرة · منتصر القفاش · جريدة الحياة ، لندن ، ٦ ديسمبر ١٩٩٠ ، ص ١٢ ·

ويقول الخراط فى نفس حديثه الى منتصر القفاش ان ألبير قصيرى « ينحو الى نوع من الغرائبية وعلى الاخص فى تسمية ابطاله الذين يعطيهم احيانا اسماء يصعب تصديقها . أو لم نسمع عنها قط فكانها منحوتة من مزيج العامية المصرية والفرنسية ، ولا شك انه أحيانا يطلق العنان لتقريرات مباشرة عن انسحاق الناس ووطاة الفقر والجوع والعوز الروحى والمادى معا عليها ، مما قد ينحو بالعمل الروائى الى شئ من المباشرة . ولكن اذا كان لنا ان نستخلص موقفا فكريا مضمرا عن هذا الكاتب فلعله اقرب الى مزاج من اليسارية التى تقارب الفوضوية أو العدمية أحيانا » .

ولعل من الاسماء التى كتبها قصيرى فى رواياته بشكل غريب اسم « يكن » بطريقة لا يمكن معرفة مرادفها العربى بسهولة فهى تكتب هكذا Yeghen فى رواية « شحاذون ومعتزون » وكذلك اسم العجوز كاوه Kawa فى رواية « منزل الموت الاكيد » . واغلب الظن أن المقصود به هو اسم « عكاوى » فهو شائع فى تلك الفترة من ناحية . وبين الأوساط التى يتكلم عنها الكاتب فى أعماله .

الجدير بالذكر أن هناك محاولات قد سبقت لتقديم أدب قصيرى الى قارئه العربى . ففى عام ١٩٦٨ كتب يوسف فرنسيس سيناريو فيلمه « الناس اللى جوه » عن رواية « منزل الموت الاكيد » وأخرجه جلال الشرقاوى وقام بالبطولة فيه يحيى شاهين وعبد الوارث عسر وناهد شريف وعادل امام . وقد اختلف السيناريو تماما عن النص الأدبى ، ليس فقط فى أحداثه ، بل فى سمات وسلوك الأشخاص . والعلاقات القائمة فيما بينهم ، فهو فيلم حسى تماما . حيث اهتم بتصوير علاقات حسية وخيانات زوجية وشبق ساخن من الرجال تجاه زوجات الجيران . ومثل هذه العلاقة لم تكن موجودة فى الرواية . كما افتقرت الرواية الى حسها الساخر عندما تحولت الى فيلم .

وفى عام ١٩٩١ تحولت رواية « شحاذون ومعتزون » الى فيلم اخرجته أسماء البكرى من بطولة صلاح السعدنى وعبد العزيز مخيون ومحمود الجندى . وقد حاولت المخرجة التى كتبت النص ، أن تلتزم الى أقصى حد ، بالرواية . ولم يمكنها الاستثناء الا فى تفصيلات عابرة .. ورغم جودة الفيلم ، الا أنه أيضا افتقد حسه الساخر لدى أبطاله خاصة المواقف التى تعرض لها يكن فى الفندق ، ومن مطاردة رجال الشرطة . ومن التعذيب فى قسم البوليس . والجدير بالذكر أن نفس الرواية تم انتاجها لحساب السينما الفرنسية عام ١٩٧١ . وصورت فى تونس فى فيلم قام ببطولته المطرب اليونانى الأصل ، الذى عاش فى مصر فترة من الزمن ، جورج

موسناكى ولم يلق الفيلم أى نجاح يذكر • وقد خصصت مجلة «أدب ونقد» عددا عن الكاتب فى نوفمبر ١٩٩٣ ، ثم أفردت له مجلة « القاهرة » دراسات فى يناير ١٩٩٥ •

أندريه شديد :

فى عدد ٧ يوليو من مجلة « مدام لوفيجارو » عام ١٩٨٨ أجرت المجلة تحقيقا مصورا تحت عنوان I love Paris وكان عنوانه مفتاحا لفهمه ، فهو عن مدينة باريس فى منظور ثمانية من الأدباء الأجانب الذين يعيشون فيها • ومن بين هؤلاء الكتاب بيتر تاونسند والكاتبة آن هيبير • واندريه شديد التى تقيم فى فرنسا منذ عام ١٩٤٦ • أى أن اكثر من أربعين عاما لم تشفع للسيدة شديد أن تصبح كاتبة فرنسية • فما زال المجتمع الفرنسى ينظر اليها على أنها كاتبة أجنبية • ولعل هذا يعطى المؤشر لفهم نوع الازدواجية التى تعانيها الكاتبة • فكما هو معروف فان أندريه شديد خصصت صفحات طويلة من أدبهـا الذى ابدعته وهى فى باريس للكتابة عن مناطق جذورها وبلادها التى جاءت منها سواء مصر أو لبنان •

واذا كان ألبير قصيرى هو أبرز الأدباء العرب الذين كتبوا الرواية باللغة الفرنسية ، فان أندريه شديد تذكر دائما كأنها على قدم المساواة مع قصيرى وهى كاتبة متنوعة الانتاج والابداع فهى شاعرة نشرت ثلاثة عشر ديوانا من الشعر• وروائية لها سبع روايات• ومجموعتان قصصيتان وثلاث مسرحيات • وبحثان عن لبنان • وثلاثة سيناريوهات للأطفال • وقد حصلت عن هذا الابداع الغزير على خمس جوائز أدبية • منها جائزة جونكور فى القصة القصيرة لعام ١٩٧٩ ، هذه الكاتبة تنتمى فى جذورها ونشأتها الى بلدين عربيين : لبنان بحكم أصل الأسرة (صعب) ، ومصر بحكم المولد والنشأة والثقافة •

ولدت اندريه صعب فى مدينة القاهرة فى عام ١٩٢٩ • ودرست فى المدارس الفرنسية بالمدينة قبل أن تسافر الى لبنان وتعود اليها مرة ثانية • لتستكمل دراستها فى جامعتها الأمريكية • ثم ما لبثت أن تزوجت من العالم لوى شديد الذى كان عليه ان يرحل الى باريس عام ١٩٤٦ فسافرت معه واختارت ان تبقى هناك وهو يعمل الآن باحثا فى فلوريدا بالولايات المتحدة •

تقول أندريه شديد : « فى عام ١٩٤٢ • كنت شابة صغيرة تركض وراء فراشات القاهرة • فى هذه الفترة لم تكن تراودنى فكرة الكتابة • غير أننى أردت أن أصنع شيئا ما فى حياتى • التى كانت مكونة من المسرح

والرقص والتمثيل بالصدفة وحدها ، بدات برسم ــ ولا أقول كتابة ــ بعض الأبيات من الشعر بالعربية والانجليزية • عبرت عن العنف والموت وهدف الحياة • اتخذت اسما مستعارا هو اندريه لايك • منعا الشبهة •

« بقيت على هذه الحـــال حتى عام ١٩٤٦ ، ذات يوم مشمس من ايام باريس • دخلت الى مكتبة تبيع مطبوعات شرقية • نقلت أسمـــاء المجلات لكي أقيم معها الاتصال • رحب بي ناشر • كان هو أيضا الناشر الأول لجورج شحادة » •

« عام ١٩٤٨ انعطفت نحو القصص • نشرت حكايات عن مصر في مجـلات مختلفة • ثم ظهرت روايتي الأولى « نوم الخلاص » وهي تدور حول مصير المرأة الشرقية ومصاعب حياتها في شبكة العلاقات السائدة • البطلة تدعى سامية وهي مسحوقة الشخصية • تفرض عليها عائلتها زوجا قاسيا يمنعها من التعبير عن آرائها • بعد سلسلة من المشكلات الحـادة تموت ابنتها • وفي ذروة اليأس تقتل زوجها » (١) •

وقـــد نشرت هـــذه الرواية في سـلسلة روايات الهـــلال تحت عنوان « النوم الخاطف » وافضل ترجمة لهذا العنوان le sommeil delivré هو « نوم الخلاص » • وسامية في هذه الرواية عبارة عن سلعة يتم التقايض عليها من أجل زواجها • فهي تتزوج من رجل على قدر من يسر الحال بعد أن أصاب العوز اباها الذي كان ميسورا يوما ما •• وبينما هي في المدرسة • تفاجأ بأخيهـا يأتي اليهـا ويأخـذها كي تتـم الصفقة باسمها • فهي نفسها الصفقة • وتترك مدينة اسيوط كي تعيش في قرية صغيرة • في منزل يتحكم فيه زوجها الذي يكبرها بسنوات • ثم أخته العانس التي تتحكم في كل شيء ، وتفاجأ سـامية أنها عبـارة عن قطعة من اثاث المنزل يتم استخدامها عند الحاجة فقط • فتسكب حبهـا في طفلة صغيرة من بنات القرية تأتي اليها من وقت لآخر • وتكتمـــل سـعادة سامية عنـدما ترزق بطفـلة تحـولها من شيء في البيت الى كيان • الى أم تنبض الأمومة المتدفقة في عروقها • لكن الصغيرة ، بعـد أن كبرت قليلا ، تصاب بنوبة من البرد •• ونتيجة لاهمال الأب وسلبيته ولقلة خبرة سامية بالحياة ، فان الابنة تموت • ولا تجد أمامها سوى أن تقتل زوجها أمام عيني أخته المســتبدة •

---

(١) يكفي أنها مصر • يوسف القعيد • مجلة المصور ــ القاهرة ــ ٢٤ يونية ١٩٨٨ ، ص ٤٦ •

وفى وصف الجو والعالم تحس أن اندريه شديد قد عاشت ردحا من الزمن فى صعيد مصر · فهى تعرف عاداته · وسلوك ابنائه · فسامية نموذج للمرأة المصرية التى يعاملها الرجل غالبا على أنها شيء مكمل فى البيت ·

وقد عبرت الكاتبة عن هذا العالم فى بقية رواياتها بمنظور آخر مكمل · وخاصة فىروايتها « اليوم السادس » ie sixeme jour المنشورة عام ١٩٦٠ · ونحن هنا فى هذه الرواية أمام امرأة أخرى ·· أنضج خبرة · واكبر سنا وتعيش بين المدينة والريف · المدينة هى القاهرة · والزمن فى الرواية عام ١٩٤٧ · حيث انتشر مرض الكوليرا · والمرأة اسمها صديقة · انها جدة لطفل صغير تركته لها ابنتها وماتت · وصديقة تذهب فى أول الرواية الى قرية بروات للعزاء فى وفاة أحد اقاربها حيث جالت الكوليرا هناك وصالت وحصدت الكثير من المرضى · كان على صديقة ان تترك حفيدها حسن ليوم واحد كى تلتقى بأهلها الذين لم ترهم منذ سبع سنوات · وفى القرية يردد صالح ـ أحد الأقارب ـ قائلا لها : « بوسعك أن تعودى من حيث أتيت · لقد جئت بعد فوات الأوان · لم يعد هنا سوى الأموات لاستقبالك ، فالكوليرا تحوط العجوز فى كل مكان» · تلك المرأة التى لم تعرف فى حياتها سوى الاحزان · فقد ماتت ابنتها الوحيدة قبل فترة قصيرة وتركت حسنا للتربيه ·

وتجيء اهمية هذه الرحلة الى القرية من خلال ما جاء على لسان صالح أيضا فى الصفحات الأولى من الرواية «ان الكوليرا لا تهم أهل المدن فى شيء ، انها تهمنا نحن فقط » ·

وصالح هذا فى حد ذاته رمز كبير للعجوز ، فهو يحدثها عن أحوال القرية ومرضاها · والأسرة التى مات منها أحد عشر شخصا وذلك من خلال حوار طويل دار بين الاثنين · وفى هذه الزيارة أيضا تعرف أن زوجها سعيد يجد من يتولى امره فى غياب العجوز : تبدو المرأة وقد تحجرت مشاعرها لكثرة ما سمعت من أخبار عن موتى الكوليرا · ولا يخفف هذا التحجر سوى مرض سليم المدرس بعد عودتها الى المدينة · ثم مرض حفيدها · لقد تركت الجدة حفيدها عند الأستاذ سليم من أجل أن تذهب الى العزاء · وسليم عند أندريه شديد رمز الأمل الذى لا يموت ·

وسليم المعلم يرتدى ملابسه على النمط الأوروبى · كان كل شيء فى هذا الشاب يوحى لها بالثقة · كانت تجد وجهه جميلا وسيما · ونظرته مشرقة · اما ابتسامته فكانت تصفها بأنها قطر الندى · ولكن عندما يبدى الأستاذ سليم رأيه فى الجهل والفقر والعلم · فان وجهه يتغير

فجأة وتتوهج أذناه ويتـــدفق الدم فى شرايين صـــدغه وتتصارع أفكار كثيرة فى رأسه ويتملكه عنف شديد وعندئذ تتضارب كلمـاته · ويختلط بعضها بالبعض فتصبح مبهمة · وعندئذ تسـتولى عليـه موجـات من الشهامة والثورة لا يكاد يعى كنهها ولا يستطيع أن يدرك مغـزاها أو أن يتحكم فيهـا ·

وسليم المعلم ، شخصية ذات أبعاد عميقة كمـا تقـدمه الكاتبـة · لذا ، فان اصابته بالمرض ترمز الى تحطيم أمل · ليس فقط فى قلب الجدة، بل فى قلب الصغير حسن الذى انتقلت اليه الكوليرا : « بعد ستة أيـام سأكون قد شفيت · لا تنس ما أقوله لك ، فى اليـوم السادس ، اما أن نموت أو نبعث من جديد · اليوم السادس » · وهكذا سيصبح لهـذا اليوم معنى كبير · فهو اليوم الذى اذا لم يمت فيه مريض الكوليرا فمعنى هذا انه قد اجتاز مرحلة الخطر ·

وتمر ستة أيام · وينتظر الطفل · ولكن المدرس لا يعود · فينتظـر مرة أخرى بلا أمل · وبعد رحيل المدرس راح حسن يتسكع تائها فى كل مكان · لا يحضر فى وقت تناول الوجبة · فلا تتمكن جـدته من رؤيتـه لأيام بأكملها · فكم تسلل كالقطط بين الحـارات ممـا يعنى أنه فقـد حبله السرى ، مما يؤهله للاصابة بنفس المرض · وقد كان ذلك سببا لرحلة هروب تقوم بها صديقة من أجل الحفيد المريض · امرأة طاردتها الآلام دوما · وها هى تردد : « ان الذى يرقد هنا ليس سـوى صـورة · صورة لطفل الغد · ان اليوم لا يعد شيئا مادام الغد يقترب بعد أربعة أيـام من الآن » (١) ·

وتقل صـديقته مركب · وفى اليوم السـادس يصـبح كل من فوق المركب الذى تعاطف معها ، جسدا واحدا وكتلة بشرية تسعى لتوصيل حسن الى البحر مهما كانت المصاعب · منهم مروض القرود الذى ركب معهـا والذى يدعى عوكل · وصاحب السفينة والنوتى · وأبو نواس الذى يردد فى كل أعماقه وهو يتامل الطفل المريض : « انه حى · ان الغـد يفيض حياة » · ثم يصيح النوتى وقد انار وجهه : انه حى ·

وتكاد تكون روايتاها : « نوم الخلاص » و « اليوم السادس » الوحيدتين اللتين تدور احداثهما فى مصر الحـديثة · أما بقيـة أعمالها عن مصر فهى تدور فى التـاريخ الفرعونى · والتـاريخ القبطى · مثـل

---

(١) اليوم السادس · اندريه شديد · ترجمة حمادة ابراهيم · الدار المصرية للكتاب ١٩٦٨ ·

روايتها «اخناتون وحلم فرعون» ١٩٦٤ وهي أيضا مترجمة الى اللغة العربية . والتي موضوعها الأساسي هو الدفاع عن قدسية الحياة الزوجية ، وعن الأمل في وجه قسوة التاريخ . فبطلة الرواية تموت في النهاية بعد قصة حب كبيرة . وقبل غيابها تؤكد في لحظة أمل على أن الموت ليس نهاية الحياة . انه فقط مجرد نهاية للمصير الأرضي .

أما الرواية الثانية التي تدور في مصر من خلال التاريخ فمنشورة عام ١٩٨٢ تحت عنوان « دروب الزمن les marches du safle ونحن هنا أمام ثلاث من النساء في القرن السادس الميلادي : «سير» . و « ماري » « واتاناسيا » . من في أعمار مختلفة . جئن الى الصحراء القاسية من عوالم متباينة . ولأسباب أيضا تختلف . يلتقين ويقررن أن يذهبن الى الصحراء من أجل أن يعشن معا في مصير واحد .. ولقد جاءت هؤلاء النسوة من مدينة الاسكندرية ومن بعض القرى المصرية القريبة منها . انهن يبحثن عن الراحة الأبدية في الصحراء بعد أن عانين الكثير في المدن والقرى . والرواية تدور على لسان رجل عجوز يدعى « تيمس » . فماري امرأة جميلة وذات أصل نبيل . وقد عملت محظية لشخصية بارزة في الثغر . لقد قررت ان تترك الاسكندرية فجأة ذات مساء عندما أحست ان روحا تناديها ان تذهب .. وسرعان ما راحت الصحراء تدمر هذا الجمال الحي المتدفق ، وتستهلك ذكرياتها حتى تقطع كل علاقة لها بالماضي . أما « أتاناسيا » فقد كانت زوجة وأما سعيدة الى أن جاء يوم حكم فيه المتطرفون على ابنها الأصغر بالموت وتم القبض على الطفل الذي وجد نفسه وسط قوم بالغين يحاكمونه ويقتلونه ، مما دفع الزوج أن يتجه نحو الصحراء .. وكان على زوجته أن تذهب وراءه للبحث عنه .

أما المرأة الثالثة « سير » . فهي مراهقة ، فلاحة صغيرة مليئة بالسحر . وقد هربت من الدير الذي يسيئون فيه معاملتها . وقررت أن تتوه في الصحراء باحثة عن الله من أجل حب صوفي يتم في صمت شديد .

وفي الصحراء تلتقي النسوة الثلاث بتميس الذي يروي الأحداث . وهو رجل على مسافة خطوات من الموت . لقد جاء الى الصحراء بحثا عن « أتاناسيا » التي جاءت بدورها بحثا عن زوجها . انها بالنسبة له حبه القديم الذي لم يتمكن ابدا أن يناله . ويقول جورج ايمانويل فلانسيه : انه بالنسبة لنص تميس فان أندريه شديد تقدم لنا فاكهة حكمتها . حكمة وصفاء يرجعان الى خبرة طويلة مرتبطة بأحزان التاريخ . في داخلها

شعر . مثلما تكلمت المرأة بلغة فواحة . ويبدو ذلك مـاثلا فى وجـوه النساء المصريات الثلاث اللاتى عشن فى الأزمنة القديمة ، فمهمتهن الروحية تكشف لنا رؤية الروائية . رؤية تتناسب مع عصرنا .. ولكل العصور . عندما تتكلم عن « اتاناسيا » تكتب : « انها تكـــره جنـــون الرجـــال الأقــزام من أجل السلام الذى يوحى بالمـذابح » . ونفهـم أن هـــذا الحقد هو حقد دفين . ثم ها هى تعبر لتميس عن هذه الفكرة : « العالم الذى فيه النساء اكثر ظلما لا ينقذنا أبدا من المجـاعات .. نحن نفـكر فى عالم لا يحكمه نداء الشعر وتعبر عنـه اندريه شـــديد من خـــلال شخصياتها : « سير » و « مارى » و « اتاناسيا » ، انه فى النهاية عالم من الجمـــال والطيبة والعدالة » (١) .

وعن تاريخ مصر القديمة قدمت أندريه شديد مسرحيات عديدة مثل مسرحيتها « برنيس المصرية « Berenice d'égypte „والتى تعتبر افضل ما كتبت فى مجال الشعر . وتدور الأحداث فى مدينة الاسكندرية ، بين عامى ٥٨ و ٥٥ قبل الميلاد . ابان حكم « اوليت » أحد ولاة بطليمس الـــذى ولاه المدينة ثم ذهب يستكمل فتوحاته . واوليت رجل طيب يحب الشعر والفن . ولذا يطلقون عليه اسم « عازف الناى » ، ويتكلم الراوية سترابون عن الحاكم قائلا : « انه نموذج للشرف والفضيلة . وهــو رجل خيالى ، فنتازى . يميل للرقص والصراخ . والعزف على الناى . يرمز للحزن والشجون العميقة » .

ذات يوم يقرر هذا الوالى أن يترك مكانه لابنته الشابة برنيس وهى نموذج مكرر لأبيها وهى ، كما تقــول الكاتبـــة ، الأخت الكبـــرى للملكة كليوباترا السابعة . وكى تستقر على العرش . فان برنيس تتزوج من كلاوس ، ويكون الاثنان ثنائيا بسيطا لا يتعلق كثيرا بالسلطة . ويتصرف ببساطة مع الشعب ، فرسالتهما هى تدمير كل آثار الطغيان الذى كـــان يمارسه بطليموس . لكن هذا ليس أمرا سهلا . وكى ينجحا فعليهمـــا الاســــتعانة بالشعب .

ولكن ، بعد ثلاث سنوات من الفتوحات والحروب التى لا تنتهى يعود بطليموس الى الاسكندرية ، آملا أن تكون الأمور قد ســارت على هواه . لكنه يفاجأ ببرنيس وزوجها فى مواجهة عودته بكل ما يملكان . فيقرر بطليموس الاستعانة بالقائد مارك انطونيوس الذى يدخل المدينـــة بجيوشه ويأمر باعدام الزوجين . وهنـــا تقرر الأخت كليوباترا أن تدخل

---

(١) l'actualité litteraire. G. E. Clancier No. 31 Avril 1982, p. 3.

حلبة الصراع من أجل العرش . وأن تدافع عن الحق بعد موت أختها . وها هو عازف ناى صغير يطوف بضواحى المدينة . يغنى حكاية الملكة برنيس المصرية التى ماتت على أيدى جيوش الطغاة .

وفى الفترة الأخيرة ، ومن أجل لبنـان ، كتبت أندريه شديد روايتين تدور أحداثهما فى لبنان الأولى فى عام ١٩٨٥ تحت عنوان « منزل بلا جذور » la maison sans racines ، والثانية فى عام ١٩٨٠ تحت عنوان « الطفل المتنامى » l'enfant multiple تدور أحداث الرواية الأولى فى لبنان عام ١٩٧٥ أى فى بداية الحرب الأهلية . المنزل الذى بلا جذور هو بيت أصبح يسكنه رجال مسلحون مثلما سكنوا لبنـان . وفى هذا البيت تلتقى لأول مرة الجدة بحفيدتها . اثناء اجازة صيف . أحداهما تسكن باريس والثانية فى الولايات المتحدة ويدور اللقـاء فى لحظـات قصيرة عابرة . وهناك اثنتان من النساء كانتا صديقتين فى طفولتهمـا أصبحتا الآن تنتميان الى قوتين متضاربتين ولكن عليهمـا أن تتبادلا الأماكن من أجل أن يسود السلام ، وكى يذوب الحقـد ويخـلع عنه شـعره الكثيف .

وبطلة الرواية تدعى سيسيل . انها فى الثـانية عشرة من عمرها . تعيش فى الولايات المتحدة . أما الجدة فتدعى كاليا . وهناك لقـاءات قصيرة عابرة بين الاثنتين . فاذا كان اللقاء الأول قد تم فى أغسـطس ١٩٧٥ ، فان لقاء آخر تم قبل ذلك ، حيث كان هنـاك لقاء بين الجدة كاليا عندما كانت فى نفس السن عام ١٩٣٢ وبين جدتها .. وهناك حالات انتقال غير ثابتة بين الحاضر والماضى . وفى اللقاء العابر نرى هنـاك جثتين لامرأتين . انهما نفس الصديقتين القديمتين اللتين جاءتا من أجل المصـالحة والسـلام . لقـد أطلق النـار عليهمـا شخص مجهول .

تقول أندريه شديد : « جاءتنى فكرة هذه الرواية عام ١٩٧٨ . فكرة هذا اللقاء بين شخصين جاءا من بعيد ويطاردهما التأريخ .. لقد رأيت الصـغيرة تقـع فى الفخ .. ولم أكن أعـرف كيف أنقذها فتركتها تهـوى » (١) .

لقد ماتت الصغيرة فى هذا اللقاء العابر مع جدتها . هبت عليها الرياح الدموية فغرق الوشاح الأصفر فى الدماء .

أما روايتها « الطفل المتنـامى » فهى تدور أيضا فى زمن الحرب اللبنانية، والبطل هنا طفل برىء يدعى عمر ــ جو . وهو ممزق مثلما بلاده

---

(١) A. Chedid, Josyan Savigneau. Le monde 20-1-1985, p. 22.

ممزقة • كما أن أسرته منقسمة • فهو من أب مسلم وأم مسيحية • وكأنه لبنان كلها • لقد مات الأبوان فى أثناء انفجار سيارة مفخخة أسفل عمارتهما فى بيروت • وكان على عمر أن يعيش المأساة • هو فى الثانية عشرة من العمر • ولكن ذاكرته خصبة ومزدحمة مثل الكبار • ورغم هذا فلديه شهية قوية لأن يبقى على قيد الحياة • ولا يموت غدرا مثلما حدث لأبويه • يقرر الرحيل الى باريس عند أبناء عمومته • وهناك يلتقى بصديق فرنسى من نفس سنه يدعى ماكسيم • له شعر مجعد • ويحب مداعبة القطط • يلاحظ عمر ــ جو أن الأطفال الذين يعيشون فى مدن مسالمة ليست بها حرب أهلية يحبون مشاهدة التلفاز ومتابعة قصص وأفلام الحرب • يتذكر عمر ــ جو بلاده التى امتلأت بأشجار الزيتون الأسود • والنعناع • الآن أصبح وطنه أشبه بالمليل الدائم •

فى باريس أيضا يتذكر جده يوسف الذى يبلغ الثمانين من العمر • والذى عاش طويلا فى الجبال فيكتب له رسالة طويلة يعبر له فيها عن مدى سعادته بالحياة فى باريس • فهو لا يسمع ، ليلا أو نهارا ، أصوات المدافع ولكنه يسمع صوت ماكسيم يلعب • ويقول ان الأشجار هنا لا تجتث من جذورها بسهولة • وهو لا يرى أى حوائط فى المدينة وقد اخترقها الرصاص ، ولكنه يرى رجلا وامرأة يتبادلان القبلات دون أن يتساءلا عن ديانة كل منهما •• وتجىء رسالة من الجد يخبره فيها أنه سوف يأتى يوما لزيارته فى هذه البلاد • ولكن هذه البلاد لن تصبح قط وطنه • ويذكره أن المزرعة التى يعيش فيها لا يزال موجودا بها الديوك والأرانب والماعز •

وفى الليل يحلم يوسف أن روحه تصعد الى السماء وأنه يطير فوق البحر المتوسط • ثم يصل الى باريس •

أما عن الروايات القليلة التى كتبتها أندريه شديد ولم تذكر فيها شيئا عن الشرق • فهناك رواية بعنوان « الآخر » توحى أحداثها بأنها تدور فى لبنان حول صداقة تنمو بين شاب ورجل عجوز رأى منزلا ينهار عليه •

هذا هو بعض من عالم أندريه شديد الروائى •• فماذا عن علاقتها بالشعر ؟ لقد نشرت مجموعة من الدواوين من أبرزها « كلمات عن قصيدة » و « كلمات عن الأرض الجديدة » ثم « الوجه الأول » ويتسم شعرها بأنه بالغ الخصوبة • مجرد غالبا من الأزمنة والأماكن ، عكس ما حدث فى رواياتها • وهى أشعار يصعب ترجمتها الى أية لغة • فهى تعزف على معانى الكلمات من خلال مقاطعها وكلماتها القصيرة • وتؤمن أن « صمام الشعر » أو مفتاحه هو الغموض • ويجب على الشاعر أن

يغوص داخل دهاليز مليئة بالأسرار والألغــاز والطلاسم : « أحاول قدر الامكان أن أبين الأشياء واضحة • ولكن هناك أشياء مختلفة فى الشعر • ويجب أن تكون لنا فيــه مسالك جــديدة » •

وعن الشعر ايضا تقول أندريه شديد : « ان العالم الهائج الغامض السرى الذى نحمله فى داخلنا يفتش عن نوافذ يطل منها نحــو الخـارج • الشعر هو احدى هذه النوافذ • انه خارج الأعمــار والأجناس والألوان والجغرافيا • انه مرادف للحرية أو بديل لها • لا تحده حدود القسوة أو الدم انه قصائد أحيانا • وتسقط منها نقــاط الــدم • ثم أســئلة عن الموت والحياة والحب والمرأة والظمأ الى ســعادة لا تكتمل أبدا » •

« الشعر جواب عن كل كائن • انه ايضــا ينطــوى على ضروريات لا نعرفها ، يجب صقل العجينة الشعرية • تطويع الكلمات للوصول الى التعبير الأكثر دقة وايحاء • والقبض على أسرار الحياة • وكل هــذا يتطلب انتباها وعملا وبحثا لا نهاية له » (١) •

ولقد اخترنا احدى القصائد السهلة نوعا • قياسا الى اشعارها الأخرى تحت عنوان « انتقام » من ديوانها « نزوات وأعياد » :

كى تهرب من السعير
فان السيدة القسياء
تبيــع قنــواتها
كى تبنى بيتــا
فوق نهر البورجيز
وكوخا فوق مرتفعات البحــر
لكن الريح مــرة
لكن الريح مجنـــونة
من يفضل القسياءات
الوقاويق التى فقدت مناقيرها
قلبت الكوخ على عقبيه
والسيدة القســياء
تلقت داخل البئر

فى عام ١٩٨٨ نشرت اندريه شديد مجموعة قصصية تحمل عنوان «عوالم مرايا ساحرة» monde miroirs magiques وبمناسبة صدور هذه المجموعة أجــرت مجلة arabies حوارا مع الكاتبة تحت عنوان « اننى

---

(١) يكفى انها مصر • يوسف القعيد • مجلة المصور • القاهرة ١٩٨٨/٦/٢٤ •

أحمل شرقي في داخلي » قالت فيه ان العوالم هنا هي التجارب الانسانية التي عاشتها · أما المرايا فهي التي تنعكس عليها ذكرياتها الحقيقية · وأحيانا الملابس التي نلبسها والتحولات التي تمر بها · وتعني الساحرة الحياة اليومية التي يحيا فيها الانسان داخل خيالات ، وترى شديد أنها قد لجأت الى نشر هذه الأقاصيص لأن الأقصوصة هي فن أقرب الى الشعر الذي نكتبه كثيرا · « وقبل أن اذهب الى القصة القصيرة ثم الى الرواية · دون أن أهجر الشعر · أحس أنه يمكن الوصول الى تشخيص الكتابة في القصة القصيرة · وأنا أحب أن أشخص كتاباتي · مثلما في الشعر فنحن نتركه قبل أن نضع كل كلمة في مكانها » (١) ·

وتقول الكاتبة في الحديث انها قد استلهمت أعمالها من منابعها الشرقية : « أنا سعيدة انني أعيش في أماكن متعددة · أنا أعيش كالثراء في حرية ولكنني قلت لك انني ليست لدى النية أن أقتلع جذوري بشكل ماساوي · فهذا ليس أمرا سهلا بالنسبة لي من أي شيء آخر · أحس أنني أنتمي الى الشرق والغرب · وقد كتبت كثيرا عن مصر ولبنان · ومصر هي وطني الحقيقي بالنسبة لي · فان الكثير من العناصر تتلاحم · وتتزاوج · وتتناطح · وهذا يسبب لي دوما السعادة أن أسمع ان «اليوم السادس» و « نوم الخلاص » مثلا كتابان عن الواقعية في مصر · يجب أن تحتفظ دائما بشيء ما في أعماقك وأنت تعبر بلغات مختلفة » (٢) ·

وعن المزج بين الثقافتين الشرقية والغربية · تحدثت أندريه شديد الى مجلة « المصور » قائلة : « لا أعاني من تمزق في المنفى أو من صعوبات التكيف ،أشعر أنني أعثر على نفسي وذاتي في التعددية الثقافية · ان مناخي المفضل هو التناغم بين الشرق والغرب · هنا أميز بين نقاط التكامل والاختلاف · ان علاقات شرقية تسيطر على كتاباتي · من النادر العثور على علاقات غربية · جذوري في مصر ولبنان · شعوري شرقي، نبضي هو نبض المرأة الشرقية · الاحساس أقوى بكثير من الأساس الجغرافي · افتش عن تواصل ممكن بين الناس وأهتم بالبحث عن أرض تلاق ، وعن ينبوع مشترك وخبز تتقاسمه كل الشفاه · بسبب ذلك ، أنا في حاجة الى التعبير والكتابة والقول · وذلك بأشكال الكتابة المختلفة · يجذبني ما هو أساسي وطبيعي عند كل واحد منا : الموت ·· الحب ·· الحياة ·· » (٣) ·

---

(١) Arabies, Novembre 1988.

(٢) المرجع السابق ·

(٣) مجلة المصور ، ١٤ يونية ١٩٨٨ ·

والجدير بالذكر أن شديد كانت قد قالت نفس الكلام فى عدد مجلة « مدام لوفيجارو » السابق الاشارة اليه : « باريس هى أرض مثل القاهرة من الرائع للكاتب أن يكون مواطنا فيها وأن يخرج أحيانا من جذوره وأماكنه · لم أبدأ فى كتابة صفحات وجدانية عن مصر الا بعد ثلاث أو أربع سنوات فى فرنسا » ·

وقد حصلت اندريه شديد على مجموعة كبيرة من الجوائز الأدبية نذكر منها : جائزة لوى لابيه عام ١٩٦٦ ، وجائزة النشر الذهبى للشعر عام ١٩٧٢ ، والجائزة الكبرى للأدب الفرنسى التى تمنحها الأكاديمية الملكية ببلجيكا عام ١٩٧٥ · ثم جائزة أفريقيا البحر المتوسط عام ١٩٧٥ · وجائزة جونكور فى القصة القصيرة عام ١٩٧٩ · ثم جائزة فى الترجمة الأدبية عام ١٩٩٢ ·

أحمـــد راســـم :

يشكل أحمد راسم ظاهرة تستحق التأمل فيما يتعلق بالأدب العربى المكتوب باللغة الفرنسية ، وهى أنه كان متمكنا من اللغة العربية قدر لغتـه الفرنسية ومع ذلك فقد فضل كتابة قصائده باللغة الفرنسية ، وكان ينشر أعماله فى أضيق حيز ممكن ، حيث لم يكن ينشر أو يطبع أكثر من ٥٠٠ نسـخة فقط من دواوينه ، ولذا فان مؤلفاته المكتوبة بالفرنسية لم يقـرأها الا نخبة قليلة من أصدقائه الملمين بالفرنسية · ولم يترجم شعره قط الى اللغة العربية فى كتاب ، فبدا كأنه رقص بالفعل على السلم ، فلا هو نشر أدبه على مستوى عال فى فرنسا مثلما فعل أقرانه من الأدباء النـاطقين بالفرنسية ، ولم يسع الى ترجمة هذا الأدب الى اللغة العربية ·

والجدير بالذكر أن راسم يعد من أوائل الأدباء العرب الذين نالوا جوائز فى فرنسا · فقد منحته الأكاديمية الفرنسية جائزة خاصة تقديرا لشعره فى عام ١٩٥٤ ·

نشأ أحمـد راسم فى مدينـة الاسكندرية · حيث كان الثغـر مليئـا بأبناء الجاليات الأجنبية الذين يتحدثون لغـات عديدة · وقد كان ميلاده فى عام ١٨٩٥ فى أسرة مصرية تصاهرت مع عائلة تركية · وقد نبغ بعض أفراد هذه الأسرة فى الفنون والآداب · واشتهر البعض الآخر بالوظائف الادارية العليا مثلما سيحدث مع راسم نفسه حيث تبوأ ، كما سنرى ، العـديد من المناصب فى السلك الادارى ·

التحق أحمد راسم بمدارس الاسكندرية الفرنسية · وقد كتب الشاعر السكندرى نيقـولا يوسف مقـالا عنه فى عدد شـهر يونية ١٩٦٩ من

« المجلة » قال فيه انه : « أجاد اللغتين العربية والفرنسية ودرس أدبيهما ، ثم تلقى العربية على يد أستاذ خاص · والتحق بمدرسة رأس التين الثانوية · ثم درس القانون بمدرسة الحقوق ·

« وكان منذ عهد التلمذة شغوفا بمطالعة الكتب ـ الأدبية والفلسفة والعلمية ـ في اللغات العربية والفرنسية والانجليزية · ويبدو أثر هذه المطالعات فى كتاب طبعه فى الاسكندرية عام ١٩١٦ وهو فى نحو العشرين من العمر ·· وسماه « الدين والانسان » الجزء الأول (وضع بالفرنسية ثم ترجم وروجع) وجعله فى قالب حوار قصصى أو مناظرة تتخللها صور وأوصاف فكهة بين فيلسوف مادى ملحد وطالب روحانى مؤمن ·· ثم بين الشك واليقين · ووردت فى الحوار أسماء وآراء لبرجسون ، ومونتانى ، والكسيس كاريل · والعلماء سوس وبسكال وجوستاف لوبون · كما ترد تجارب كيماوية ، ونظريات فلكية ، وآراء علمية كانت ثابتة فتغيرت · يستشهد بها الماديون ·

« فهذا الكتاب على صغر حجمه مع براعة حواره يدل على اهتمام مؤلفه أحمد راسم منذ صباه بالمسائل الفلسفية والنظريات العلمية · ثم بترجيح الايمان والروحانية على الالحاد والمادية ، فى حين كان أمثاله من أبناء الأعيان يعمهون فى وديان أخرى » (١) ·

ويقول بشير السباعى ان أحمد راسم قبل أن يتم العشرين من عمره كان قد قرأ وحفظ ، عن ظهر قلب ، الكثير من أعمال الشعراء الكلاسيكيين العرب والفارسيين والهنود واليونانيين واللاتينيين ، الى جانب الكثير من أعمال الشعراء المحدثين الشرقيين والغربيين على حد سواء ·

« فى عام ١٩١٥ ، أحب أحمد راسم فتاة صغيرة اسمها نيسان ، لكن الموت سرعان ما فرق بينهما ، فسافر الى أوربا (٢) ·

وقد عشق أحمد راسم الفن التشكيلى وهو فى هذه السن · فصادق الفنان المعروف محمود سعيد · ثم بدأ يبدع باللغة الفرنسية · وحسب نيقولا يوسف «كان سبب اتجاه راسم للابداع باللغة الفرنسية أنه كان يتقنها ويطلع على آدبها ، وتعرفه الى الأوساط الفنية والأدبية بالاسكندرية · فكان أن اتخذها أداة للتعبير فى معظم انتاجه الأدبى الغزير · ونظم بها جل أشعاره المتسمة بالطابع الشرقى · فى أسلوب بارع

---

(١) أحمد راسم · نيقولا يوسف ، المجلة ، يونيه ١٩٦٩ ، ص ٤٢ ·

(٢) أحمد راسم · بشير السباعى · مجلة القاهرة ، أكتوبر ١٩٩٠ · ص ٣٥ ·

لا يقل روعة عن أسلوب شـاعر فرنسى كبير اصيل • وبدأ ينشر شـعره فى الصحف والمجلات الفرنسية بمصر ، ومنها مجلة « مصر الحديثة » ، و « الصحف الأسبوعية المصرية » كما فى غيرها (١) •

أحمد راسم ، اذن ، كان يكتب بالفرنسية وهو فى مصر • وبدا كأنه يعيش فى بلاده بجسده فقط • فلم تشر أى من المراجـع التى بين أيدينـا أنه كان على صلة بالمثقفين المصريين الذين يكتبـون باللغة العربية - بل صادق النقاد الفرنسيين • وتعرف على أبناء الجاليات الأخرى من المثقفين الذين ترجموا أعماله الى لغـاتهم مثلمـا فعلت الشـاعرة اليـونانية السكندرية اليزابيث بسارس • كما شارك فى تحرير مجلة « الأسبوع المصرى » التى كانت تصدر فى القـاهرة فى العشرينات وهى من تمويل كاتب يونانى يدعى ستافروس ستافرينوس • لدرجة أن « المجـلة » قد خصصت عن شعر أحمد راسم عددا خاصا فى عام ١٩٢٦ • وقامت نفس المجلة باصـدار ديوان لراسـم يحمل عنوان « وجدتى تقول أيضا » فى عام ١٩٣٠ ويعتبر هذا هو الديوان الثانى للشاعر حيث كان قد أصدر فى عام ١٩٢٧ ديوانه الأول تحت عنوان « كتاب نيسـان » le livre de Nyssane الذى استوحى أشعاره من حبيبة مرحلة الصبا « نيسان » •

فى تلك الآونة كان أحمد راسم يتدرج فى الوظائف ، وقد سـاعده فى سرعة الترقى اتقـانه للغات الأجنبية بالاضافة الى ثقافته ووسامته • فعمل فى السلك الدبلوماسى فى العديد من عواصم العالم فى كل من ايطاليا واسبانيا وتشيكوسلوفاكيا ، وساعده ذلك على الاتصال المباشر بثقافات أخرى • وكثيرا ما ارتبط بصداقات مع أبنـاء هـذه البـلاد خاصة الأدباء والمثقفين •

وعندما عاد الى مصر عام ١٩٢٨ عمل فى مناصب ادارية عليـا فكان سكرتيرا عاما لرئاسة مجلس الوزراء • ثم وكيلا لمحافظة القاهرة • ومحافظا لمدينة السويس فى عام ١٩٤١ • كما عمل بعد ذلك مديرا لادارة المطبوعات ، وكان آخر هذه الوظائف مدير عام مصلحة السياحة المصرية عام ١٩٥٢ • ثم ما لبث أن ترك الوظيفة كى يتفرغ لأدبه حتى وفاته فى ينـاير عـام ١٩٥٨ •

ويقول نيقـولا يوسف ان أحمد راسم قد « عرف خلال تلك الوظائف المختلفة ، فى بلاده وخارجها ، بوطنيته والاعتزاز بعروبته • فكان يضع

---

(١) أحمد راسم • نيقولا يوسف ،مرجع سابق ، ص ٤٣ •

دائما مصلحة وطنه ومواطنيه فوق كل اعتبار · وكان فى الوقت نفسه موضع تقدير المواطنين والأجانب معا » (١) ·

تنوع نشاط راسم الكتابى بين الابداع الشعرى باللغة الفرنسية ، وهو نشاطه الغالب ، وبين الترجمة والنقد · وفى اشعاره النثرية التى نشرها فى دواوين مثل « قصائد العذارى » عام ١٩٢٥ · و « جدى يقول أيضا » ١٩٣٠ · و « زمبول » ثم « يقول أيضا » ١٩٣٢ و « أحمد يقول » · وتبدو مدى حميمية الشاعر مع الأشخاص الذين عاش معهم · خاصة أبناء اسرته · فقد كتب من أجل جدته الشركسية الأصل والتى كانت تدعى زنجبيل ــ أى لون الورد باللغة التركية ــ بعض الكلمات فى ديوانه الأول « كتاب نيسان » وهو شعر منثور ، بينما أطلق اسم مربيته « زمبول » وهى كلمة تعنى الهزيلة كسراج على وشك الانطفاء ·· فقد أهداها عنوان ديوانه الثانى · وقد تنوعت أعمال راسم فنشر من الدواوين « سقت حمارى » عام ١٩٣٥ · و « مهبول عتاقة » ١٩٤١ ، و « الحقيقة العتيقة » ١٩٤١ ، ثم « بائع الكتب الصغير الأستاذ على » عام ١٩٤٣ · و « نثر لا جدوى منه » ١٩٤٩ · و « ملك » ثم « حاتم الطائى » عام ١٩٥١ · و « نوال » ١٩٥٢ · و « نهى » ١٩٥٣ · و « يوميات مصور خائب » ١٩٥٤ أما مؤلفاته بالعربية فهناك « الدين والانسان » ١٩٢١ · ثم شعره المنثور « الحديقة المهجورة » ١٩٣٢ ·

ويقول لوسيان البير فى حديثه عن ابداع راسم الشعرى : « وكما أن عناصر الضوء السبعة والتى يضمها اشعاع أبيض من النهار تتحلل على وجه الماسة الى ألوان قوس قزح · وتنطلق فى حزمة من الألوان لا يفصل أحدها عن الآخر غير لون شاحب خفيف ·· فانه هكذا تفتحت الروح السكندرى لأحمد راسم فان الشعاع الأبيض للبهجة أو ما شابه من العناصر الخالدة لشعر الحب ينثر على الفور روحا متألقة لضوء مميز ·· وكان على هذا الروح السكندرى أيضا المنبعث من سلالة ظل نساؤها طويلا لا يتذوقن الحياة الا فيما يدور بأحلامهن · فى أعماق القصور المزدوجة الاغلاق ــ بالشعريات العربية الطراز « المشربيات » · وبالسياج الكثيف المرصع بالياسمين المتراخى · وان هى الا نافذة تزيد القنوط ثقلا على قلب معتكف · ثم ما يلبث حفيد « زنجبيل » ان يبلغ وقتا بدأ فيه الصبايا حوله يستمتعن بالحريات البريئة » (٢) ·

---

(١) أحمد راسم · نيقولا يوسف ، المجلة ١٩٦٩ ، ص ٤٣ ·

(٢) المرجع السابق ·

ويهمنا أن نشير أن راسم كان من أنصار الشعر الحر والشعر المنثور · لذا فان الكثير من ابداعه أقرب الى الشعر المنثور · و « قد تخرج القصيدة في عمود ـ كل سطر فيه كلمتان أو ثلاثة أو عشرة ـ متصلة في المعنى ولها في النهاية وقفات · وقد يكون هناك وزن أو لا يكون ·· ويكتب على غلاف كل مجموعة بعد اسمها كلمة « اشعار » ويعدها النقاد الفرنسيون شعرا · ولم يتجاوز راسم الحقيقة فهو شعر له مبنى ومعنى · وهو عاطفة منطلقة على الورق لا تحدها قيود وقواف وأوزان ، وفى شعره خيال يبدع ويبتكر ولا يشتط ويجمح ـ ورمز لا يغوص فى الابهام · وفيه سخرية أقرب الى الدعابة · وغزل رقيق لا يتماجن · وصوفية من وحى الروح · ومادية من وحى الجسد · وصور شعبية للناس · والشارع ودكان البدال والبحر والصحراء · والساقية والنخيل ·· وصور من الشرق والغرب وثقافة عالية · ولكن القلب البشرى هو المحور الذى تدور حوله كل هذه المساحات الأرضية · ان الكثير من قصائده ليذكر بالصور التشكيلية التى أبدعها ابن خاله الفنان محمود سعيد ، ذات الحيوية النابضة والبعيدة عن شطحات التجربة ومستغلقات الرمزية ·

و « اذا كانت اللغة الفرنسية هى الثوب الأنيق الذى ارتدى به شعره · فقد كان هذا الشعر بمثابة الانسان الشرقى · والروح المصرى الطابع الذى تخرج من فيه بين آونة وأخرى لفظة عربية تنم عليه » (١) ·

كنا قد أشرنا أن أحمد راسم قد حصل على جائزة الشرف المدونة باسم فارس · وجائزة خاصة من الأكاديمية الفرنسية عام ١٩٥٤ · وقد كتبت مجلة « الاثنين » تحية الى راسم بهذه المناسبة يهمنا هنا أن ننقلها قالت فيها :

« والجائزة التى منحها المجتمع الأدبى الفرنسى لأحمد راسم هى تحية موجهة لمصر كلها · لا لأحمد راسم وحده ·

« والذى يؤسف له الا يكون أحمد راسم قد فكر فى نقل بعض مؤلفاته أو تكليف أحد أصدقائه بنقلها الى العربية · ففى هذا اتمام للفائدة · وتفخيم لتقدير الشاعر الملهم ، والكاتب اللبق فى الأوساط المصرية نفسها · حيث القارىء المصرى يجهل الكثير عن مواطنه أحمد راسم ، الذى يصوغ منذ نحو أربعين سنة لآلى عواطفه حيث يمتزج الحب بالألم حينا · وبالفرح أحيانا » (٢) ·

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٥ ·

(٢) أحمد راسم · مجلة الاثنين ـ ٩ أغسطس ١٩٥٤ ·

واذا كان أحمد راسم لم يقم بترجمة أعماله ولم يطلب من أصدقائه أن يفعلوا ذلك · فانه بعد أربعة وثلاثين عاما من هذا التاريخ قام بشير السباعى بترجمة مجموعة من أشعار راسم نشرتها مجلة « القاهرة » · وكما قال المترجم فانه اعتمد فى ترجمة أغلب القصائد التى نشرتها المجلة على نسخة من مختارات راسم الشعرية مهداة من الشاعر الى شكرى زيدان الصحفى المعروف فى دار الهلال ·

وقد اخترنا قصيدتين ترجمهما السباعى · الأولى تحت عنوان « دعاء » :

الهى يامن تعلم
ثقل الكلمات
ادعوك أن تجعل كل قصائدى اغنيات حب
مطرزة بالصمت كافئدة اليتامى
لأنه لم يبق فى
غير ايقاعات خفية
لأنه لم يبق فى
غير سر الكلمات
المتلاطمة حتى الضنى
أدعوك أن يتسنى لى مثلما تسنى للشاعر
تاونسين
ان اتمتم باغنيات على عود بلا وتر
لا يفهمها سوى حبيبتى
مثلما تفهم نظرتى
حين تستقر خجلى
على عرى
يديها الأنثويتين ·

ومن قصيدة « كيف يمكنك » يقول :

حين تفتشين عن اسرار قلبى
تشبهين الأطفال الذين يهشمون لعبهم بحثا عن الروح الخفية
التى تحرك قطاراتهم
ان كان حلمى على ايقاع اصابعك يشدو

وأن كان فكرى على زورق ضفائرك يهيم
فكيف يمكنك الشك فى عاطفتى ؟
حين يتركز على بهاء عينيك
اشــعر ان كل شــعاع حــزمة حية
وهيهات ان أكون فى أى وقت آخر أكثر قربا من الله ٠

جــورج حنين :

قليلة هى المراجع العربية التى تحدثت بشكل متسع عن جورج حنين ٠ ومن أهم هذه المراجع كتاب لسمير غريب يحمل عنوان « السريالية فى مصر » ٠ فيه تابع المؤلف حركة السيرياليين فى مصر من خلال مجموعة من أبرز أبناء هــذه المدرسة مثـل رمسيس يونان وأنـور كامل وكامل التلمســانى وابراهيم فارس ٠ ورغم تعدد هذه الأسماء الواردة فى الكتاب الا انه من الواضح تماما أن سمير غريب قد كتب كتابا عن جورج حنين فى مصر ٠ فقد خصص صفحات كثيرة من هذه الدراسة عن حياة وعطاء حنين خاصة فى فترة حياته فى مصر ٠ ونحن نعترف أن المراجع التى بين أيدينا عن الشاعر المصرى أقل كثيرا مما توفرت لدى سمير غريب الذى اعترف ان مجموعة من أصدقاء الشاعر وأفراد أسرته قد أمدوه بالمراجع خاصة صديقه عبد القادر الجنابى ٠ وزوجة الشــاعر اقبـال العلايلى ٠

ولذا ، فان اغلب ما سيرد فى الحديث عن حنين سيكون مرجعه ما جاء فى هذا الكتاب ٠ فحنين مولود فى العشرين من نوفمبر عام ١٩١٤ من اب مصرى وأم ايطالية ٠ وجورج لم يذهب قط الى المدرسة ولكن مربيـا تولى تعليمه القراءة والكتابة حتى سن الثانية عشرة ٠ وفى عــام ١٩٢٤ عين والده سفيرا لمصر فى مدريد فصحبه جــورج ومربيه ٠ وهنـاك تعلم اللغــة العربية وحاول ان يترجم اليهــا كتاب كارل ماركس «راس المال» ٠

اذن ، فجــورج حنين كان يجيد اللغة العــربية لدرجة انه كان يترجم اليها ٠ وذلك بعكس اقرانه مثل البير قصيرى وأندريه شديد ٠

وقد انتقل جورج مع أبيه بين روما ثم مع امه الى فرنسا والتحق بجامعة السوربون فى باريس ، وحصل منها على ثلاث شهادات « ليسانس » فى الحقوق والأدب والتاريخ حتى عام ١٩٣٩ ٠ خـلال تلك الفتــرة كان يتردد على القــاهرة ويشارك فى بعض الأنشطة الثقافية (١) ٠

---

(١) السريالية فى مصر ، سمير غريب ، الهيئة العــامة للكتاب ، القــاهرة ١٩٨٦ ، ص ١٢ ٠

وفى عام ١٩٢٤ كتب كوميديا انسانية بعنوان « تكملة ونهاية » ثم انضم الى جماعة فنية تسمى جماعة « المحاولين » قبل التحاقه بالسوربون » وكان سكرتيرها جابرييل بقطر • « كما صدرت مجلة شهرية باللغة الفرنسية اسمها « انيفور » Un effort وتصف نفسها بأنها المجلة الوحيدة النزيهة فى مصر ومركز الفكر الحر • وقد تحدث جورج فى احدى ندوات هذه الجماعة عام ١٩٢٧ عن الشاعر المستقبلى الايطالى « مارينيتى » وأدان بقوة تواطؤ الشعراء والامبريالية الايطالية فى الأعمال الأدبية الفاشية (١) •

وقد نشر جورج مقالاته فى هذه المجلة • ثم نشر بيانه « ومن اللاواقعية » عام ١٩٣٥ اتضح فيه كم كان قريبا من السريالية • ثم نشر قصصا باللغة الفرنسية فى مجلة « انيفور » وهى قصص تسخر من البرجوازية التى أسماها بالحمقاء • كما نشر قصائد بالفرنسية • وراح يراسل مجلة أدبية فرنسية تحمل اسم « ليزيمبل » les humbles ونشر فيها مقالات مطالبا بسيادة البروليتاريا • ويقول سمير غريب ان «ابن الباشا ، كان بعيدا عن الاسترخاء فى حياة أولاد الذوات وأظهر تعاطفا شديدا مع الفقراء والمضطهدين ، وشعر بأنه يجب الاعداد لنهضة جديدة ، تفرض الأفكار القادرة على تغيير المجتمع ، وأراد أن يكون من بين من يأخذون المبادرة » (٢) •

وقد أبدى حنين حماسه الشديد فى أن يقدم لأبناء وطنه من المثقفين نماذج من الأدباء الفرنسيين المعاصرين • ولذا ، قدم الى قراء العربية كلا من فرديناند سيلين وأندريه مالرو وهنرى دى مونترلان وآخرين • كانت لديه الرغبة لأن يظهر لفنانى بلده كيف أن الفنون التشكيلية قادرة على المشاركة ، مثل الكتابة ، فى معرفة الانسان •

فى تلك السنوات كان جورج حنين ينتقل بين القاهرة وباريس ، وفى عام ١٩٣٦ تعرف على الكاتب والفنان السريالى أندريه بريتون • وفى عام ١٩٣٧ قدم محاضرة عن السريالية • ثم بدأ يشكل جماعة من السرياليين المصريين أمثال الشاعر ادمون اليابس ، والرسامين كامل التلمسانى ورمسيس يونان • وقرر أن يسمى جماعته « الفن والحرية » تعبيرا عن انتمائه لتروتسكى •

وفى نوفمبر ١٩٣٨ أصدر جورج أول دواوينه باللغة الفرنسية تحت عنوان « لا معقولية الوجود » De:aison de l'être مزينا برسوم كامل

---

(١) المرجع السابق ص ١٣ •

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦ •

التلمسانى • وفى يناير تكونت جماعة « الفن والحرية « l'art et la liberté
التى أصدرت مجلة « التطور » عام ١٩٤٠ والتى كان من أهدافها :

(أ) الدفاع عن حرية الفن والثقافة •

(ب) نشر المؤلفات الحديثة ، والقاء محاضرات عن كبار المفكرين فى العصر الحديث •

(جـ) ايقاف الشباب المصرى على الحركات الأدبية والفنية والاجتماعية فى العالم •

وفى ديسمبر ١٩٣٩ شارك فى تأسيس جريدة باللغة الفرنسية تحمل اسم « دون كيشوت » فكان يكتب ويرسم فيها • ولكن مجلة « التطور » التى صدرت عن الجماعة فى عام ١٩٤٠ باللغة العربية كانت تجمع بين السياسية والأدب والفنون • ولكن المجلة لم يكن لهـا مورد مالى سوى تبرعات الأعضاء ، وبالأخص جورج حنين وحصيلة بيعها القليلة • وقد نشرت قصصا وقصائد لأدباء من نفس الجماعة وادباء آخرين من غير الجماعة مثل البير قصيرى • وعانت المجلة من مشكلة الاستمرار فلم تصدر سوى سبعة أعداد فقط •

وبعد توقف « التطور » تعاون السرياليون مع سلامة موسى صاحب مجلة « المجلة الجديدة » وفى عام ١٩٤٢ انتقل امتياز المجلة الى رمسيس يونان ثم ظهرت مشاكل تعوق دون استمرارها ، ويقول سمير غريب : « أدت المجلة الجديدة دورا عظيما فى مرحلتها • كانت مجلة سياسية ثقافية أعلنت عن نفسها بانها مجلة « للكفاح والتجديد الاجتماعى » (١) •

كان جورج حنين يمضى اجازاته فى باريس • وخلال اقامته هناك عام ١٩٤٦ التقى لأول مرة بالشاعر أيف بونفوا الذى كتب عنه مقالا فى مجلة « كنزان ليتريز » فى العدد ٢٠ عام ١٩٧٧ متسائلا : « من كان جورج حنين ؟ : من الخارج كانت حياته ، على الأقل من الناحية الأدبية ، تبدو للوهلة الأولى وكأنها ترجع الى مجموعة من الظروف • فهو مصرى قبطى ، ولكنه فرنسى الثقافة بلغ سن النضج عند عتبة الحرب • وظل لمدة اثنى عشر عاما الرجل الذى يفكر لجيله فى مصر • وقد أتى لهم بالسريالية • الى مجتمع توحدت فيه الروحية بالمجتمع فى رباط محكم مثلما حدث بين ماركس ونيتشه • ومثل جوليا لاسيرسا بكافكا • وجاءت

---

(١) المصدر السابق ، ص ٦٧ •

دار النشــر التى أسسها والتى أطلق عليهــا اســم « حصـــة الرمل » la part du sable وقــد بدا صــوته مســموعا وهــو ينشر أعمـــال هنرى ميشو وجان جرنييه وادمون اليابس وشعراء شـــباب فى مجلته الجميلة «حصة الرمل» فى فرنسا ، وفى باريس التى كان يعود اليها بقــدر الامكان كل ربيع كان يشارك مجموعة أندريه بريتون ، دون أن يمس استقلاليته البالغة الحساسية · ولعب دورا كبيرا فى اعادة نشر « مقاطعة مدشنة » أكثر مانفستو أهمية فى تاريخ السريالية بعد الحرب · حدث ذلك فى ليلة افتتاح معرض عام ١٩٤٧ · كما شارك أيضا فى « الفرقة الثالثة » المجلة التى أسسها جان ماكيبه » (١) ·

ومن الواضح أنه عند الكتابة عن حنين ، فان كلا من الكاتب العربى والفرنسى قد نظر اليه من منظوره القومى · فسمير غريب قد اهتم بنشـاط جورج حنين فى مصر · أما بونفــوا فقد كتب عن نشاطه فى الثقــافة الفرنسية · ومن الواضح أنه بعد عام ١٩٤٧ زاد نشاط حنين فى الثقافة الفرنسية ويقول بونفــوا ان حنين قد اضطر الى أن يترك مصر كى يتوجه الى اليونان · أما سمير غريب فيقول انه فى عام ١٩٥٣ غادر حنين فيلا والديه فى روض الفرج ليقيم فى الزمالك مع زوجته وأصبح المحــاور الممتاز لكثير من الأدباء الذين يمرون بمصر من كتــاب وصحفيين واساتذة وبخاصة المتخصصين فى الاسلام مثل جاك بيرك ولوى ماسينيون ، ويقول الكسندريان ان جورج حنين كان لديه ميل للاعتقاد أن وجــود الشرق يعتمد على أهميته بالنسبة للغرب · وفى نفس الوقت ، كان يحــذر قليلا من تقدير المثقفين الفرنسيين المبالغ فيه للثقافة العربية · كما يقول جورج حنين نفسه : « ان أوربا بائسة مرتين ، حاربت الشرق عندما كان يمثل حــالة ســـطوع · وتبحث عنه اليوم لأسباب عميقة فى حين أنه يمثــل حــالة الانحطاط الأكثر قذارة » (٢) ·

وقد نشر حنين فى تلك الفترة مجموعة من القصص القصيرة فى مجموعة من القصــائد النثرية تحت عنوان « العتبة الممنــوعة » le seuil interdit التى صدرت عام ١٩٥٦ · كما كتب مقــالات فى صــحيفة « اوبروجريه اجيبسيان » ·

وقد وجد حنين أن عليه أن يغادر مصر بعد ان جاء ضابط من الجيش ليجلس على مكتبه فى شركة السجائر التى كان يعمل فيها · فسافر الى

---

(١) G. Henin Yves Bonnefoy. le quinzain litteraire, 1977.

(٢) مصدر سابق ، ص ٣٦ ·

اليونان عام ١٩٦٠ ٠ ثم توجه الى ايطاليا وطن أمه ٠ ثم قرر أن يعيش فى باريس حيث وجد فرصة عمـل ومسكنا للاقامة ٠

ويقول سمير غريب ان حنين قد انتقل بين بلاد عديدة بعد ذلك ، ومن المعروف انه عمل مع زوجته فى هيئة تحرير مجلة « جون أفريك » الأسبوعية وهى مجلة تصدر باللغة الفرنسية وتهتم بثقافة العالم الثالث ٠ وقد عمل فيها عدة سنوات ونقل ادارتها من المغرب الى باريس ٠ وفى السنوات الأخيرة من حياة الشاعر شهد حنين نشاطا مكثفا على المستوى الثقافى فكتب مقدمة كتاب يحمل اسم « مختارات الأدب العربى المعاصر » وشارك فى « الموسوعة السياسية الصغيرة » التى أشرف على اصدارها الشـاعر جان لاكوتير ٠ وفى ١٨ يوليو عام ١٩٧٣ رحـل عن عالمنا ٠ وتم دفنـه بالقاهرة بناء على وصيته ٠

وفى كتابه عن « السرياليـة فى مصر » اهتـم سـمير غريب كثيرا بالجانب التشكيلى لجورج حنين ٠ وبآرائه السياسية وكتاباته النثرية فى الفنون والسياسة ولم يهتم به كمبدع وشاعر الا من خلال نشره لخمس قصائد سبقت ترجمتها الى اللغة العربية ٠ بينما اهتم الشعراء الذين كتبوا عنه كمبدع خاصة ايف بونفوا فى مجلة كانزان السابق الاشـارة اليها ٠ وقد اخترنا هنا بعض أشعاره ، والحقيقة أن دواوين حنين كانت قليلة رغم عطائه الشعرى ٠ ففى عام ١٩٤٨ نشر ديوانه « حصة الرمل » ٠ ولـه ديوان آخر تحت عنوان « العلامة الأكثر ظلاما » ، وبشكل عام فان جورج حنين كان يرى أن الشعر هو « الاداة وكمرادف لتحد أكبر : تحد للقوى الكونية ، لملكة الموت ، وللأسرار التى تحاصر حياتنا الدنيوية ٠٠ الشاعر يتعلم الضحك فى المقابر ، يستخدم الجنون كسلاح ضـد فقر العقـل ، يستخدم الحلم كسلاح ضد املاق الواقع ٠ من سوفوكليس حتى لوتريامون مرورا بشكسبير ، تنتشر السلسلة الشعرية على ايقاع عاطفى دائما أكثر تشجيعا ، فى مناخ حاد حيث تتجابه وتمتزج كل التعبيرات الممكنة عن الرغبة ، حيث تبدع الرغبة من أجل الضرورة الوحيدة للانطباق عليها ٠ لأشياء جديدة جذابة ، تخترع الرغبة من أجل الحاجة الوحيدة للاحتراق فى لهيبها ٠ لبؤرة تمغنط جديدة » (١) ٠

ومن هذا الشعر نقدم جـزءا من قصيدة « مبدأ هوية » المنشور فى ديوانه « العلامة الأكثر ظلاما » ٠

---

(١) G. Henine, Condition de la poseie, Don quichotte 8-3-1949, p. 2.

راح يجمع اسمه
كميـــاه اسـنة
تسقط فيها الحجارة
صانعة نقطة حولها دوائر
اتجه نحو الســماوات
خاشعا وصابرا
يتأمل لدل السماوات
غير مضح بصورته الخاصة
التى تشبهه باليأس

اثناء دخوله المدينة
انغلقت الأبواب مثل
بين الرجل والمرأة
لا توجد أكثر من فتحة
من نصل توليدى

وجحود النـدم
سيحل فى العـالم
بيد سـاكنة

ويهمنا هنا ان نقدم نموذجا آخـر من شـــعره ، حيث نقتطف من قصيدته « انتحار مؤقت » كما جاءت ترجمتها فى كتاب « السريالية فى مصر » (١) :

شـفاه نادرة مختصرة
تتفتح لتدع جاسوسا يمر
وهو متخف فى فرقة عازفة

---

(١) السريالية فى مصر · سمير غريب · هيئة الكتـاب · القـاهرة ـ ١٩٨٦ ، ص ٢٠٢ ·

لا أعرف أبدا أى لحن
ينشبث بطـــرق من اللهيب
والآن تقف النافذة
بغير عمد ولا ضوء
شـــقيقة الشـــفاه المـرة
فمنها تدخل الاعصاب الهائجة
متلبســـة أيادى بشرية
تقطع رؤوس النساء
بعد الحب
على مائدة ما
شيء يبتسم خلال نعاسات العـالم
انه وجـه
لا يلمح أبدا
ولا ينسى أبـدا
وجه يؤرجحه
ثلج الذكرى الذى لا ينتهى

قائمة بأسم الأدباء المصريين الذين كتبوا

باللغـة الفرنسـية

ـ يعقوب ، يوسف (١٧٩٥ ـ ١٨٣٢) :

ولد فى مصر القديمة · يرجح أنه أرمنى · أغلب أبناء أسرة يعقوب الذين عادوا مع الحملة الفرنسية الى فرنسا ، علمه ابوه اللغة العـربية · سافر الى باريس عام ١٨٢٠ ونشر ديوانه الأول فى « مدح مصر » الذى جذب اليه الانتباه عام ١٨٢٠ ، كما اشترك فى اعداد وضع « وصف مصر » · ارتبط بصداقة مع الشيخ الطهطاوى ثم عين مدرسا للغة العربيـة فى (مدرسة الشباب للغات) اهتم بالشعر · سافر وأسرته الى مارسيليا وهناك مات ·

من أعماله : محاضرات تاريخية عن مصر (١٨٢٣) ·· قصص رومانسية عربية فجـة (١٨٢٧) ·· مزيج الآداب الشرقيـة والفرنسـية (١٨٢٧) ·

ارتين ، يعقوب (١٨٤٢ ـ ١٩١٩) :

من اصـل أرمنى · كان ابوه وزيرا للخارجيـة فى حكومـة محمد على · درس فى تركيا وفرنسا · واهتم بالقانون والأدب واللغة · عندما عاد الى مصر عام ١٨٧٠ عينه الخديو اسماعيل سكرتيرا أوربيـا للقصر · وبعد ذلك عين وزيرا مرتين · واهتم بالأدب المصرى · من أهم أعماله : « الممتلكات العقارية فى مصر » (١٨٨٣) و « حكايات شعبية » (١٩٨٥) · و « ١٦ حدوته » (١٩٠٣) و « حكايات شعبية سودانية » (١٩٠٩) ·

اكساوس ، سيلين (١٩٠٣) :

ولدت فى الاسكندرية من ابوين لبنانيين عاشا طويلا فى مصر · درست فى المدارس الفرنسية · كان أخوها رينيه ناسو شاعرا موهوبا · اختلطت بالأوسـاط الأدبية · وساهمت فى الحـركة الأدبيـة النـاطقة بالفرنسية فى مصر ولبنـان من أعمالها « الكنيستان » ١٩٤٣ و « السلم العاجى » ١٩٥٢ · وتاريخ وفاتهـا غير معروف ·

أركاش ، جان (١٩٠٢ ـ ١٩٦١) :

ولدت فى الاسكندرية لأب من أصل سورى لبنانى وأم فرنسية · درست فى « ليسيه فرانسيه » ثم درست الأدب والموسيقا · تزوجت عام ١٩٤٥ وانتقلت لتعيش فى القاهرة · وماتت عام ١٩٦١ ودفنت فى الاسكندرية · لم تنشر أعمالا أدبية · لكن أغلب ما تركته مسودات : الاسكندرية فى مرآتى (١٩٣١) ، الفرقة العالية (١٩٣٣) ، أمير الصليب (١٩٣٧) شفا أبو سليمان (١٩٥٣) نشر فى دار المعارف ·

اسعد ، فوزية (١٩٢٩)

ولدت فى القاهرة لأبوين صعيديين · درست فى مدرسة « مير دى ديو » ورحلت الى فرنسا · وحصلت على دكتوراه فى الفلسفة وعادت لتدرس الأدب فى جامعة عين شمس · تزوجت من د· فخرى أسعد الذى سافر الى جنيف · من أعمالها « المصرية » رواية (١٩٧٥) وكتاب باللغة العربية عن سورن كيركجارد (١٩٦٥)» ورواية «أطفال وقطط» ١٩٨٧ و « البيت الكبير فى الأقصر» ١٩٩٢ ·

بارم ، راءول (١٩٠٤) :

من أصل ملطى · ولد فى بورسعيد · ودرس فى القاهرة فى المدرسة الألمانية · ثم فى مدارس الجزويت بالاسكندرية · نشر أشعاره الأولى وهو فى سن الرابعة عشرة بالقاهرة فى الصحف · ثم نشر أول ديوان له عام ١٩٢٦ · اشترك فى تأسيس ست مجلات أدبية باللغة الفرنسية · عمل فى الترجمة · ومدرسا · وعمل فى احدى دور النشر · ترك مصر عام ١٩٥٦ الى ايطاليا · من دواوينه : «الملاحق الأولى» ديوان شعر ١٩٢٦ ، « مفتون بشفتيك » ١٩٢٨ ، « ارفع الستار » ١٩٢٩ ، «جناح قديم » ١٩٣٠ ، « الصلاة الراقصة » ١٩٦٩ ، «مجداف من ذهب» ١٩٧١ ·

باوم ، روبير (١٩٠١) :

ولد فى تونس · ثم تركت الأسرة تونس الى القاهرة عام ١٩٠٤ · عمل مفتشا فى المدارس الاسرائيلية ثم رحل الى فرنسا ليؤدى الخدمة العسكرية عام ١٩٢٢ · وعاد الى مصر ليعمل بالصحافة فى الاسكندرية ثم فى القاهرة · روائى وكاتب قصة قصيرة وشاعر · وكاتب مسرحى · من أعماله « أشياء صغيرة » (١٩٢٥) و « الظلال على الحائط » ١٩٢٨ ، « خمسة مشاعل » ١٩٣٠ ، « قصص أطفال للكبار » ١٩٤٢ ، « قوس قزح » ديوان شعر عام ١٩٥١ ، « علامة عربية » رواية ١٩٥٥ ·

بونجان ، فرانسوا (١٨٨٤ ــ ١٩٦٣) :

ولد فى ليون · ودرس فى المدينة · وهنــاك كتب روايته الأولى « قصة اثنتى عشرة ساعة » كتب لها المقدمة رومان رولان · وصل عام ١٩١٩ الى مصر وأقام بها ٥ ســنوات وشغف بها كثيرا · وصادق مثقفا مصريا هو أحمد نصيف الذى فتح له مجــال الاسلام والأزهر · عــاد الى فرنسا وطلب العودة الى مصر · وعاش سنوات بين المغــرب وسوريا والجــزائر ومات فى الرباط · من أعماله : «منصور ، قصة طفل مصرى» ١٩٢٤ ، منصور فى الأزهر » ١٩٢٧ ، « الشيخ عبده المصرى » ١٩٢٩ ، « الثقة فى فتاة ليل » ١٩٣٩ ·

جـون سيانيفو ، آجوستينو (١٨٧٦ ــ ١٩٥٦) :

ولد فى القاهرة من أصل ايطالى · كان أبوه يعمل لمصلحة الخديو اسماعيل · عاش فى الاسكندرية واهتم بالشعر · وكان ينتقل بين مصر وأوربا · وكانت أشعاره عن مصر · وفى أواخر حيــاته استقر فى ايطاليا · وهناك ذاع صيته كشاعر · اهتم به اندريه جيد · من أهم أعماله : « أشــعار » ١٩٢٥ ، « الحضور الخفى » باللغة الايطاليــة ومنشور بالاسكندرية عام ١٨٩٩ ، « اليد » ١٩٠٠ ، باللغة الايطالية ·

جوزيوفيشى ، البير (١٨٩٢ ــ ١٩٣٢) :

ولد فى اسطانبول ودرس بها · أبوه من أصل رومانى · جــاء الى مصر عام ١٩٠٤ مع أسرته · تعرف على الكاتب البير عدس واهتم بالأدب · كتب الرواية · سافر الى مصر ثم قرر الاقامة بها · ترك عند موته الكثير من الروايات غير المنشورة · من أعماله : « بالتعاون مــع ألبير عدس » و « القلقون » عام ١٩١٤ ، و «كتاب جحا» ١٩١٩ ، و «سعيد الجميل » ١٩٢٨ ·

حنين ، جورج (١٩١٤ ــ ١٩٧٣) :

(انظــر الفصــل الثــانى) ·

فراوى ، جيهــان (١٨٦١ ــ ١٩٤٠) :

اسمها الحقيقى جان بوش داليس ، جاءت مع زوجها سليم فهمى الى الاسكندرية عام ١٨٧٩ ثم عاشا فى طنطا · درست اللغــة العــربية بناء على نصيحة زوجها · وأرسلت مقــالات الى الصــحف المحــلية والأجنبية · وحققت رواياتها الاجتماعية والتاريخيــة التى تصف مصر

الحديثة والقديمة نجاحا وشهرة · عادت الى فرنسا عام ١٩١٩ بعد وفاة زوجها · وظلت تهتم بالأدب · وكان أصدقاؤها من المصريين هناك · من أعمالها : «الأمير مراد» ١٨٩٨ ، «فى قلب الحريم» ١٩١٠ ، «وردة الفيوم» ١٩١٢ · « الغريب » ١٩٢١ · و « المصرى الخالد » ١٩٢١ ، و « مصير الآنسة عيسى الغريب » ١٩٣٥ ·

دبيو ، سيريل :

اسم مستعار لشخص يدعى محمد صديق · ابن صديق المفتش وزير مالية الخديو اسماعيل · درس فى سويسرا · عاد الى مصر وصادق العديد من الأدباء الفرنسيين مثل أندريه جيد ، وجان كوكتو ، عاش فى مصر أثناء الحرب العالمية الأولى · واستقر فى الاسكندرية · من أعماله : « البكاشين » مسرحية عام ١٩٤٤ · « دون جوان أو النرجس » ١٩٤٤ ·

راسم ، أحمد (١٨٩٥ ـ ١٩٥٨) :

(راجع الفصل الثانى) ·

سكوفى ، آليك (١٨٨٦ ـ ١٩٣٢) :

شاعر يونانى يكتب بالفرنسية عاش فى الاسكندرية · وكان يعيش بين مصر وفرنسا · اشترك فى تحرير مجلة « الأسبوع المصرى » من أعماله : « الأشعار الأولى » ١٩٠٩ ، « أغنيات الشعارات » ١٩٠٩ · « الاغراءات » ١٩٢٤ · « الكمان الآلى » ١٩٢٢ · و « سفينة بالهلب » رواية ١٩٣٢ ·

شديد ، أندريه (١٩٢٨) :

(انظر الفصل الثانى) ·

شميل ، ماريوس (١٨٦٣ ـ ١٩٥٦) :

ولد فى ليفربول بانجلترا · ودرس فى بيروت · وجاء الى مصر ليعمل فى البنوك والصناعة . ابن أمين شميل الذى كان شاعرا · اهتم مثل أبيه بالشعر · وراح يكتب مقالات فى النقد الفنى فى الصحف المحلية · وفى عام ١٩٢٠ أسس « مجلة العالم المصرى » · وحصل على جائزة واصف غالى · يعتبر واحدا من طليعيى الأدب المكتوب بالفرنسية فى مصر · من أعماله : « الطوفان الكبير » مسرحية ترجمت الى العربية عام ١٩١٨ ، و « ضد النسيان » ١٩٢٠ ·

عدس البير (١٨٩٣ ــ ١٩٢١) :

ولد فى القاهرة ودرس الحقوق فى باريس • ارتبط عطاؤه بجوبيزفيش وفى نهاية الحرب العالمية قرر أن يستقر فى فرنسا • وبعد وفاته عملت زوجته على نشر أغلب أعماله • من أعماله : «ملك عار» عام ١٩٢٢ ، و « عدس عند برجسون » عام ١٩٤٩ •

العقاد ، توفيق (١٨٨٩ ــ ١٩٥٦) :

ولد فى الاسكندرية ودرس فى المدارس الثانوية الفرنسية ثم فى القدس • تنقل بين الاسكندرية وفرنسا وحصل على الدكتوراه وعمل فى البنوك والصحافة والمسرح • أقام فى لبنان فترة ثم عاد الى الاسكندرية • من أعماله « ليلة فى وادى الملوك » ١٩٢٥ و « ليلة عند سفح الهرم » ١٩٢٧ ، « وليلة تحت قوس النصر » ١٩٣٧ •

غالى ، واصف بطرس (١٩٧٨ ــ ١٩٥٨) :

ولد فى القاهرة ودرس فى المدارس الفرنسية ثم سافر الى فرنسا • عند عودته اهتم بالسياسة ، من أهم أعماله « حديقة الزهور » عام ١٩١٣ ، « اللآلىء اللامعة » ١٩٢٢ •

فوشيه زنانيرى ، نيللى (١٨٩٧) :

ولدت فى الاسكندرية من اسرة سورية تقيم فى مصر منذ القرن السابع عشر • درست فى دمشق واقامت فى مصر • اهتمت بالمسرح ودرسته لمدة عامين فى فرنسا • تزوجت من الصحفى جورج فوشيه • وبعد زواجها الثانى افتتحت مكتبة • ثم سافرت الى سويسرا • من اعمالها : دواوين « حديقة الصباح » عام ١٩٢٠ ، « الواحة العاطفية » ١٩٢٩ ، « فى الظهيرة تحت الشمس الحارقة » ١٩٣٦ ، و « الشمس الغائمة » ١٩٧٤ •

قصيرى ، البير (١٩١٣) :

(انظر الفصل الثانى) •

القلوب ، قوت (١٨٩٢ ــ ١٩٦٨) :

(انظر الفصل الثانى) •

موسكاتيللى ، جان (١٩٠٥ – ١٩٥٦) :

من أصل ايطالى . ولد فى القاهرة ودرس فى المدارس الألمانيـة ثم اهتم بالصحافة والحركة الأدبية . عمل فى « الأسبوع المصرى » ، تولى رئاسة تحرير مجلة « ايماج » كتب الشعر . ظل فى مصر حتى وفاته . من أعماله : « هذيان » ١٩٢٦ ، « انا بدونك » ١٩٢٧ ، « أشعار ملقاة فوق مقعد » ١٩٢٩ ، « أشـعار » ١٩٣٥ ، « رباعيـات للحب » ١٩٥٢ ، « زنجية فى معسكر الاعتقال » ١٩٥٣ ، و « أشعار فى مصر » ١٩٥٥ .

منصور ، جويس (١٩٢٨ – ١٩٨٦) :

(انظر ص ١٨٩) .

نية سليمة (١٨٧٨ – ١٩٠٨) :

اسمها الحقيقى أوجينى برن . تزوجت من رشدى باشا وعاشت فى القـاهرة . واختلطت بالمصريين ، من أصل تركى . راسلت أهلها الذين يعيشون فى فرنسـا . اهتمت بالحركة النسائية . وقد تتلمذت هدى شـعراوى على يديها . من أعمالها : « حريم ومسلمون » ١٩٠٨ .

اشارة : تم الرجوع فى هذه المعلومات الى كتاب جان جاك لوتى ، وأضيف اليها كل ما توصلنا اليه من خلال البحث .

الفصل الثالث

الأدب اللبنانى المكتوب باللغة الفرنسية

تختلف ملامح الاحتلال الفرنسى لكل من سوريا ولبنان عن نفس الملامح فى المغرب العربى · فلا شك أن تجربة الفرنسة فى بلاد المغرب العربى قد تأصلت لدرجة أنه كان على هذه البلاد أن تستهلك عشرات السنوات من أجل أن يتم تعريب أوجه الحياة فى شمال المغرب ·

ورغم ذلك ، فان ظهور أدباء يكتبون باللغة الفرنسية قد بدأ فى لبنان قبل المغرب بسنوات طويلة · فاذا كان الجيل الأول من الكتاب الجزائريين العرب ، الذين يكتبون بالفرنسية قد ظهر بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة ، فان مسرحية « عنتر » التى كتبها شكرى غانم عام ١٩١٠ قد سبقت مثيلتها فى المغرب العربى وأيضا فى مصر · وقد حققت هذه المسرحية نجاحا عند عرضها فى فرنسا على مسرح الأوديون فى هذه السنوات · وقد تناولت المسرحية صورة من كفاح العرب ضد الاحتلال العثمانى · وقد ساعد هذا النجاح الكثير من اللبنانيين الشباب فى تلك الآونة أن يمشوا فى نفس الطريق مثل ميشيل شيحة وهكتور كلات وشارل فورم ·

ورغم ذلك ، فان التجربة لم تتضح الا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، حيث ظهرت مجموعة من الشعراء الرومانسيين · وظهر روائيون من أمثال فرج الله حايك الذى بدأ ينشر رواياته الرومانسية منذ عام ١٩٤٠ خاصة ثلاثيته المعروفة تحت اسم (أبناء الأرض) أو (أبو نصيف) عام ١٩٤٨ · ثم « ابنة الله » عام ١٩٤٩ · و « سجن الوحدة » عام ١٩٥١ · ويقول كتاب les litteratures francophones depuis 1945 ان حايك أشبه بالفنان التشكيلى حيث راح يرسم القرى اللبنانية · وسكب مشاعره الفياضة فى أدبه ، عن الممنوعات · وعاداتها وتقاليدها · وقد ظهر عنف الحرب الأهلية اللبنانية فى رواية « يوميات آن » عام ١٩٤٧ من تأليف أوريس شحاده · كما كتبت عنها باللغة الفرنسية أيضا ايفلين

العقاد فى رواية « المستأصلة » حيث نرى كيف تتأثر النسوة بأفكار الآباء التسلطية ، كما أن الكاتبة اندريه شديد كتبت روايتين عن الحــرب الأهلية اللبنانية « منزل بلا جذور » عام ١٩٨٥ و « الطفل المتنامى » عام ١٩٨٩ ٠

ومن بين الأدباء اللبنانيين الذين كتبوا بالفرنسية هنــاك ديوان « وصف الانسان » لفؤاد جابرييل نايف ٠ ثم هناك الشاعرة نادية تويني صاحبة ديوان « أشعار للتاريخ » عام ١٩٧٢ ٠ ومروان الحص ٠ وفينوس خورى غاتا ٠ صاحبة ديوان « اراض دامية » عام ١٩٦٨ ٠ ولهــا أعمال شعرية أخرى مثل « جنوب الصمت » ١٩٧٥ و « الظلال وصرخاتهــا » ١٩٨٠ ٠ ثم رواية « ضجة من أجل قمر ميت » عام ١٩٦٣ ٠ أما الشاعر والناقد صلاح ستيتة فقد قدم : « النحلة الميتة » عام ١٩٧٢ ، و « المياه الباردة المحفوظة » عام ١٩٧٣ ٠ ثم « اشــعار » عام ١٩٧٨ ٠

ومن بين هذه النماذج الأدبية المتميزة اخترنا نموذجين من جيلين مختلفين الأول شاعر وكاتب مسرحى هو جورج شحادة والثانى روائى معاصر لا يزال فى حالة عطاء وقد أبدى تميزا منذ أعماله الأولى وهـــو أمين معــلوف ٠

جــورج شــحادة : (١٩٥٧ ـ ١٩٨٩)

يعتبر شحادة أبرز أديب لبنانى يكتب بالفرنسية ٠ وتجىء أهميته أيضا ليس فقط فى أنه كاتب مسرحى متميز ٠ ولكن لأنه انضم الى السرياليين المصريين ٠ وشــحادة مولود فى عــام ١٩٠٧ فى مدينــة الاسكندرية لأبوين لبنانيين يتكلمان اللغة الفرنسية ٠ وقد عادت الأسرة الى لبنان ٠ وهناك درس الحقوق ٠ ثم عين سكرتيرا عاما فى مدرسة الآداب العليا فى بيروت ٠ ثم كلف بالاهتمام بالشئون الفنيــة لــدى البعثة الثقافية الفرنسية فى لبنان ٠

ورغم أن شحادة قد بدأ يكتب قصائده الأولى فى الثلاثينات ٠ ورغم فرص الحياة أمامه فى باريس ، الا أنه ظل مقيما فى بيروت طيــلة عمره حتى اندلعت الحــرب الأهلية اللبنانية فلم يجد بدا من الانتقال الى العاصمة الفرنسية هناك حتى وافاه الأجل ٠

نشر شحاده مجموعته الشعرية الأولى « شرارة » فى عام ١٩٢٨ وقد بدت فيها نبرته السريالية بكل وضوح ٠ كمــا نشر فى تلك الفترة روايته الوحيدة « رود وجون سين » ٠ وفى عــام ١٩٣٨ استلم رســالة

من الشاعر بول ايلوار الذى كان يسكن مدينة انتيب فى جنوب فرنسا الذى كتب له رأيه عن ديوانه «شرارة» . فقال : « أشعارك تحمل لى نظرة عميقة . لحنا متناغما كدت أنساه . كتابك يترك فى اثرا ايجابيا لا يمكنك تصوره » (١) .

وهكذا صدرت ثلاثية اشعاره التى تحمل عنوان « اشعار ١ » عام ١٩٣٨ . ثم « أشعار ٢ » عام ١٩٤٨ . و « اشعار ٣ » عام ١٩٤٩ . بعدها انقطع عن كتابة الشعر وتفرغ للمسرح . وكتب مسرحيات طليعية فى الزمن الذى راح فيه كتاب المسرح الطليعى يقدمون أحسن ما لديهم أمثال يوجين يونسكو واداموف وبيكيت وأرتو الذين حاولوا تحطيم اللغة للوصول الى شكل جديد . الا أنه خلافا لمسارهم راح جورج شحادة يهتم بالمسرح الشعرى فقدم اعمالا مثل « مستر بوبل » عام ١٩٥١ . و « سهرة الأمثال » عام ١٩٥٤ . و « قصة فاسكو » . و « زهرات البنفسج » عام ١٩٦٠ . وفى العالم التالى نشر مسرحية « الرحلة » ثم جاءت مسرحيته الشهيرة « مهاجر برسيبان » عام ١٩٦٥ . وفى عام ١٩٧٣ نشر ديوانه « الثوب هو الأمير » . وفى تلك الفترة انشغل باعداد كتابه عن « مختارات البيت الشعرى الواحد » وفى عام ١٩٨٥ عاد مرة أخرى الى الشعر فنشر ديوانه « سباح الحب الواحد » .

تميز جورج شحادة كشاعر باهتمامه بالعبارة والكلمة والمعنى . وقد كان يمتلك سرد الكلمة ، مثلما كتب الطاهر بن جلون ، فهو يستخرج كلماته من منبع نقى بعيد . ومن حديقة داخلية . بها المراعى ، وتتولد فيها الصورة مارة بالمياه العذبة قبل أن تصبح ظلا . لقد خلطت كتاباته الأولى بين تأمل الحياة اليومية والرؤى الخيالية والسريالية وعلى سبيل المثال ما جاء فى السطور الأولى من قصيدته تلميذ السلطان :

« فى الربيع . هنا حذاء أزرق يطير من قرية لأخرى . وتنهق الحمير فى بيت اختى وتبدو النافورات هادئة . آه يا ملح بلادى » (٢) .

كما أن اهتمامه بالكلمة يتجلى فى احاطته اياها بالتكريم والاحترام ليس من خلال ثباتها وجمودها بل من خلال اعتبارها وجودا مستقلا

---

(١) رحيل جورج شحاده . بيار ابى صعب . اليوم السابع ٣٠ يناير ١٩٨٩ ، ص ٤٠ .

(٢) نفس المصدر .

قابلا بذاته للحياة والوجود بخلاف الأشعار التى كانت سائدة فى عصره ؛ وبين أبناء جيله الذين أرادوا ارجاع الكلمة الى وجودها الحسى ، وفى مواجهة رأى شحادة الكلمة وجودا مستقلا ، وكأنه من خلالها يعوض عن كل الخسارات والخيبات ، وبهذا المعنى يمكن ربط اللغة لديه بالمنفى ..

وقد اعتبر جورج شحاده ان علاقته باللغة تنطوى على نوع من التحدى . وفى الأخص لأنها لغة غريبة عنه . لقد حاول بسبب عدم تمكنه من اللغة العربية أن يصل عبر هذا التحدى من اللغة الجديدة الى نوع من الزمان يعوض له مرة خسارته للغة العربية ومرات أخرى خسارته لفقده للأرض التى سافر بعيدا عنها أثناء الحرب الأهلية :

أمي كانت تضيء المصابيح لتبعد عنا الظلال
كانت تعد عمرنا على الأصابع عندما تدق دقاتها ساعة الحائط
أمي كانت تتكلم عن الوقت الذى يمر وهى تبتسم
والرجال الذين تبعوها كانوا ملائكة
الآن . وقد مات القمر أين أنت أيتهــا الأفكار الرائعة
الحب ذو الأسنان من الملبس
الطفولة التى كنت تبكين على خدودى
انها ولادة المساء
النضارة الأولى للاعشاش
تحلم الصبية قليلا
وهى تتلفت حولها
الآن بات الليل يكرر نفسه الى مالا نهاية
والأشجار تختبىء فى أوراقها
والصمت يصل من بعيد
عين ماء بكت كانت تروى
عندما ستغادر وطن المصابيح
ذات ليلة كطفل البرد
رب ملاك
سيأتيك بالمداد
كي تدون ما تراه :
المياه الحية التى تصبح ظلا
الشجرة التى تضل طريقها .
كطفل من ذلك الزمان تضيع صرخته

في حديقـة التفـــاح الأبيض
حين القمر يغطى كل شيء بحبه
أرى مجـددا في مرآة مهجورة
ذكريات بعكازات بيضـاء
ولا أعود أعرف من منا هي أو أنا
يرثي لحـاله أكثر
لفرط شراسة السنين
أيها القمر الخفيف يا مرآة الغياب
(صباح الحب الواحد ـ ١٩٨٥) (١) ٠

وقد لاحظ نقـاد شحاده أن له تعبيرات محددة يستعملها في قصائده منها « الوردة » و « الياسمين » و « النساء » و « المياه » و « العيون » و « النظرات » و « القمر » وأيضا « الموت » ٠ فقد كان يؤمن أن الشـعر يومض في مركز الكون : « أنا مصنوع من أجل المطلق » ، ففي قصيدة من مجموعة مقاطع نشرها في « الأشعـار » تحت عنوان « وفي الأحـلام يحكي طفـل قصـــة حياته » يقـــول :

في كنيسة القرية وعند اقتراب الليـل
يخرج المصلون من مخابئهم
ويغير طفل ملاك الجدار
ويكسب البخـور غطـاءه المظـل
والسحرة النائمين
الزنابق الى أقدامهم المعتمـــة
ويعيدا في سماء من شموع
تسافر الايقونات
قبل النوم
تتكلم اخوات أمي بصوت خفيض
جاء كل شيء من الظل
الوجوه والأصوات
حتى الساعة في القفص
التي لم تعد تغني

---

(١) هذه القصيدة من ترجمة بيار أبي صعب كما نشرت في اليوم السابع ـ ٣٠ يناير ١٩٨٩ ، ص ٤١ ٠

يومض عود ثقـاب
كي يمكن أن نرى
خالاتي المنحنيـات
في نقطة من ذهب

في كل نافذة تبدو السماء والمراعي
في هذا المنزل المنسي
هناك أيضا الطيور القائمة بالأخبار
وفي الأحلام طفل يحكي قصـة حياته
حب
حيث ليـالي الشـتاء
والمصباح الرقيق في ثوبه الزجاجي
والساعة التي تدق وترن
وينام الطفل وحده

أما عن مسرح جورج شحاده فقد انزلق الفنان « من الشـعر الى المسرح بطبيعة مدهشة ، يبقى شـاعرا قبل كل شيء · ويبقى للخضرة نفسها ، والشفافية والنضارة عينهما ، ولتـداعي الصور والحـالات ، الدور الأساسي في بناء مسرحياته · ولعل ما يميزه أساسا عن كتاب المسرح الطليعي الآخرين الذين غالبا ما يرد اسـمه الى جانبهم (وهـم مثـله كتاب فرانكفون من أصل غير فرنسي) أعني يونسكو وبيكيت خاصة وربما احيانا أدموف وأرابال · فاذا كان شحاده أبحر مثـل هؤلاء في الاتجاه المعاكس للمسرح الذهني والفلسفي وارثه الثقيل ، فقـد وصل الى جزيرة له وحـده · دون الآخرين · تمثل فيها الحساسية الشعرية ، على مستوى اللغة طبعا · انما أيضا على مستوى المناخات والأجواء · الأهمية الأولى · ذات يوم انتفض شحاده على اثر سؤال أحد الصحفيين له : أمسرح شعري هذا الذي تكتب ؟ » بل مسرح يفسح لفوضى الكلمـات والصور · بدأت كل مسرحياتي · ودون نموذج مسبق ، تاركا المبادرة للغة لقد ساعدني المسرح على الخروج من القصيدة · لكن في العمق انهـا المسـألة نفسـها » (١) ·

وحسبما جاء في جريدة لوموند (٢) فان المسرحيات السـبع التي كتبها شحادة قد أهملت عن غير عمد · كان عليه أن ينتظر اثنى عشر عاما كي تمثل مسرحية « مستر بوبل » على مشرح الهوشيت بباريس · في

---

(١) رحيل جورج شحادة · بيار أبي صعب · ٣٠ يناير ١٩٨٩ ، ص ٤١ ·
(٢) Le Monde 8-3-1985, p. 15.

عام ١٩٥١ اقترح عليه الممثل والمخـرج جان لوى باروو أن كانت لـديه الشجاعة أن يقدم مسرحه ٠٠ وقد عرضت مسرحياته من وقت لآخر ٠

وفى نفس الجريدة يقول شحادة : عندما أسمع عبارة « مسرح شـعرى » أرغب فى الهـرب ٠ لا ٠ فالمسرح يترك لكاتبه أن يرتب الكلمات والصور ٠ انظر الى ماتيو ٠ انه يرسم أمام عينى ٠ وأحيانا أخشى لـو أصبحت فنانا تشكيليا ٠ ولكن خلف اللوحة هناك نقاط من الألوان ٠ هناك نظـــام وتقـــارب ٠

« أبدأ مسرحياتى دائما دون أن يكون هناك هيكل خاص ٠ وأترك المبادرة للغة ٠ لقد ساعدنى المسرح على الخروج من الشـعر ٠ ولكن فى الأعماق فالشعر قد فعل نفس الشيء ٠ اننى أسمع نقاط الماء تتسـاقط محدثة : توك ٠ توك ٠ توك ٠ راسين يثيرنى الملل ٠ وافضـل كورنى ٠ انه يأتى بكلمات غامضة وساحرة » ٠

يهمنا الاشارة أن جورج شحادة لم يكن يفكر قط فى مغادرة لبنـان الا بعد اندلاع الحرب الأهلية ٠ ويقول فى جريدة لوموند ــ ٢٠ يناير ١٩٨٩ ــ انه فوجىء يوما بأحد رجال الميليشيا يشهر بندقيته امامه وراح يسأله لماذا يطلق عليه الناس اسم «العصفور» ٠ وقد كان شحادة معروفا بهذا الاسم نتيجة لرقة جسمه والذى كان نحيلا كالعصفور ٠ يومها ضحك شحادة بمرارة وقرر أن يغادر البلاد ٠ وقد نجح الصـحفى اللبنـانى « ميرزا عكار » فى أن يجعله يكتب عن تجربته فى الاقامة ببـاريس التى مات فيها فى السابع عشر من يناير ١٩٨٩ ، فقـال : « أحس كأننى فى بيتى وأنا فى باريس ٠ ولكن أوضاع الوطن تجعلنى أحس أننى فى منفى : كم أشـتاق الى الجبال اللبنانية ! » ٠

الجدير بالذكر أن جورج شحادة كان أول من حصل على جائزة الأدب الفـرانكفونى فى عـام ١٩٨٦ ٠ وهى جـائزة مسـتحدثة تبـلغ قيمتها ٤٠٠ الف فرنك فرنسى وتمنحها الأكاديمية الفرنسية كل عام ٠ وقد حصل عليها ايضا الروائى المصرى البير قصيرى ٠

أمين معلوف (١٩٤٩) :

أغلب الروائيين العـرب الذين يكتبـون باللغـة الفـرنسية مهمومون بواقعهم الذى عاشوا فيه ٠ وكيف تحرك هذا الواقع بين أيديـهم ولم يستطعوا الامسـاك به ٠ فحـاولوا التعبير عنه ورصـده فى أدبهم ٠ حدث هذا بشكل واضح عند ادباء المغرب العـربى ٠ وفى مصر عند البير قصيرى وأندريه شديد ٠ أما الكاتب اللبنانى أمين معلوف فقد ترك هذا

الواقع بصراعاته الدامية · وانتقل الى التاريخ العربى القديم يصور عالما ورديا حالما فى روايات من طراز « ليون الأفريقى » و « سمرقند » · بل راح الى ما هو أبعد من ذلك فى روايته الثالثة « حدائق النور » · وعليه فان لمعلوف مذاقا مختلفا · فهو من الكتاب الذين اهتموا بكتابة الرواية التى تتحدث عن التراث العربى · كما أنه استمد أحداث هذه الروايات من تراث تاريخى · فأبطال رواياته مثل حسن الوزان ، وعمر الخيام والقديس مانى عاشوا بالفعل فى التاريخ ·

اذن ، جاءت أهمية معلوف فى أنه شغف بالتاريخ العربى القديم · وتوغل فيه ، وقرأ الكثير منه ، حيث راح يفتش فى حناياه ، ويجلو صدأ النسيان عن شخصيات وأحداث كاد التاريخ أن يمحوها · ثم هو ينسج حول هذه الشخصيات والأحداث روايات متخيلة · واذا كان كتاب معلوف الأول الذى نشره عام ١٩٨٣ « الحروب الصليبية كما رآها العرب » · عبارة عن دراسة تحليلية موثقة لموضوع مهم فى تاريخ العرب ، فان الكاتب قد راح يصوغ هذا التاريخ فى اطار روائى جذاب من خلال رواياته المنشورة ·

وأمين معلوف من مواليد بيروت فى عام ١٩٤٩ من عائلة ذات أصل يونانى · وهو ابن لصحفى كبير · لذا وجد نفسه قريبا من والده وهو طفل · وعمل فى الصحافة على مدى اثنى عشر عاماً · حيث تولى ادارة جريدة « النهار » · لغته الأولى هى العربية ثم الانجليزية التى أتقنها وهو فى الثامنة · ثم سافر الى فرنسا ليعمل رئيسا لتحرير مجلة « جون آفريك » · اذن فهو يجيد الكتابة باللغة العربية · ولكنه عندما اختار أن يكتب ابداعا وجد أن اللغة الفرنسية هى الأفضل لعدة أسباب « تضافرت عوامل عديدة لتدفعنى الى اختيار اللغة الفرنسية : فأنا اقيم فى فرنسا منذ سنوات عديدة · ومن الطبيعى أن أتوجه الى المجتمع الذى أعيش وسطه ، كما أن حركة الكتاب فى العالم العربى معاقة بعوامل متعددة : توزيعية · وسياسية · واقتصادية ، مما يجعل من المتعذر على الكاتب أن يحيا من أعماله · فأنا أعيش هنا من حقوقى كمؤلف واستطيع الانصراف الى الكتابة دون أن يعوقنى عائق ، ولا مشكلة لدى مع اللغة العربية · فأنا أكتب بها وأحبها · وأتمنى حقا أن يتمكن الكاتب أن يعمل فيها بجدية وأن يتمتع بوضعية كاتب فعلى » ·

« هناك عامل آخر اكثر التصاقا بالكتابة ، فقد رأيت أنه من الأفضل لى ، كعربى ، أن أعبر عن موضوعاتى بلغة أجنبية ، فأنا أفرض على الفرنسية بعض الكلمات والمعانى العربية · وهذا ما يمنحها « نكهة »

اخرى اذا صح التعبير لو كتب بالعربية ــ لبدا ذلك سطحيا الى حد ما . اخيرا أعتقد أن على الكاتب أن يكتب باللغـــة التى يرى انهـا تعبر عن افكاره ، سواء كانت العربية او الفرنسية أو البرتغاليـة أو الروسـية . هنـــاك اعتبـار قومى أو وطنى للغة تتحول فيه اللغة الى رمز وشعار . وأنا لا يهمنى هذا الاعتبار . ليست اللغـة فى النهاية أكثر من حامل للافكار ووسـيلة تعبيرية » (١) .

فى كتابه الأول ــ وهو غير روائى ــ المعنون « الحروب الصليبية كما رآها العرب » يحاول أمين معلوف أن يقدم وجهة نظر الى الغــرب اهملت الآن .. ليست هذه المحاولة الأولى من نوعها . وينقســم الكتاب الى قسمين يعرض الأول واقع الوطن العربى فى زمن الحروب الصليبية ، حيث احتدمت الخلافات حول الخلافة والسلطة . ثم هنــاك قسم يعرض أشهر بانوراما لزحف الصليبيين وانتصـارهم برغم العقـبات الى ان استطاعوا أن يؤسسوا مملكة القدس والامارات . ورغم ان الكتاب اقرب الى البحث الا أن معلوف قد صاغه بشـكل اقرب الى السرد . ويقول ميخائيل خورى ان « أول ما يلفت النظر فى هذا العرض الروائى الذى لا يخلو من التشويق ، أن القارئ لابد ان يتأثر بما ارتكبه الصــليبيون من أعمـــال وحشية وجرائم فى انطاكية والقــدس ، وفى أماكن أخرى استطاعوا الدخول اليها . كذلك يتأثر القــارئ ، بما هنالك من انقســام وتفتت فى الوطن العربى والاسلامى . ليعجب بعد ذلك بعرض عملية جمع الجهود بين الموصل ودمشق . للتصدى لهذه الغزوات . ثم الجمع بين جهود دمشق والقــاهرة بقيادة صلاح الدين لتوجيه الضربة القاضية الى الصليبيين . بحيث عادت بهذه الفتوح جميع بلاد السـاحل برمتها الى المسلمين » (٢) .

اما القسم الثانى من الكتاب فهو يتناول تأثير الحــروب الصليبية على الشرق والوطن العربى ، وكذلك أثرها على الغربيين أنفســهم ولــو بشكل هامشى ، وقد بين معلوف أن هذه الحرب كانت ذات تأثير ايجابى على الغرب ، اما تاثيرها على الشرق فكانت بالسلبية . ويطرح معلوف سؤالا هو : هل تبرر هذه الأحداث اللاحقة الدعوة الى اعتبــار الماضى فى خبر كان ؟ وهل يحقق ذلك اية غاية ايجابية للعرب ؟ أم أن الدعــوة يجب أن تكون الى حسن الافادة واعتماد المواجهة بشــكل مواز نحو الخطر ؟

---

(١) مجلة اليوم السابع ــ ٣ نوفمبر ١٩٨٦ ، ص ٣٧ .

(٢) الحروب الصليبية كما راها العرب . ميخائيل الخورى . مجلة الشــاهد ، اكتوبر ١٩٩٠ ــ ص ١٠٠ .

رأى أمين معلوف أن العرب قد ابتلوا بعاهتين ، قياسا الى ما حققه الغربيون · فقد عجز مسئولو القيادة العربية عن بناء مؤسسات ثابتة ، فى حين نجح الغربيون منذ وصولهم الى الشرق فى خلق وتكوين دول حقيقية · يتم فيها انتقال السلطة بشكل عام ، دون حدوث أى صدامات · أما كل انتقال فى الحكم لدى العرب فكان يشكل تهديدا بقيام حرب أهلية ·

أما النقطة الثانية فهى أن الغربيين قد أقبلوا على المدرسة العربية فى جميع الميادين سواء فى بلاد الشام أو فى أسبانيا أو فى صقلية ·· وكان من غير الممكن الاستغناء عما تعلموه منها لتوسعهم وانتشارهم فيما بعد · فتراث الحضارة الاغريقية ما كان لينتقل الى أوربا الغربية الا عن طريق العرب مترجمين ومكملين · بيد انه لابد من لفت نظر الكاتب الى أن هذا الانتقال كان قد بدأ قبل بدء الحروب الصليبية بقرن على الأقل »(١)·

فى روايته الأولى « ليون الأفريقى » تناول الكاتب سيرة احدى الشخصيات العربية التى عاشت فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين · أو بالضبط بين عامى ١٤٨٣ و ١٥٥٤ · وهو ، كما يرى المؤلف ، الشخصية العربية الوحيدة التى شاركت مشاركة فعالة فى عصر النهضة الأوربى · كما كان أول من وضع كتابا ذا أهمية عن افريقيا · وليون الأفريقى هو الرحالة ، والعالم العربى حسن الوزان · وتدور أحداث الرواية على لسانه فيقول : « أنا حسن بن الوزان · جان ليون دى مدسيس · ختنت على يد الحلاق · وعمدت على يد « بابا » يسموننى اليوم بالأفريقى · الا أننى لست من افريقيا · ولا من أوربا · ولا من « حاضرة » العرب · يسموننى كذلك بالغرناطى ، والفارسى ، والزياتى · ولكنى لم آت من أى بلاد · ولا من أية مدينة · أو قبيلة · أنا ابن الطريق ، وطنى قافلة · وحياتى مسيرة بعيدة عن الواقع بعدا تاما » · ولا شك أن هناك تقاربا من ناحية علاقة الوزان بالأشياء مع الكاتب أو فلنقل أغلب الأدباء العرب الذين يبدعون بالفرنسية · فحسن حائر بين الأماكن والهويات وهو رجل يحب الانتقال والترحال يبحث لنفسه عن أرض يستقر عليها · انه رجل له نفس أهمية ابن بطوطة فى التاريخ العربى · عشق الأماكن وعرف البشر ، وتذوق أطعمة عديدة فى بيوت تمت استضافته فيها وكانت مصر احدى المحطات التى نزل فيها · فخصص لزيارته لها فصلا من يومياته التى دونت على يد أمين معلوف : « عندما وصلت الى القاهرة ، يا بنى ، كانت هذه المدينة قد اضحت ومنذ عهود طويلة ، حاضرة امبراطورية زاهرة · وقصرا

(١) المرجع السابق ·

للخليفة · أما حين تركتها فقد باتت مجرد عاصمة لاقليم · ولا ريب أنه لن يقيض لها أبدا أن تستعيد مجدها التليد » ·

« لقد شاء الله ، عز وجل ، أن أكون شاهدا على ذلك السقوط ، وأن أرى المآسى التى عرفتها · فقد كنت لا أزال أمخر عباب النيل · احلم بالمغامرات · وبالثروات الجزلة حين حل النذير بالبلاد · غير أنى لم أكن قد تعلمت بعد كيف أحترم القول · وكيف أفسد المراسيل » (١) ·

وقد اعترف معلوف فى حديثه الى مجلة اليوم السابع – ٣ نوفمبر ١٩٨٦ – أنه قد اكتشف شخصية حسن الوزان قبل فترة قريبة · حين كان يقرأ حول الرحالة العربى ابن بطوطة · فراح يبحث عن مصادر لمعرفة الرجل · واكتشف أنه عاش حياة شائقة ومثيرة · و« بدلا من الاكتفاء بالوقائع التاريخية « المحققة » كان يجدر بى أن أحاول اعادة تصور الفترة · نعم · ان ما وصلنا من أخبار حسن الوزان لهو ضئيل جدا ومتناثر فى مقدمة هذا الكتاب أو ذاك · وفى المناسبات القليلة التى يلمح فيها هو نفسه الى سيرته ، ولادته ، وأشعاره فى عمله · هذا هو ما دفعنى الى الحسم لصالح الرواية بالاضافة الى رغبتى الشخصية لمحاولة الكتابة الروائية · لا يمكن بالطبع اعتبار الكتاب رواية محضا · ومع ذلك فجانب التخيل فيها كبير جدا » ·

ومن المعروف أن هذه الرواية قد تركت صدى على الصعيدين الفرنسى والعربى · ففى فرنسا ، وفى عام نشرها ، ظلت على قائمة مبيعات الروايات لعدة أسابيع طويلة · واستطاعت بذلك أن تتفوق على روايات كتبها أدباء لهم أسماؤهم الرنانة سواء من فرنسا ، أو من الرواية المترجمة مثل رواية « الامبراطورة » لبول أوسوليترز المعروف أن رواياته تبيع أرقاما خيالية ، ثم جان دارسو عضو الأكاديمية الفرنسية · والطبعة الحديثة من « جان لافلوريت » لمارسيل بانيول وطبعة حديثة أخرى من رواية « خارج افريقيا » للكاتبة الدنماركية كارين بلكسن ، علما بأن فيلمين كبيرين كانا يعرضان مأخوذين عن الروايتين الأخيرتين فى نفس الفترة فى أوروبا ·

وقد اهتم النقاد العرب بمتابعة هذه الرواية ، سواء قبل ترجمتها الى اللغة العربية ، عام ١٩٩٠ أو بعد ذلك · فقد نشرت مجلة الهلال مقالين الأول كتبته سيزا قاسم قالت فيه انه « من الواضح أن اختيار مثل هذه الحقبة التى تضع حضارتين وجها لوجه بكل دوافعها وقيمها ،

---

(١) Leon l'africain, A. Maalouf. Lattes, Paris, 1986.

وعلى مختلف المستويات كان أحد أسباب نجاح الرواية • وقد أتاحت الرواية للكاتب حرية أن يجمع التاريخ والتخيل • فالأسد الأفريقى شخصية من تلك الشخصيات « الجسور » ، التى تربط بين الحضارات • وكيف يمكن الربط بين الساحات الجغرافية والحضارية المختلفة الا من خلال شخصية ترحل ــ وتقيم ــ وتنتقل من مكان الى آخر حاملة معها اللقاح مثل الطيور المهاجرة ؟ هذا ما فطن اليه أمين معلوف ووظفه فى روايته التى قسمها الى كتب مستقلة حمل كل منها اسم مدينة : كتاب غرناطة ــ كتاب فاس ــ كتاب القاهرة ــ كتاب روما ••

« المكان بطبيعته ساكن لا يتحرك الا من خلال انتقال البشر ، ولا يتغير الا بفعل الزمن ، والزمن فى هذه الرواية زمن تاريخى وليس زمنا « طبيعيا » اذ أن التغير الذى اجتاح المكان كان تغيرا جذريا حول وجه المنطقة والتاريخ : سقوط الأندلس • ونشوء دولة الملوك الكاثوليك بصعود فرديناند وايزابيلا ، انشقاق الكنيسة البروتستنتية وصعود نجم شارل الخامس كارلوس كينتوس •• تفتت المغرب العربى وقيام العثمانيين » (١) •

أما أمين العيوطى فقد كتب فى عدد آخر من نفس المجلة ، مستندا الى الطبعة العربية من الرواية أن : « الخلفية الجغرافية والتاريخية لا تدخل بنية الرواية كمجرد خلفية للزينة •• بل ترتبط ارتباطا وثيقا بتجربة الشتات والتمزق والغربة التى يعيشها حسن بن محمد الوزان والتى يعيشها كثير من العرب اليوم فى شتاتهم المعاصر •

« ومع هذا النسيج الثرى يجدل معلوف خيوط المعاصرة • فوسط هذه الفوضى الشاملة لابد أن يرفع قطاع الطرق والمتآمرون والمغامرون • هناك الزروالى اللص • قاطع الطريق • القاتل الذى اكتنز ثروة خلال ربع قرن من السلب والنهب • والذى يتآمر مع شيخ المجذوبين ليلقى بأخت حسن فى حى المجذوبين حين ترفض الأسرة زواجه منها » (٢) •

ويقول العيوطى ان واقعية الشخصية قد ارتبطت بواقعية الأسلوب فالوزان نفسه ، يعكس ظروف عصره وأحواله والقيم التى كان ذلك العصر يعيش بها • فالرواية فى نهاية الأمر تهدف الى تصوير موضوعى لعالم محدد •

ومن أعماق التاريخ العربى والاسلامى اختار أمين معلوف شخصية عمر الخيام (١٠٤٨ ــ ١١٣١ م) ليكتب عنه رواية لا تقل جاذبية وأهمية

---

(١) ليون الافريقى ، د• سيزا قاسم • مجلة الهلال ، سنة ١٩٩٠ ، ص ١٨٠ •

(٢) أمين معلوف ، د• أمين العيوطى ــ الهلال ــ القاهرة ، سبتمبر ١٩٩١ •

عن الرواية الأولى ، ان لم تكن قد زادت ، وهى رواية « سمرقند » . ومن المعروف أن الخيام شخصية ذات جاذبية خاصة تثير شهية المبدعين للكتابة عنها ، فقد عاش حياة خاصة مثيرة ، وكتب شعرا بليغا يعكس فلسفة الشاعر فيما يتعلق بعلاقته بالوجود والكون ، وقد جاءت لمعلوف فكرة الكتابة عن عمر الخيام وهو يقرأ رواية « مذكرات أدريان » للكاتبة البلجيكية مرجريت يورسنار (١٩٠٣ ـ ١٩٨٧) ، وخاصة العبارة التى تقول فيها الكاتبة : « هناك فقط وجه تاريخى واحد يغرينى بنفس الالحاح الذى يغرينى به وجه أدريان ، انه عمر الخيام ، الشاعر والفلكى » .

اذن ، ففى حياة عمر الخيام ما يصنع رواية مثيرة يمكنها ، من خلال كاتب مثل أمين معلوف ، أن تحقق كل هذا النجاح الذى حققته رواية « سمرقند » ، فقد كان الخيام رجلا شغوفا بالرحيل عبر الأماكن والأزمنة مثلما فعل حسن الوزان ، فارتحل الى بلاد الشرق المجاورة لفارس ، من سمرقند الى أصفهان واسطنبول وتبعا لطبيعة الرحيل ، فقد عرف الخيام أثناء رحلاته السرمدية الكثير من الشخصيات المهمة ، وايضا من بسطاء الناس ، فاقترب منهم .. ورغم كل هذه الشخصيات العديدة ، فان أقرب الناس اليه كان هو حسن الصباح ، الرجل الذى وقف ضد السلطة ومعها : « جعلت القسم الأول من الرواية يتمحور حول ثلاث شخصيات مثلت وجوها مختلفة فى ذلك التاريخ : نظام الملك ، رجل دولة من طراز رفيع ، ومفكر سياسى ، انه رجل حكم امبراطورية ، ودون نظراته فى الحكم ، كان مصلحا ، وفى بعض الأحيان ذا جبروت ، وقد صنعت هذه الأشياء من حسن الصباح ثائرا من خلال مفهوم دينى » (١)

لقد كان حسن قائدا أسس أهم منظمة عسكرية عرفها التاريخ الاسلامى كما يرى ابن معلوف .

لقد دار صراع بين نظام الملك وبين حسن الصباح ، صراع أدى عمليا ، الى تدمير الامبراطورية السلجوقية ، امبراطورية ملك شاه ، التى كانت تمتد عبر آلاف الأميال ، من الصين شرقا وحتى حدود البحر المتوسط غربا .

وتدور أحداث الرواية ، بقسميها ، على لسان شخص أمريكى من أصل عربى اختار لنفسه أسماء عديدة لكنه يفضل أن يناديه الآخرون

---

(٢) الشاعر والحاكم ، حوار ابراهيم العريس ، اليوم السابع ، ٤ ابريل ١٩٨٨ ص ٣٧ .

بـ « عمر » أى بنفس اسم الخيام · وهو يندمج داخل الشاعر من خلال عبوره الأثيرى نحو التاريخ · فيتحدث فى القسم الأول عن الخيام وعن أسراره وصداقاته · أما فى القسم الثانى فيتكلم عن علاقته بالمخطوط الذى به أدق أسرار الخيام ·

وتنتمى شخصية الرواية الى القرن التاسع عشر · وان كان قد عاش بضع سنوات من القرن العشرين · ويقول انه سافر الى باريس كى يتعرف على الشيخ جمال الدين الأفغانى وهو فى المنفى · وانه حدثه عن رغبته فى البحث عن مخطوط مهم يتعلق بـ « عمر الخيام » · لذا ، فقد سافر الى بلاد فارس · واشترك هناك فى الأحداث السياسية التى شهدتها فارس فى تلك الآونة · وهى أحداث أشبه بما يحدث الآن فى ايران ، ووسط مواقف ساخنة يتعرف على أميرة فارسية حسناء تخبره أن لديها نسخة نادرة من مخطوط حول الشاعر عمر الخيام ، ويحس الاثنان أن مصيرهما قد ارتبط بصاحب الرباعيات · فيتزوجان · ويسافران معا الى أوربا فوق احدى السفن الضخمة · حدث ذلك فى عام ١٩١٢ · وفى احدى الليالى المظلمة تحدث الاميرة شيرين زوجها عن مخاوفها الكامنة · فيحاول أن يسرى عنها · ويقرأ عليها بعضا من رباعيات الخيام · ولكن البحر بدأ غاضبا فاشتد ساعده على السفينة المعروفة فى التاريخ باسم « تيتانيك » وتنقلب السفينة وتغوص فى أعماق البحر حاملة معها الكثير من الأسرار ومخطوط عمر الخيام وحياته وتموت الزوجة فى هذا الحادث · ولكن الله ينقذ عمر الذى يحاول أن يحكى كل ما دار فى سمرقند أيام عمر الخيام ·

ويقول معلوف فى تعليق له حول مزج الحاضر بالماضى فى هذه الرواية: « لم أحاول عمدا أن أقحم الحاضر فى أحداث الماضى · طبعا لم يغب عن بالى أن هناك تشابها وتلاقيا بين الماضى والحاضر · لكننى بروايتى لأحداث الماضى حاولت أن أفهم تلك الأحداث من الداخل وأفهم شخصياتها · أيضا من الداخل · قد يجد البعض ، وقد أجد أنا شبها متعدد الجوانب ، بين ضحية نظام الملك ، وشاه ايران الراحل · لكن الشبه محدود بين حسن الصباح ، الثائر الاسماعيلى ، وبين الذين يقودون « حركات ذات قناع « دينى » ·· يكفى أن حسن الصباح ثار · أولا ، على معتقدات جاهلة أى معتقدات الشيعة الاثنى عشرية · وبالتالى لا يمكن أن تكون هناك مقارنة كلية بينه وبين شخصيات عاشت فى بلاد فارس · المرحلة التى باتت فيها الشيعة الاثنى عشرية المذهب المهيمن · هناك شبه ، لكنه محدود للغاية · لكنى لن أفاجأ ازاء مقارنات سيوردها البعض · بيد أن الحقيقة هى أكثر تعقيدا بكثير مما تبدو للوهلة الأولى ·

حتى لو كان بامكان المرء أن يستفيد من دروس الماضى لابد له من رؤية الماضى كما كان ، ومن تفادى ادخاله طرفا فى صراعات الحاضر » (١) ٠

اذا كان التاريخ الاسلامى قد بهر معلوف بصفة خاصة ٠ فهو ، كما يبدو من اهتماماته ، مبهور بتـاريخ الشرق الأوسط والمنطقة بصفة عامة ٠

ولعل معلوف لم يود أن يأسر نفسه فى مرحلة بعينها ٠ وقد بدا ذلك واضحا فى رواياته التالية ٠ ففى روايته « حدائق النور » يتحدث عن نبى ، غير سماوى ، يدعى مانى عاش فى القرن الثالث الميلادى ٠ وقد أقض هذا الرجل مضاجع رجال الكنيسة فى عصره بأفكاره الجريئة ٠ فقد قامت دعوته على أساس « دين الجمال » ٠ وهذا الرجل أيضا مدفون فى التاريخ ، وكان على المؤلف أن يخرجه من مقبرته كى يعيد اليه الحياة فى روايته ٠ ويطلق عليه أحيانا اسم « المسكين مانى » ، انه رجل قـادم من بلاد بابل كى يصرخ صرخة تنطلق الى كل أرجاء المعمورة ٠ وقد انطلق صداه فى حياته من الصين وحتى الجزائر وظل معروفا لأكثر من ألف عام ، ثم بدأت أستار النسيان تسدل عليه ٠ وتقول مجلة لوبوان (٢) ان مانى قد خرج من جعبة عمـر الخيام رغم الفارق الزمنى بين الاثنين ٠ فقد تولد مانى من الظل ٠ وبدا كأنه جاء من عالم الاســلام وكأنه يرد على الأسئلة الأكثر عمقا التى يرددها البشر ٠ لقد عاش مانى عمرا قصيرا ٠ فمات وهو فى السابعة والعشرين من العمر ٠ وكان ضحيـة لصراعات دينية اندلعت بين رجال الدين المسيحى ٠ ولا شك أن مثـل هذا الموت فى تلك السن المبكرة بذلك الأسلوب قد يثير أسئلة حول أساليب الناس فى ممارسة دياناتهم فى منطقة الشرق الأوسط ٠٠ لقد أراد مانى أن يوحد كل هذه الأديان وان يصبح البشر تحت لواء دينى واحد ٠ من بوذيين وكونفوشيين ويهـود ومسيحيين ٠ عمـاد هـذا الدين هـو البساطة ٠ لقد رأى مانى ان الانسان هو صورة العالم مطبـوعة ٠ وهـو يمشى فى درب النور والظلام ٠ وعليه أن يختـار ٠ ولا شك أن مصيره مرتبط بسلوكه ٠ فهو أما الى طريق النور أو الى طريق الظـلام ٠

ويرى مانى أن الوجود الانسانى قد أصبح مميزا بمواجهة مع القوى الكونية ٠ ولذا فان على الانسان أن يتحـلى بالحب ويمـارس الصلاة ٠

---

(١) المصدر السابق ٠

(٢) Maalouf et son prophèt, Le Point 18-3-1991, p. 48.

ويتتبع معلوف سيرة الحياة القصيرة التى عاشها مانى منذ ولادته ولقاءه الأول مع المجموعة الدينية المعمدانية ٠ ثم رسالته الكونية ٠ وقد عاش مانى طفولته وصباه فى واحة مليئة بالنخيل ٠ وكان يسمع هاتفا ان عليه أن يرحل فى المستقبل ٠ وفى سن الرابعة والعشرين أصبح له تلاميذ من بينهم والد مانى الذى أرسله هذا الأخير فى مهمة الى أحد البلاد ٠ وقد توجه مانى نفسه الى الهند ٠ ولم يتوقف عن بث دعواه ٠ وكان ينادى تلاميذه أن يذهبوا الى الميدان ٠ وقد التقى فى رحلاته بالكثير من البشر والناس ٠

وكماهوملاحظ ، فان مانى صورة مشابهة لحسن الوزان وعمر الخيام ٠ فهو وان لم يرحل من أجل الرحيل مثلما فعل الوزان ٠ الا انه عاش تجربة الرحلة ٠ والالتقاء بالناس ٠ وقد كان الامبراطور فاليرين معجبا به كثيرا لكن بعد أن مات طرده ابن الامبراطور بهرام من البلاط ٠ ثم تم القبض عليه وظل فى السجن ستة وعشرين يوما ولم تتحمل روحه التى اعتادت الانطلاق السجن ، فأسلم روحه صباح اليوم الثانى من مارس عام ٢٧٤ م ٠

وقد أجرت مجلة « لوبوان » حديثا مع الكاتب بمناسبة صدور روايته قال فيه : ان مانى كان يرى أن أصل العالم ينقسم الى قسمين منفصلين ٠ عالم النور وعالم الظلام ٠ وذات يوم حدث صدام هائل بين هذين العالمين فاختلط النور بالظلام بألف طريقة مختلفة ٠ وهكذا تولدت الكائنات من انسان وحيوان وطبيعة ٠ وأجسام غير مرئية ٠ لقد تولد هذا العالم كله ممزوجا من النور والظلمة معا ٠ وكان يطالب أن يعمل كل منا على سيادة النور على الظلام ٠ وقد راح رجال الدين يتعاملون مع مانى على أنه هرطقى ٠

ويقول معلوف (١) : ان مانى قد مس منطقة المحرمات الدينية والسلطات ٠ كما أن افكاره تقوم على مبدأ الصفوة ٠ فالصفوة تشغل مكانة مهمة فى المجتمع ٠ وتاثيرها المعنوى يؤخذ دائما بعين الاعتبار ٠ لذا أخذ الصراع بين مانى ورجال السلطة شكلا حادا ٠٠ ففى ذلك العصر كان يحكم العالم أربع امبراطوريات : امبراطورية اكسوم (الحبشة) والصين ، وروما ، وفارس ٠٠ التى كانت قريبة من المنطقة العربية ٠ وفى فارس كان شهبور هو اقوى الحكام فى تلك الحقبة ٠ وهو رجل مصاب بهوس لدرجة أنه يمكنه أن ينافس نفسه ٠ وكان يرى أن الامبراطورية الرومانية تشكل عليه خطورة ملحوظة ٠ وفى عهد شهبور

---

(١) المصدر السابق ٠

ظهر رجلان كبيران تعارضا فيما بينهما · انهما الساحر الأكبر كردير ومانى · وكان الســاحر هذا يسعى لبناء كنيسة حقيقية · ذات طابع رسمى · أما مانى فقد كان ينادى بأن تتوحد الأديان الثلاثة الكبرى فى تلك الآونة · فقد كانت البوذية ســائدة فى الهنــد وشرق آســيا · ثم المسيحية واليهودية · وقد كاد شهبور أن يمتثل لمانى · الا أن « كردير » وقف له بالمرصــاد · واضطر مانى أن يخضع للضغوط التى يواجهها ·

وفى نفس الحديث عقد معلوف مقارنة بين القرن الثالث والقــــرن العشرين فقال ان القرن الثالث عرف صراعات الامبراطوريات · وصراعات اقتصادية وسياسية ومشاكل روحية · ودينية · وبعد اعــدام مانى بعشرة أعوام أصبحت المسيحية هى الديانة الرسمية فى روما · وأحس الناس أن حيواتهم لم تعد كافية بالقدر المطلوب ·· فراحوا يبحثون عن شىء آخــر » ·

فى عام ١٩٩٢ نشر الكاتب رواية تحت عنــوان « القرن الأول بعــد بياتريس » وهى تنتمى الى الخيال العلمى · وكأنه قد نفض يديه ، ولــو مؤقتا ، من التاريخ كى يتجه نحو المستقبل · فيحكى لنا قصة غريبة ، تبدو واقعية وكأنها تمس كلا منا ، وتقوم الفكرة على انه طالما أن العــلم قد استطاع معرفة نوع الجنين قبل ميلاده · فهل يمكن ذات يوم معرفة عادات وسمات ومستقبل هذا الطفل ·؟ وهل يمكن أن نتحكم فى الأجنــة القادمة حتى يصبح العالم كله بلا نساء · ويمتلىء فقط بالرجال ؟ : « منذ عشر سنوات انتابتنى فكرة عن عالم بلا نساء · فلاشك ان علم الوراثة سيتقدم بشكل خيالى · كما أن الروحانية ستتخلف فى كل أنحــــاء العــالم » ·

وفى الرواية يصبح من المفضل أن يولد الغلمان عن البنــات · فى البداية لا احد يصدق الأمر حتى الراوية نفسه المشــغول بالسعادة التى حلت عليه · انه يحب صحفية تدعى كلارنس وهبته بنتا · فيمارس عليها كل مشاعر الأبوة التى كان ينشدها « ولــدت بياتريس فى الليلة الأخيرة من أغسطس · قبل موعدها بقليل مثلما كانت تفعــل وهى تذهب الى المدرسة » · وبعد ميلاد بياتريس تقوم مشــاكل سكانية · وتطرح أسئلة حول علاقة مولد كلارنس بما حدث · يظهر شعب جديد لديه الخيار للانتحار · لقد أصبحت النساء عملة نادرة · لذا يتم اخفاؤهن عن الأعين ويتم بيعهن بأغلى الأثمان · وفى بلاد الجنوب تنفجر ثورة من أجــل اضطراب الأحوال السكانيـة · وتندلع الصراعات وينقســم العــالم · ويسود الحزن · ويمر قرن · انه القرن الأول على ميلاد بياتريس انه

قرن مظلم • ويشعر الراوية أن عليه أن ينسحب مع أسرته الى مخبأ من الرخام كي يجد فيه الأمان •

ويقول معلوف : « لا شك أننى بالغ الحساسية • كرجل شرقى لهذه اللعنة القديمة التى تثقل على النساء • فى بلادنا ، مثلما فى الكثير من بلاد العالم الثالث ، فان مولد فتاة يستدعى الحداد فى باكستان • وفى الصين يقومون بقتلها » (١) •

★★★

كلمات قليلة تعمد الكاتب اللبنانى أمين معلوف أن يضعها فى صفحة منفردة فى نهاية روايته « صخرة طانيوس » التى فازت بجائزة جونكور فى الأدب لعام ١٩٩٣ •• وهى أن وقائع هذا الكتاب مأخوذة تقريبا بالكامل من حادثة حقيقية • حين قتل البطريرك فى القرن التاسع عشر على يدى أبوكشيش معلوف الذى هرب الى قبرص مع ابنه • أما بقية الشخصيات فمن وحى الخيال •

ومثل هذه العبارة تعتبر مدخلا أساسيا الى عالم أمين معلوف • فالكاتب يعود من جديد الى أحداث حقيقية دارت فى الماضى ، ويستلهم من وثائقها روايته • ثم يضيف من خيالاته ما يتناسب مع روح روايته • حدث هذا حين رجع الى ما كتبه الرحالة حسن الوزان فى روايته الأولى « ليون الأفريقى » ثم الى جزء من سيرة الشاعر عمر الخيام فى رواية « سمرقند » وأيضا الى ما توفر لديه عن حياة النبى مانى فى روايته « حدائق النور » وأخيرا فى « صخرة طانيوس » •

لقد سعى معلوف دوما أن يضفر الخيال بالواقع • وأن يجعل الأول فى خدمة الثانى ، بمحاولة لاحيائه بأى ثمن • فبدت هذه الضفيرة ذات شكل خاص بالكاتب ، مهما اختلف الزمان أو المكان الذى تدور فيه أحداث كل رواياته •

وفى روايته ، سعى معلوف من ناحيته الى اتباع نفس الشكل الأدبى الذى سبق أن استخدمه فى رواية « سمرقند » حيث أتى فى البداية الى العصر الحديث ، مشيرا أن هناك وثائق يمكن أن تلقى الضوء على المرحلة الزمنية التى يود التوغل فيها • فاذا كان هناك باحث أمريكى من أصل عربى قد تمكن من العثور على أوراق تخص الخيام ، فان المؤلف – كراوية – فى « صخرة طانيوس » يؤكد عثوره على وثائق مهمة تلقى الضوء أيضا على جريمة القتل التى حدثت فى الرواية عام ١٨٣٨ باحدى

(١) L’homme qui aimait les femmes, le Nouvel observatur, 23-4-1992, p. 131.

الضيعات اللبنانية والتى انتهت باختفاء شخص يسمى « طانيوس » أطلق اسمه فيما بعد على الصخرة الكبرى المجاورة لضيعتـه « كفر عبيدة » ٠

يقول الكاتب فى الصفحات الأولى من روايته عن هذه الصخرة : « تأملت كثيرا هذه الكتلة من الحجارة دون أن أجـرؤ على الاقتراب منها ٠ ليس بسبب الخـوف من الخطر ، فالصـخرة بالنسـبة لقريتنا هى لعبتنا المفضلة خاصة بالنسبة للأطفال ٠ فقد اعتدت أن أرى الصغار الذين يكبروننى يتسلقونها ٠ وفيما بعد لم يكن لدينـا أية لعبـة سـوى أن تلتصق جلودنا بالصخرة ونحن لا نستطيع مقاومة سحرها » ٠

والكاتب الذى سوف يحكى لنا ما شهدته هذه الصخرة طوال ردح من الزمن ، عليه فى البداية أن يعرفنا على أبطال هـذه الحكاية الرئيسيين قبل أن يروى لنا وقائعها ، وقبل أن يحدثنا بالتفصـيل عن الضيعة كمكان أشبه بحصن فى حشاياه كل هؤلاء البشر ، الذين اذا ابتعدوا عنها أحسوا كأنهم السمك الذى خرج من الماء ٠

فأبطال هذه الحكاية هم : لمياء ٠ والشيخ فرنسيس ٠ ثم جريوس ٠ والمرأة هى محور الأحداث هنا ، ويتسمى الفصل الأول كله باسـمها ٠ « اغواء لميـاء » ٠ انها تحمل جمالها كأنه عقيدتها ٠ هى زوجة للقروى البسيط جريوس ٠ وتعمل فى منزل عمدة الضيعة وشيخها فرانسيس ٠ وفى هذا البيت طلب جريوس يدها للزواج ٠ فهى بمثـابة ابنة لفرانسيس الرجل الذى يمزج بين الطيبة والقسوة ٠ وبين متناقضات عديدة مثل أغلب الذين يمتلكون مقدرات الأماكن والبشر ٠

والشيخ فرانسيس هـو سيد الضـيعة ، ولذا فكم يتمنى الجميـع الحصول على مضائه ، وحيث يردد أحدهم مثلا : «لقد رأيت الشيخ اليوم» بشىء من الغمز ٠ بينما يردد الآخر : « اليوم قبلت يد الشيخ » كأنه حصل على رضاء الزمن ٠ فهذه اليد كما يقول معلوف قد تأتى بالسعادة ، أو التعاسة لأبناء الضيعة ٠ وهى من القوة بحيث انهـا تمثل مهابة خاصة لهؤلاء الذين ذاقوا قسوتها حتى انهـالت عليهم مصائبها ٠ يجب أن يحترمه الآخرون ٠ وأن يطلبوا حمايته ٠ وربما أشياء أخرى خاصة النساء ٠

تلك كانت ملامح عابرة عن الشخصيات الرئيسية التى ستكون ذات علاقة فيما بعد بالوليد طانيوس ابن لمياء ٠ أما المكان فهو ضيعة غير موجودة على الخريطة اللبنانية تسمى « كفر عبيدة » ، ولكنهـا تمـزج بين سمات العديد من الضيعات فى ذلك العصر ٠ انها واقعـة هنـاك فى

الجبال ٠ تخضع للنظام الاقطاعى ٠ حيث يملك الشيخ الكثير رغم أن النظام الادارى فى ذلك العصر سيفرض عليه حاكما وبطريرك ٠ والناس فى هذا السهل المنخفض لا يتطلعون الى أعلى ٠ فهم يرون أن العمدة لا يمكن أبدا تجاوزه ٠ ولذا ، فان معلوف يفرد له عددا من الصفحات للحديث عن ما يتمتع به من سمات متناقضة ٠

أما الزوج جريوس ، فهو رجل قليل الكلام ، والابتسام ٠ ولم تكن لمياء تطمح فى أن يكون لها زوج خلافه ٠ رغم أنه يكبرها سنا ، بين الزوج وامرأته كانت هناك مسافة زمنية ٠ فقد كانت فى ربيعها الخامس عشر ، أما هو فكان فى خريفه الثلاثينى ٠ ومع ذلك فهى سعيدة ٠ بل ان الكثير من نساء القرية يحسدنها على مكانتها ٠ فهى ذات حظوة خاصة بالنسبة للشيخ الذى يناديها أمام الناس بـ « بنتى » ٠ وهى حين تسمع هذا النداء تشعر بسعادة غامرة ٠ ولكن يقال ان حدود هذه العلاقة قد اقتربت من مرحلة الخطر ٠ لذا ، فعندما ولد «الصغير» طانيوس اثيرت الأقاويل عن هوية الأب الحقيقى : هل هو فرانسيس أم جريوس ؟ ٠

لقد ظل هذا الأمر الموضوع الرئيسى لأهل الضيعة « رغم انهم يتكلمون أقل ٠ انهم يأكلون ما يكفيهم ويتعاملون مع الشيخة زوجة فرانسيس بنوع من الازدراء ، عكس نظرتهم الى زوجها ٠ وليست هناك اشارة من سكان القرية الى حقيقة أبوة مانيوس ٠ ولكن الكاتب أشار الى ذلك تلميحا فى البداية ٠ ثم ما لبث الأمر أن تأكد فيما بعد ٠

فليست لمياء مجرد خادمة فى البيت ، ولكنها عندما تدخل على الشيخ تقدم له الفاكهة ، تشاركه التقاط بعض الثمار رغم أنها أعلنت لزوجها ، خفية ، عن مخاوفها من الدخول الى الشيخ لأنه يطلب منها فى بعض الأحيان أشياء أخرى لا تلبث أن تتهرب من الحديث عنها ، حتى لا تثير شكوك زوجها ٠

وقد أشار المؤلف أن لمياء ظلت بعد زواجها من جريوس مسطحة البطن طوال عامين ٠ وانها قد حملت بعد أن تناولت من ثمار تلك الفاكهة ٠ ولذا ولد طانيوس فى يوم صيفى ولكنه ملبد بالغيوم ٠ وقد احتار أبوه فى اختيار اسم له فكان « عباس » أولا ، ثم استقر المقام على طانيوس وهو اسم غريب بالنسبة للضيعة التى اعتادت أن تطلق أسماء أخرى لأبنائها ٠

وقد حاول معلوف أن يعطى العديد من التفسيرات للتسميات اللبنانية فاسم عباس كان تيمنا بعم الرسول (صلى الله عليه وسلم)

الذى يسمى باسمه اثنا عشر خليفة حكموا المنطقة العربية ردحا طويلا من الزمن · أما اسم فرانسيس فقد استمد من القديس فرانسوا داسيس الزاهد المعروف ·

وهناك فصل بأكمله حول الخلاف الذى دار الى أن استقر على اختيارهم اسم الوليد الجديد · ولكن المثير حقا هو ذلك الفضول الذى استبد باحدى النساء لمعرفة الاسم الحقيقى الذى على الوليد أن ينتمى اليه · هل هو الزوج جـــريوس ، أم الشيخ فرانسيس ؟ فذات يوم أتت زوجة القس الى بيت الرجل · يدور بينهما حوار مثير :

ـ آخر مرة ، طلبت يد « بونا » بطرس وأعطيتها لك · فماذا تريد هذه المرة ؟

ـ هذه المرة أريد يدك ، يا شيخ ·

ويرتبك الرجل ، ولكن المرأة ، التى هى أيضا شقيقة لمياء ، تطلب منه أن يعترف لها ، حتى وان كانت امرأة ، اذا كان هو الأب الحقيقى للوليد ، وبكل ثبات وثقة يردد : « اذا وددت أن تعرفى ·· فهذا الطفل ليس من صلبى » ، وهو يعلم تماما انه كاذب ·

ورغم أن الشيخ يكذب ، فانه يذهب الى بيت لحم من أجل اقامة مراسم الحج · أما جريوس الزوج ، فانه يتلقى التهانى وعليه أن يصدق جيدا ، داخل نفسه ، ان طانيوس ابنه · فهو اذا لم يصدق ذلك فسوف تتحول حياته الى جحيم ·

وينتقل الكاتب من الهم الخاص ، الى الهم العـــام ، فالبلاد فى تلك السنوات تعتبر طريق مرور للجيوش المصرية الى الشام ، والعاصمة العثمانية ، بينما يعم احساس بأن هناك نهضة قادمة · كان لبنـــان تســتعد لدخول العصر الحديث ·

والجدير بالذكر أن معلوف هنا قد اســتخدم ثلاثة مســتويات من الأزمنة ، فهو يعود من عــــام ١٩٣٨ الى ١٨٢١ حين ولد طانيوس · ثم هناك زمن المؤلف نفسه · الذى يروى من اطاره وقائع الرواية باعتبار أن أحداثها قد انتهت ، ولعل هذا يذكرنا بنفس الكيفية التى تناول بها الكاتب الكولمبى جابريل جارثيا ماركيث روايتـــه « وقـــائع موت معـــلن عنه » فنحن ســـلفا نعرف ما ستسفر عنه الأحـــداث · لكن من أجل معرفة المزيد ، وحكى التفاصيل مثير دائما للمتعة ، يجب علينـــا أن نقـــرأ الرواية ·

وإذا كان المؤلف قد انتقل بين هذه الأزمنة ، بكل سهولة ، فإنه فيما بعد يختار أن يتتبع طفولة طانيوس الذى ينتظر مصيرا قدريا مليئا بالمعاناة ، فهو مولود ومعه « ثأره » الخاص · تحوطه تلك الصخرة الرابضة فى التاريخ التى عليها أن تتسمى فيما بعد باسمه · وهناك أيضا أبوان : أحدهما حقيقى والآخر يحمل اسمه ·· ومجموعة من الأشخاص الذين سيلعبون دورا مؤثرا فى مصيره مثل البطريرك ، وهو رجل أشد قسوة وظلما من فرانسيس · وأيضا حاكم البلاد الذى يصدر الفرمانات الواجبة الطاعة ·

الجدير بالذكر أن هناك تقاربا واضحا بين بعض وقائع هذه الرواية ، ورواية ماركيث السابق الاشارة اليها · ليس فقط فى الصياغة الأدبية ، ولكن أيضا فى أن أحداث كلتا الروايتين مأخوذة عن وقائع حقيقية ذات علاقة بالمؤلف نفسه ·

وقد اختار معلوف أن يجرى بالسنوات ، حتى بلغ سن الصبا · فما أن أصبح فى الخامسة عشرة ، حتى انقلب فرانسيس فجأة على معاونه القديم « رافوز » بعد أن رفع حصة الضرائب « الميرى » فلم يكن أمام الرجل سوى الهروب · وما لبث الاقطاعى أن أصدر أمره بمنع دخوله الضيعة · ويشير المؤلف أن السبب الحقيقى لهذا الغضب والطرد ليس أبدا الضرائب ، وانما لأن الاقطاعى حاول أن يغرر بامرأته مثلما فعل مع لمياء · ولكنه تصدى له · وما لبث جـريوس أن حصل على وظيفته · ولكن « رافوز » ما يلبث أن يعود ومعه شفاعة من نائب الحاكم المصرى المعفو عنه · ثم يلتقى بطانيوس الصغير ذات يوم فيحدثه أنه ليس مطلوبا منه أن يقبل يد الشيخ يوميا · مثلما يفعل أبوه · ولكن عليه أن يدرس ويتثقف · ويصبح بذلك أباه الروحى ·

ويقبل طانيوس على التعليم · ويعرف أن هناك فرقا بين ما يتلقاه من معرفة وبين ما يدور من حوله من عادات وتقاليد · ويزامله فى الدراسة « رعد » الابن الشرعى للشيخ فرانسيس · وتتوطد العلاقة بالبطريرك ، ويتردد الرجلان على بيت الحاكم العام للجبل ·

وفى الضيعة هناك شخص آخر يدخل فى خضم الأحداث يدعى « القس شتولتون » · والذى يروى فى مذكراته أنه فوجىء بأن السنوات تقدمت فجأة بطانيوس · وأنه رغم سنوات عمره الخمس عشرة فان بعض الشعيرات البيضاء قد بزغت فى رأسه : « تصورت أن هناك أسطورة فى هذا الركن من الجبل تتعلق بالشيب الذى يصيب الصغار · وبالفعل يحدث هناك شىء مرعب » ·

وتشاع الأقاويل عن علاقة ما بين زوجة القس وبين « رعد » ٠ وفى مجتمع صغير مغلق مثل هذا لا تلبث أن تتسرب الحكايات ، الحقيقى منها والمزيف ، فلا شيء يختبيء بما فيها حكاية بنوة طانيوس ٠ فان قصة رعد تنتشر على ألسنة النساء ، وتعود الى الأذهان قصص الأب القديمة ٠ ويغلق الصبى طانيوس على نفسه أبواب المكتبة من أجل الاستزادة من المعرفة ، ربما رفضا لهذا العالم ، وربما بحثا عن وسيلة أفضل لفهم الحياة ٠ ثم يحس أن هناك مشاعر ما تنتاب المرء حين يرى فتاة جميلة ، مثل « أسماء » التى يحبها ذلك الحب الطفولى الجميل ،» ويحاول فى البداية أن يحفظ سره فى داخله ٠ انها ابنة معلمه الكبير « رافوز » الذى يناديه دائما بـ « ابنى » ٠ وهى لم تتجاوز الثالثة عشرة بعد ، لكنها أيقظت فيه مشاعر رائعة مقدسة ٠

لكن هذا الحب النقى فى حياة طانيوس لا يلبث أن يختفى ٠ ففى عام ١٨٣٨ ، تتعرض الضيعة لهزة أرضية عنيفة تصدع قصر فرانسيس الضخم ، والذى يعيش فيه أغلب أبطال الرواية ٠ كما تتصدع المنازل القروية ٠ وينتج عن ذلك سلسلة من المآسى ٠ فبالاضافة الى الموت ٠ هناك القحط ٠ ويقرر الحاكم مضاعفة الضرائب ٠ أما البطريرك فيحس أن عليه أن يمارس سلطاته لمصلحته الخاصة ٠ انه رجل لا يهمه أن يكون هناك شرف ، بل أن تأتى اليه العوائد بأى ثمن ، وهو لا يكن للمشاعر النبيلة أى تقدير ٠ حيث يسعى لتزويج « أسماء » بابن أخيه ٠

ويصاب طانيوس بألم عظيم ويهرب من حبه الى امرأة أخرى « لقد عرفت امرأة ، لم أكن أتكلم لغتها ٠ ولم تكن تعرف لغتى ٠ لكنها كانت تنتظرنى على السلم ٠ وذات يوم طرقت بابها لأخبرها أن سفينة تنتظرنا من أجل الرحيل » ٠

ويرحل طانيوس بعد أن مات البطريرك صريعا برصاصة أصابته بين حاجبيه ٠ كما يموت جريوس مقتولا ٠ وتندلع حرب طائفية فى الضيعة ، بالغة القسوة مثل حرب الأمس القريب فى لبنان ٠ وكما يقول « شولتون » فى أوراقه الخاصة : لقد رجوت طانيوس أن يرحل ٠ كان هذا هو واجبى نحوه ٠ وأنا أقول له : فكر ، فأنت لست صاحب مصلحة فى هذه الحرب ٠ ليحكم المصريون جبلك ، أو العثمانيون وليعلن الفرنسيون الانجليز » ، لكنه ردد : لكنهم قتلوا أبى ٠

بعد أن يرحل طانيوس الى قبرص ، تنقطع صلته بالضيعة ٠ فلا أخبار تأتيه من هناك ، كما أن أخباره لا تصل الى أهله ، وخاصة أمه

لياء · انه واحد من كثيرين سافروا بسبب هذه الحرب الى لندن وباريس وفيينا والقاهرة · ولكن قلوبهم ظلت معلقة بالوطن · يرغبون فى عبور البحر للعودة حتى لو تعرضوا للنيران · ويفكر فى العودة من أجل الثأر · لقد وجد نفسه أمام وجهى عملة للثأر · الأول مرتبط بدماء أبيه ، والثانى يتعلق بالازدراء الذى يحسه داخل نفسه ، وتنسكب الأحزان والهموم داخل قلب الشاعر الذى أصبح شعره أبيض تماما · رغم براءة وجهه « أنت يا طانيوس يا ذا الوجه الطفولى · والرأس المتسعة لستة آلاف عام · لقد عبرت أنهار الدم والوحل وخرجت كالشعرة من العجين · لقد مزجت جسدك بجسد امرأة · وألقيت بعذريتك فوق الأرض · اليوم أصبح مصيرك معلقا وبدأت حياة أخرى · فانزل من فوق صخرتك · وانغمس فى البحر : واجعل جسمك يلعق نقطة واحدة من الملح » ·

لكن طانيوس لا يعود لينتقم على طريقة الثأر العربية · بل ليرى امه · فيكون اللقاء حارا للغاية وهى تصرخ باكية : « أنا فى حاجة اليك · فلا تبتعد مرة أخرى » · ولكن الغريب أن طانيوس عاد ليختفى من جديد · ويكون الاختفاء هنا أقرب الى عبثية مصائر أبطال الأساطير الذين لا يعودون قط ، فقد فشل طانيوس الشاب الأشيب فى الاندماج داخل هذا العالم الضيق ، الملىء بالقسوة · ولذا ، لا يجد أمامه سوى حل واحد هو الخروج من الوطن · وقد تحدث الكاتب عن هذا الخروج فى حديثه الى ابراهيم العريس فى مجلة الوسط (العدد ٩٤) قائلا : « لا يهمنا أين ذهب · وكيف ذهب · يهمنا قراره كرد فعل على ما يحدث · النهاية هى خروجه من عالم الرواية · اختفاؤه · هذه هى فكرة الكاتب · حكاية الهجرة ما قبل الهجرة · فاذا كان على أن أواصل فسيكون من الضرورى أن أحكى قصة أخرى لا علاقة لها بالأولى » ·

تلك كانت وقائع رواية « صخرة طانيوس » لأمين معلوف ، وقد حاولنا سردها قدر الامكان · فمعلوف ليس فقط روائيا موهوبا ، ولكنه لا ينسى فى داخله المؤرخ والصحفى · فهو لا يحدثنا عن قصة « ثأر » امتلأ التاريخ بالملايين من امثالها · ولكنه يؤرخ للبنان ، فى تلك الآونة ، وينقل صورة صادقة وحية لكل ما كان يحدث فى ضيعة لبنانية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر · وقد وقع معلوف فى حيرة لترجمة الأسماء والألفاظ الى الفرنسية التى يكتب بها فتركها فى أغلب الأحيان عربية بلا دلالات · وكأنه كتب «صخرة طانيوس» لأبناء وطنه الذين يعرفون الفرنسية وليس فقط لقراء اللغة الفرنسية ، أيضا ، وليس للقارىء العربى الذى لا يعرف الفرنسية وتلك سمة واضحة لدى الأدباء العرب الذين يكتبون عادة باللغة الفرنسية

قائمة الأدباء اللبنانيين الذين كتبوا باللغة الفرنسية

أبو زايد ، فؤاد :

ولد عام ١٩١٥ فى ساحل علما (مرتفعات لبنان) · شاعر · وقصاص · نشر ديوانه الأول « اشعار الصيف » فى عام ١٩٣٦ ببيروت · والذى لاقى ترحيبا من الأكاديمية الفرنسية · ثم جاء ديوانه الثانى « اشعار جديدة » المنشور فى باريس عام ١٩٤٢ · نشر ديوانه الثـالث « فكرة » عـام ١٩٤٥ ·

أبو سـليمان ، الفـريد :

عاش بين عامى ١٩١٢ و ١٩٣٥ حيث مات وهو فى الثالثة والعشرين من العمر بعد اصابته بمرض عضال لا برء منه · كان يحس دوما أن نهايته قريبة · وقد اكتست نغمة قصائده بحزن عميـق مكسو باليـأس ونداءات مليئة بالتمرد · لم ينشر له سوى ديوان واحد هو « رماد ساخن » الذى صدر عقب وفاته بعشر سـنوات · والذى طبـع فى بيروت باللغة الفرنسية ·

احدب ، جومانة

ولدت فى بيروت · نشرت أشعارها الأولى وهى فى الرابعة عشرة من عمرها · تعاونت مع صحف ومجـلات عديدة لنشر قصـائدها · عملت فى جريدة « النهار » و « مجلة لبنان » اللتين تصدران بالفرنسية · ثم « اكسيون » action و « كراسات الشرق » · كما عملت فى بعض الصحف والمجلات فى مصر · ونشرت بها قصائدها · نشرت أول ديوان لها فى عام ١٩٤٩ باللغة الفرنسية فى باريس ·

اركاش ، جان :

ولدت فى الاسكندرية · لأب لبنانى وأم ريفية فرنسية · درسـت الأدب والموسيقا وقـامت بالعـديد من الرحـلات بين أوروبا والشرق · نشرت كتابها الأول « مصر في مراتي » عام ١٩٣١ و « الغرفة العليا »

المنشور بباريس عام ١٩٢٣ ثم « الأمير ذو الصليب » بباريس عـام ١٩٣٨ .

أمون ، بلانش :

فرنسية من أصل لبناني . بدأت حياتها كفنانة تشكيلية . وعرضت لوحاتها في باريس وبيروت . روائية تكتب قصصا قصـيرة ؛ ومقالات . نشرت كتابها الأول « قصة لبنان » عام ١٩٢٧ . كما كتبت في صحيفة « النهار » التي تصدر بالفرنسية .

بطرس ، ايفلين :

ولدت في بيروت . واشتركت في النشـاط الاجتمـاعي والحركة النسائية . تكتب الرواية ، نشرت روايتها الأولى « يدان » عام ١٩٢٦ التي كتب لها المقدمة كل من جيروم وجان تورو .

ثابت ، جاك :

ولد في بيروت عام ١٨٨٥ ، شاعر نشر ديوانه « ضحكات ونحيب » عام ١٩٠٧ ورواية « الصخب الدامي » عام ١٩١١ . ودراسة عن سوريا عام ١٩٢٠ . ثم رواية « هيلسا » عام ١٩٢٢ وديوان شعر يحمل عنوان « أشعار مختلفة » عام ١٩٢٥ .

جماتي ، بول :

مولود في جبل لبنان . شاعر . نشر العديد من الدواوين مثل « رماح الحرب » عام ١٩٢١ . و « جنـاح صغير لهووس ميت » عـام ١٩٢٥ . و « شموس » عام ١٩٢٧ . و « باريس بالمغنسيوم » عام ١٩٢٨ . ثم « أشـعار » عام ١٩٣٨ .

حايك ، فرج الله :

ولد عام ١٩٠٩ في بيت صباب بجبل لبنان . بدأ حياته بديوانين هما : « دموع وابتسامات » و « جنة ابليس » ١٩٢٩ . نشر روايته الأولى « برغوث » عام ١٩٣٩ . ثم نشر دراسات عن « يسوع » عام ١٩٤٦ . و «الله لبناني» عام ١٩٤٦ ببيروت . ثم ثلاث روايات هي «هيلينا» ببيروت عام ١٩٤١ . و « الغريبة » عام ١٩٤٧ . و « جورفيل الساحر » عام ١٩٤٧ . و « أبو سيف » ١٩٤٨ . ثم ثلاثية روائية تحمل عنوان «أبناء الأرض » عام ١٩٥٠ . « ابنة الله » ١٩٤٩ . « سجن الوحدة » ١٩٥٠ .

حكيم ، فيكتور :

ولد عام ١٩٠٧ · وقد نشر العديد من القصائد والمقالات فى صحف مصرية ولبنانية وفرنسية · نشر ديوانه الأول « فريناز » عام ١٩٤٥ · ثم دراسة عن الشعر اللبنانى عام ١٩٤٨ ·

سـمير ، أدمون :

ولد عام ١٩٠٢ · شاعر · نشر منذ عام ١٩٢٨ مجموعة من القصائد فى صحف ومجلات بيروت · وفى عام ١٩٤٣ صدر ديوانه الأول فى بيروت ·

شحادة ، جورج :

(انظـر الفصـل الثانى) ·

شـديد ، اندريه :

(انظر الفصل الخاص بالأدب المصرى)

شيحة ، ميشيل :

ولد فى بيروت عام ١٨٩١ · مؤسس ومدير صحيفة « النهـار » التى كانت تصـدر باللغـة الفرنسـية · فى عـام ١٩٣٤ نشر ديوان شـعر يحمل عنوان « منزل الحقول » وساهم فى أصدار العديد من المجـلات منها « المجلة الفينيقية » و « فينيقيا » و « مجـلة لبنان » و « كراسـات الشرق » باللغة الفرنسية ·

غانم ، خليل :

ولد فى بيروت عام ١٨٥٧ · وسافر الى باريس وعمل فى جريدة « لوفيجارو » ثم فى صحيفة « الحوادث » نشر ديوان شعر يحمل عنوان « المسيح » عام ١٨٩٩ · ثم دراسة تاريخية مهمـة من جـزءين عـام ١٩٠١ تحت عنوان « السلاطين العثمانيـون » ·

غريب ، ميشيل :

ولد عام ١٩١٢ فى دامور بجبل لبنـان · وقـام بتدريس الأدب الفرنسى فى كلية البطـريركية ببيروت · نشر ديوانه الأول « أرومات فى الظل » عام ١٩٣٦ · ثم نشر الكثير من القصائد فى الصحف اللبنانية التى كانت تصدر بالفرنسية ·

قرداحي ، شــكري :

ولد في عام ١٨٩٠ ببيروت · تولى وزارة العدل · ورئاسة شرفية البلاط ، كما عمل مدرسا فى الأكاديمية القــانونية الدولية بلاهاى وفى كليــة الحقوق ببيروت · ثم حصــل على دكتـــوراه شرفية من جامعة الجزائر · ونشر مجموعة من الدراسات القانونية باللغة الفرنسية منهــا على ســبيل المثــال : « مفــاهيم وممارسة القــانون الدولى الخاص فى الاعــلام » عام ١٩٣٨ ·

قلث ، هكتور :

ولد عام ١٨٨٨ ، شاعر ، عاش فى مصر ونشر أشــعارا فى أهــم المجــلات بالقاهرة والاسكندرية ، عاد الى لبنــان ١٩٢٠ · وعمــل فى الصحف والمجلات المحلية · وتولى مسئولية المكتبة القومية فى بيروت ثم عمل قنصلا عاما فى ســـاو باولو عــام ١٩٤٨ ومن أهــم دواوينــه « السرو والخروج » عام ١٩٣٤ و « فى الرياح القادمة » ١٩٣٧ · و « القديسة ماما » وكلها منشورة ببيروت ·

كورم ، شارل :

ولد فى بيروت عام ١٨٩٤ · واصدر أول مجلة ثقافية لبنانية باللغة الفرنسية باسم «المجلة الفينيقية» ثم أسس دار نشر تحمــل نفس الاسم · شاعر · من أهم دواوينه « الانسانية والجبل » ١٩٣٥ · و « طفــل الجبل » (مقــالات) عــام ١٩٣٨ · ثم « الفــن الفينيقى » ١٩٣٩ · و « سر الحب » ١٩٤٨ و « سيمفونية النور » ١٩٤٨ ·

كورى ، شارل :

ولد فى باريس عام ١٩١٠ من أصــل لبنانى · طبيب وشاعر ، نشر ديوانه الأول عام ١٩٢٣ بعنوان « ساعات ضائعة » ثم ديوانه الثــانى « من شاطيء لآخر » عــام ١٩٤١ · والذى أهــدته الأكاديمية الفرنســية جائزة خاصة ·

معلوف ، امين :

(انظــر الفصل الثالث) (*) ·

(*) تم رصد هذه الاسماء من كتاب : Anthologie des auteurs libanais. الصادر فى بيروت عام ١٩٤٨ ·

الفصل الرابع :

الأدب الفلسطينى المكتوب باللغة الفرنسية

اختلفت تجربة الكاتب الفلسطينى الذى يعيش فى الشتات ، من حيث علاقته باللغة التى يكتب بها ادبه ، عن اقرانه من الأدباء العرب الآخرين الذين يكتبون باللغة الفرنسية · فرغم أن هذا الكاتب وجد نفسه فى شتات ، الا أنه لم يشأ أن يغير من لغته التعبيرية ، لاحساسه أنها شيء اساسى ورئيسى يربطه بوطنه الذى تشتت عنه · ونقصد بذلك الفلسطينيين الذين اختاروا أن يعيشوا خارج حدود الأرض العربية · وقد حاول السينمائيون من هؤلاء الفلسطينيين ان يقدموا أفلاما ناطقة بلغات غير عربية ، وذلك لأن على المخرج أن يمتثل لشروط المنتج ، ولما كان المنتج فى اغلب هذه الأحيان اوروبيا فان الأفلام الروائية والقصيرة التى قدمها الفلسطينيون ناطقة بلغات اوروبية - مثل اعمال ميشيل خليفى التى انتجت فى بلجيكا ·

لكن الفلسطينيين لم يشاؤا أن يكتبوا الا بالعربية · مهما عاشوا خارج حدود الوطن العربى ، والأسماء كثيرة فى هذا المضمار ومنهم على سبيل المثال افنان القاسم ·

وسوف نقدم هنا كاتبا فلسطينيا تشكل حالته كمبدع لونا فريدا فى الأدب العربى المكتوب باللغة الفرنسية ، وهو الكاتب ابراهيم الصوص · سهو دبلوماسى فلسطينى عمل سكرتيرا عاما لمنظمة التحرير الفلسطينية فى باريس منذ سنوات طويلة · اذن فهو موجود هناك بحكم منصبه الدبلوماسى وليس مفروضا عليه ان يكتب باللغة الفرنسية · لكن ابراهيم الصوص وجد نفسه فى المدينة اليهودية الأولى فى غرب اوروبا – باريس – والتى تضم اكثر من تجمع يهودى ، واليهود هم الذين يسيطرون على الكثير من صحافة المدينة ، وهم الذين يطلقون على الأشياء مسمياتهم الخاصة كأن نقول « ادب يهودى » و « فلسفة يهودية » و « فن تشكيلى يهودى » وما الى ذلك · اذن ، فكل من يحاول الخروج على هذا

الناموس الذى يضعه اليهود متهم بمعاداة السامية • وقد يكون نازيا يريد ان يعيد للعالم صورة هتلر الذى عذب اليهود ووضعهم فى معسكرات الاعتقال الشهيرة •

أدرك ابراهيم الصوص انه من أجل أن يفهم الفرنسيون قضيته التى يدافع عنها فيجب أن يمارس لونا من الكتابة اقرب الى هذه العقلية ، يبعد صورة الشخص الزاعق الذى يدافع عن أرضه • فلا شك ان الكتابات التى تتفق مع عقلية الفرنسيين سوف تمر من خلال مرشح خاص • لدرجة أن بعض اليهود أنفسهم لن يمانعوا فى المساعدة لنشر مثل هذه الأفكار الى القارىء فى كل انحاء أوروبا • طالما ان اهداف هذا الابداع ، لا تتعارض مع ما ينادون به •

اذن ، كان على ابراهيم الصوص أن يتغلغل من خلال افكاره الخاصة ككاتب مبدع • حتى وان كانت هذه الأفكار لم تكن تناسب فى البداية اهداف منظمة التحرير الفلسطينية التى يعمل ممثلا لها فى باريس منذ اكثر من ثلاثة عشر عاما • الا ان اشخاصا من طراز الصوص ساعدوا فى تغيير افكار المنظمة •

لقد اختار الصوص أن يتحاور مع اليهود على الطريقة الأوروبية • ان يذهب اليهم فى عقر دارهم • فيناقش ويبدع كما يشاء • ككاتب متمكن يفهم ما يدور حوله • فقد دفع فى أواخر عام ١٩٨٦ بروايته الأولى «بعيدا عن القدس» Loin de jérusalem الى ناشرة باريسية تدعى ليانا ليفى • وغير خفى اسمها اليهودى • وانتهزت الناشرة الفرصة كى تدفع بكتاب الصوص الى السوق مصحوبا بكتاب آخر من تأليف الكاتب الاسرائيلى يورى آفينرى يحمل اسم « اخى العدو » • ولم تكن مصادفة أن تقوم دور نشر فرنسية أخرى بدفع كتب مماثلة من طراز « اشقاء اسرائيل الثلاثة » لشالوم كوهين • و « أنا يهودى عربى فى اسرائيل » لمردخاى شوشان ، وغيرها من أعمال الكتاب الاسرائيليين الذين تترجم أعمالهم مباشرة الى اللغة الفرنسية •

اما رواية الصوص فهى مكتوبة مباشرة باللغة الفرنسية •وتروى قصة شاب فلسطينى يدعى نبيل وفتاة يهودية مراهقة تسمى جابريللا • انهما يعيشان فى نفس المنزل بمدينة القدس • تربيا معا • واقتربا من بعضهما البعض طوال سنوات الطفولة والصبا حتى ترعرعا • وتحابا ثم تزوجا • تبدا احداث الرواية عام ١٩٣٥ • قبل أن يتم نفى نبيل بثلاثة عشر عاما بعيدا عن مدينة القدس • والرواية اقرب الى السيرة الذاتية • فابراهيم الصوص لم يكن قد ولد فى عام ١٩٣٥ الذى تدور فيه الاحداث • اما جابريللا فقد كان الصوص فى الثالثة من عمره

عندما شاهدها لآخر مرة · حين تم نفيه خارج القدس عام ١٩٤٩ مع ابيه الذى ظل محتفظا بمفتاح البيت الذى اقامت فيه فيما بعد اسرة يهودية جاءت من رومانيا · وعندما تركت أسرة الكاتب مدينة القدس عثر الصغير على بيانو قديم تعلم عليه عزف المقطوعات الموسيقية · وقد دفعه هذا الى دراسة الموسيقا فى باريس ثم لندن التى ألف بها اولى مقطوعاته الموسيقية · ثم عمل ممثلا للمنظمة ·

لقد حول الصوص مهنة بطله من شاعر الى موسيقار · فمن المعروف ان الصوص قد بدأ حياته شاعرا ونشر ديوانا بالفرنسية يحمل عنوان « دافيد وجوليات » ثم جاءت روايته باللغة الفرنسية التى اجتر فيها ذكريات الطفولة عن ابيه · حيث يروى تاريخ اسرته منذ عام ١٩٣٥ وحتى الآن · وقد أبدى الصوص اعجابه بأدب مرجريت دوراس وباتريك موديانو ، وهو كاتب فرنسى يهودى من أصل تونسى · وفى الرواية تحدث عن مذبحة دير ياسين · وحرب عام ١٩٤٨ · وكما يقول الكسندر بوساجون ان الصوص : « يكتب بلا حقد · ولكن هذا يكفى لتسوية الصراع الذى يسمم الشرق الأوسط والعالم منذ ثلاثة اجيال · ولكنه حسبما يقول لست مسالما · ولكن شعبينا لا يمكنهما ان يمارسا الحرب الى الأبد » (١) ·

وجابريللا فى الرواية يهودية جاءت من المانيا بعد ان تعرضت اسرتها لمضايقات النازية التى كانت قد استولت على الحكم لتوها · وقد اختار الكاتب فترة الثلاثينات لروايته لأنها ، كما يقول ، لم يكن فيها « رجال مسلحون جاءوا من بلادهم من أجل البقاء فى اسرائيل ويحولونها الى مستعمرة متحجرة » ·

أما الكتاب الثانى لابراهيم الصوص فقد نشر فى أبريل عام ١٩٨٨ تحت عنوان « رسالة الى صديق يهودى» Lettre a un ami juif وليس خافيا أن الكاتب قد استعار هذا العنوان من كتيب صغير كتبه البير كامى عام ١٩٤٢ تحت عنوان « رسالة الى صديق المانى » ابان الاحتلال النازى لفرنسا · والكتاب ليس ابداعيا · ولكنه نص سياسى فى المقام الأول · وقد اختار الصوص أن يكون ناشره هذه المرة هو دار غير يهودية ، وتقول مجلة «لونوفيل اوبسرفاتور» ان الكتاب قد جاء كرسالة خالصة من الكراهية قبل الاحتفال بأربعين عاما على قيام الدولة العبرية · وبعد فترة من مقتل المناضل الفلسطينى أبو نضال فى تونس · وتقول المجلة ان الكاتب قد دعا هنا يهود الشتات ان يبرهنوا على

---

(١) l'evenement de jeudi, 23-1-1987, p. 87.

حسن نواياهم باقناع اسرائيل بالتفاوض مع المنظمة ، ويهمنا أن نترجم جزءا من الحديث الذى نشرته المجلة مع الكاتب بهذه المناسبة لإلقاء الضوء على آراء الكاتب :

— **لونوفيل اوبسرفاتور :** لماذا تكتب الرسالة الى صديق يهودى وليس الى صديق اسرائيلى ؟

— **ابراهيم الصوص :** فى الواقع · لقد ترددت طويلا · فاذا كتبت رسالة الى صديق اسرائيلى · فان على أن أوجهها الى صديق اسرائيلى حقيقى · وعلى أن أكتب الى الاسرائيليين فى معسكر السلام الذين يتظاهرون فى الشارع ضد قهر الجيش الاسرائيلى فى الأراضى العربية المحتلة · ولقد قلت لهم : حاولوا أن تذهبوا بعيدا · وأن تحموا الفلسطينيين · فى كل مرة ترون فيها الجنود أو العسكر يهاجمون قرية · ضعوا أنفسكم بين الجيش والفلاحين · فى كل مرة ترون الجيش يفجر منزلا بالديناميت ادخلوا المنزل مع الأسرة الفلسطينية ؛ لأنكم سوف تمنعون الانفجار ·

« ولكننى اعرف أن حركة السلام تشكل أقلية · وأنها كانت أقل قوة أثناء حرب لبنان · وعندما تظاهر أربعمائة ألف اسرائيلى فى تل أبيب ضد مذبحتى صابرا وشاتيلا كانت نسبة الاسرائيليين الذين يفضلون سياسة الضغط ويقبلون سياسة أكثر تشددا قد ارتفعت ، اذا لم تكن حركة السلام قد فرضت نفسها على التجمعات اليهودية فى الخارج ، فانها خنقت · ولذا ، وجهت رسالتى الى كل اليهود عبر هذا الصديق الذى تخيلته ·

— الا تخشى أن يخرج الصديق من جيبه ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية ويخبرك أنكم تريدون تدمير دولة اسرائيل ؟

— لا · فعندما سألت هذا الشخص أن يكون شجاعا مثل الاسرائيليين الذين ينزلون الى شوارع تل أبيب بنداء حركة السلام · عندما اتكلم عن الشعب الاسرائيلى أقول ان هذا الشعب له حق الوجود · وياسر عرفات نفسه لا يكف عن ترديد هذا · نحن لا نحارب أشباحا · وأنا ادعو الاسرائيليين أن يخرجوا ميثاقهم بدورهم · والا يتجاهلوا وجود الشعب الفلسطينى · أقول للصديق اليهودى : اذا أردت أن تلغى ميراث الهولوكست فيجب أن تعرف أيضا من ناحيتك ، وتعى ماضينا · اعرف انك يجب أن تعيش فى سلام وأمن · وأعرف مدى ارتباطك الروحى بهذه الأرض · ولكننى لا أعرف أن لليهود الحق فى أرض الفلسطينيين · الحق التوراتى غير موجود · فحقى يأتى من أننى قد ولدت هناك ويجب

ان أعيش هناك · ولا ارى ، أخذا فى الاعتبار الارتباط الروحى ، ان حق اليهود يمكن أن يكون على أرضى · ومع هذا فانا بوصفى فلسطينيا أقول لهم : طالما أن ارتباطكم الروحى موجود · فانا مستعد للمعايشة معكم · تعالوا معى للعيش على مقربة ·

ولكن الزمن يمر بسرعة · منذ انـدلاع الانتفاضة فى الأرض المحتلة · لم يعد يوجد سوى مائة وخمسين قتيلا وآلاف الجرحى · والمبتورى الأعضاء ، والمطرودين · والمساجين · القتلى والجرحى لديهم أسر · وأصدقاء · وعلاقات · حتى تتخيلوا درجة الحقد · ورغبة الانتقام التى يمكن أن توجد فى الشعب الفلسطينى · لقد سمعتم تصريح رئيس الوزراء الاسرائيلى الذى يشبه الفلسطينيين بالجراد · لقد سمعتم عن عنصرية المستوطنين · فالفلسطينيون يشمون من هذه النغمة من العنصرية ضدهم ، أنهم لا يمكن أن يكونوا سعداء بتشبيههم بالجراد · فلا يجب أن نعاملهم كالحشرات ، ندهسهم ويموتون·

— هل قرأ ياسر عرفات مسودة كتابك ؟

— لا · ولكن ليس فى هذا الكتاب ما يستحق أن يوقع عليه بنفسه ·

الجدير بالذكر أن مجلة « لوبوان » الفرنسية قد نشرت فى عددها الصادر فى ٣ اكتوبر ١٩٨٨ أن ياسر عرفات اكد أمام رولان ديماس وزير الخارجية الفرنسية آنذاك : « لن اكون رئيس الحكومة الفلسطينية المؤقتة» ثم استدار ، كما تؤكد المجلة ، ناحية ابراهيم الصوص وهو يقدمه مرددا: ربما سوف يكون ابراهيم الصوص · والغريب أن الكاتب قد طلب بعد هذا التصريح بشهور من السلطات الفرنسية أن تمنحه الجنسية الفرنسية ، وقد كان ·

لم يتأخر الرد الاسرائيلى كثيرا على كتاب ابراهيم الصوص · فرغم أن الكاتب الفلسطينى لم يوجه رسالته الى كاتب بعينه ، فان الكاتب الاسرائيلى ايلى بارنافى قد رد على ابراهيم الصوص فى كتيب صغير يقع فى ثمانين صفحة تحت عنوان « رسالة من صديق اسرائيلى الى الصديق الفلسطينى » بالتعاون بين مجلة الاكسبريس ودار نشر فلاماريون · وهو مدرس فى جامعة تل أبيب · واعتقد انه ليس مجالنا ونحن نتحدث عن الأدب العربى المكتوب بالفرنسية أن نرصد ما جاء فى هذا الكتاب · لكن يمكن أن نقدم بعض افكاره ؛ لأن ذلك كله قد جاء من مبدع بدأ يتعامل فى الصراع العربى الاسرائيلى بمفهوم جديد · حيث يقول الكاتب : « علينا

أن نتحاور مع منظمة التحـرير الفلسطينية ، لأن الكثير من الدلائل قــد تغيرت • فعندما جرؤت حنا سنيورا الصحفية واحدى المتحدثات باسم عرب الداخل أن تقول فى القدس انكم لن تجرؤوا على الكتابة فى باريس أن الصهيونية هى الحركة الثرية للشعب اليهودى • لاشك أن هذا يعنى . رغم كل ذلك ، أن كل شىء يتحرك فى ملعب الفلسطينيين » •

ومن الواضح الدور الذى لعبه أدب الصوص فى التمهيد للتحـاور بين الفلسطينيين ، واليهود ، وقد حدث ذلك ابان محادثات أوسلو السرية، واختفى الصوص ، وها هو عرفات رئيسا للحكم الذاتى الفلسطينى •

الفصـــل الخـــامس :

الأدب الجزائرى المكتوب باللغة الفرنسية

« ولدت الحرب العالمية الثانية فى الجزائر حياة أدبيـة أكثر ثراء وأكثر انفتاحا وتنـوعا ، وقد جاء ذلك من صدمة الحرب ، وبداية الاتصال بثقافات أخرى · وأصبح الأدباء الجزائريون ، خاصة الشباب ، مطلوبين لدى القراء والناشرين · وقد ساعد ذلك على ظهور ما يسمى بالمدرســة الجزائرية » (١) ·

ففى بداية القرن · كان الفرنسيون يعملون على أن تنطق شـمال أفريقيا باللاتينية · وتحمس لهـذه الفكرة أدباء فرنسيون مثل لوى برتران وروبير راندل · ثم مع بداية الثـلاثينات كانت الفكرة هى صناعة افريقيا على المنوال المتوسطى · وظهر جيل من الأدباء فى تلك السنوات عرفوا تحت اسم « شباب البحر المتوسط » كان أغلبهم من الفرنسيين · وفى الأربعينات لمع الأديب الشاب البير كامى باعتباره فرنسـيا يعيش ويكتب عن الجزائر · وسمى هذا الجيل الذى عاصر الحرب فى الجزائر من الفرنسيين بالجيل الاستعمارى الثـالث ، ومن ابرز أبنـائه « ايمـانويل روبليس » صاحب مسرحية « ثمن الحرية » ·

وقد شكل هذا الجيل مدرسة الجزائر · والذى ظهر ابداعه فى مجـلات مهمـة مثـل مجلة « فونتـان » fontaine و « لارش » l'arche و « لانف » la nef وما لبثت هذه المجـلات أن انتقلت الى باريس عقب انتهاء الحرب ·

وقبل أن تنتهى سـنوات الأربعينات بـدأت الأســماء الجـزائرية الحقيقية تلمع فى الأفق · ولأول مرة يظهر تعبير الأدب العـربى المكتـوب بالفرنسية فى الجزائر · وفى تلك السنوات كان الاستعمار الفرنسى يتعامل

(١) Les litteratures francophones depuis 1945, j. j. Joulent., p. 171.

مع اللغة العربية الفصحى باعتبارها من التراث · وكان يتم تعليمها فى أضيق الحدود فى فرنسا · وهكذا وجد الجيل الأول من الأدباء الجزائريين انفسهم أمام اختيار واحد هو الكتابة باللغة الفرنسية التى يتقنونها · ومن أبناء هذا الجيل هناك جان عمروش ، ومولود معمرى ، ومولود فرعون ، ونبيل فارس · وهم جميعا من البربر : ولغتهم الأصلية هى اللغة البربرية · أما الأدباء الذين لغتهم الأصلية هى العربية فهناك مالك حداد ومحمد ديب وكاتب ياسين ·

وقد ساق هذا الكاتب الجزائرى أن يستخدم اللغة التى يمتلك ناصيتها اكثر من غيرها · وهى ايضا فى تلك الآونة لغة بنى وطنه ·

ويقول كتاب « الأدب الفرانكفونى منذ عام ١٩٤٥ » (١) ، ان مسألة اللغة المكتوبة لم تكن تهم كثيرا فى مجتمع ترتفع فيه نسبة الأمية اكثر من ٩٠٪ قبل عام ١٩٦٠ · ولذا ، فان الكاتب العربى فى تلك الآونة كان يكتب لقارىء آخر وهو القارىء الفرنسى ، أو الأوروبى بشكل عام· وقد أحدثت هذه الظاهرة ما يسمى بالمأساة اللغوية للمستعمر · فالكاتب يمتلك لغتين لا يستطيع أن يستخدم أدوات واحدة منهما فى التعبير · وكان الكاتب يحس أن الفرنسية هى اللغة الأم طالما أنه يحس بها · ويحلم ويفكر ، أما اللغة العربية فهى لغة غريبة فى تلك الآونة · لذا ، اختار الكتابة بها دون أن يشعر بأى ندم ؛ لأنه لم يكن يملك سوى أن يفعل ذلك ·

وقد شكلت هذه الظاهرة خطورة على الكاتب الذى يحب أن يناهض هذا الاستعمار · فأحس ان عليه أن يهاجر الى لغته العربية · لكن هذا لم يحدث بسهولة · ولعله لم يحدث لمن كانت جذورهم اشد فى اللغة الفرنسية · وقد كتب كاتب ياسين اكثر من مرة أن « موقف الكاتب الجزائرى الذى يعبر بالفرنسية هو أنه بين خطين من النيران يجبرانه ان يبدع · وأن يرتجل » ·

وقد كان الجيل الذى ظهر فى عام ١٩٥٢ أكثر شهرة فى البلاد العربية ، حيث ان اغلب اعماله قد ترجم الى اللغة العربية وخاصة فى مصر · فمن المعروف أن ثلاثية محمد ديب « البيت الكبير » La grande maison و « الحريق » l'incendie و « النول » le metier a tissu ترجمت فى مصر فى أواخر الستينات ونشرتها روايات الهلال · ومن ابناء هذا الجيل هناك جان عمروش · ثم مولود فرعون · وهؤلاء الأدباء ما لبثوا أن دخلوا فى المعركة مع الشباب الذين جاءوا من بعدهم

---

(١) المصدر السابق ·

مثل كاتب ياسين وبشير حاج على مالك حداد • منهم الشعراء ومنهم كتاب الرواية كما هو معروف •

كاتب ياسين :

تجيء اهمية الكتابة عن كاتب ياسين ضمن الأدباء العرب الذين يكتبون باللغة الفرنسية ليس فقط من انه يمثل الجيلين الأول والثانى من هؤلاء الأدباء • ولكن ايضا لأن علاقته باللغات التى ينتمى اليها قد شكلت بالنسبة له بلبلة خاصة جعلته يدافع فى فترة من حياته عن اللهجات المحلية الجزائرية ، وينادى بها لغة للكتاب وخاصة الابداع الأدبى • فقد تربى فى مجتمع به العديد من اللهجات واللغات • فبالاضافة الى اللهجة المحلية الجزائرية • هناك اللغة البربرية والعربية الفصحى والفرنسية • ولذا ، سنجد ان مشكلة اللغة تؤرقه بشكل ملحوظ • وقد بدا هذا كثيرا فى الأحاديث الصحفية التى ادلى بها فى السنوات الأخيرة من حياته •

ولا يمكن الكتابة عن السيرة الذاتية لكاتب ياسين دون الرجوع الى الأحاديث الصحفية التى ادلى بها للعديد من المجلات العربية • خاصة التى تصدر من باريس مثل « اليوم السابع » و « الوطن العربى » فضلا عما كانت تنشره صحيفة لوموند من وقت لآخر كلما صدر كتاب جديد للاديب ، خاصة فى السنوات الثلاث الأخيرة من حياته ، ففيما قبل لم يكن يكتب عن سيرة الكاتب سوى القليل من السطور • وفى فترة من حياته • كان قد توقف عن الابداع لأكثر من خمسة عشر عاما • ولذا راح يجتر حياته وشهرته بشكل ما ، واستفاض البوح بما يتعلق بذاته للصحافة •

ولد كاتب ياسين فى السادس والعشرين من اغسطس عام ١٩٢٩ ، بالقرب من مدينة قسطنطينية • « كانت أمى عبقرية • وكانت لديها سعادة فى التعبير الغريب بالعربية • كان أبوها رجل ادب • موهوبا مثل اخوته فى اللغة العربية • نسى ابنته لكن امى كانت تنصت اليه من خلف الباب • وتعلمت العربية الفصحى من مخبئها • وانتهى الأمر بأن ساعدها أبوها فى الدراسة » (١) •

اما أبوه فقد ادخله كتاب القرية ليتعلم اللغة العربية ويحفظ القرآن الكريم • ولكنه ما لبث أن نقله الى المدرسة الفرنسية التى ظل بها حتى عامه الخامس عشر •

---

(١) Kateb, le premier des lieurs, le monde 20-12-1886, p. 10.

ويعتبر عام ١٩٤٥ نقطة تحول ملحوظة في حياة « كاتب » ، ففى الثامن من مايو قامت المظاهرات الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسى ٠ وتم القبض على كاتب ياسين ٠ وطلبوا منه أن يخون وطنه ٠ الا أنه رفض ٠ فبقى فى السجن فترة من الوقت وراح يمارس الكتابة والابداع ٠ « بدأ كل شىء بالنسبة لى بالشعر ٠ ربما اننى كتبت قصائدى الأولى فى سن التاسعة و العاشرة ٠ فى التاسعة قرأت بودلير ٠ هـــذه العـــلاقة المبكرة بالشـــعر انما أدين بهـــا الى أبوى ٠ كانا يتمتعان بفطرية شـــعرية عالية ٠ تصور أنهما حتى عندما كانا يتشاجران كانا يتناجيان شعرا ٠ الا أن البداية الحقيقية تعود الى عام ١٩٤٥ ٠ تعرف ولاشك ما حدث فى ذلك العـــام ٠ لقد اطلقت الشرطة الفرنســية النـــار على الطلبــة الجزائريين من المتظاهرين ، ولما كنت انا واحدا منهم فقد أودعت السجن٠ كنت يومهـــا طالبـــا فى المدرســـة الثانوية فى ســـطيف ٠ دام حبسى شهورا عدة ٠ وحالما خرجت بدأت بكتابة مجموعتى الشعرية الأولى ٠ تنقسم المجموعة الى قسمين ٠ ذلك اننى لدى خروجى من الســـجن ٠ تعرفت على « نجمة » ــ ابنة عم لى ٠ ومتزوجة، همت فى الحال بهذه المرأة، وسأظل كذلك ، هكذا ضمت المجموعة قسمين : قصائد فى النضال وأخرى فى الحب ٠ منذ البداية كان الشعر بالنسبة لى هو : « الشعب ونجمة » ٠

« لقد حالفنى الحظ بعد فترة ٠ كنت جالسا فى مقهى ، وكان يجلس الى طاولة مجاورة رجل فرنسى أبيض ٠ يشرب نبيذا أبيض ٠ قام بيننا حديث ٠ سألنى عن عملى ٠ فقلت له اننى ، مبدئيا ، طالب ولكننى أمارس هواية الشـــعر ٠ فقال لى اننى كنت محظوظا ، لأنه هو نفســـه ناشر ٠ وطلب الى أن آتيه بمخطوطاتى ٠ وحال قراءته لهـــا قـــرر أن ينشرها ٠ وهكذا كان ٠ وجـــدت نفسى فى سن السادســـة عشرة ومعى مجموعة مطبوعة ٠ الا أن المسألة لم تنتــه عند هذا الحد ٠ كانت هذه هى المناسبة لأن أكتشف أن شعرا كشعرى لا يتمتع فى الجزائر المستعمرة بحق الاقامة فى المدينـــة ٠ نحن فى عام ١٩٤٦ ٠ ما أن اطلع الفرنسيون على قصائدى حتى حالوا دون توزيعها فى المكتبات ٠ فراح أصـــدقائى والمتضامنون معى من الزملاء يوزعونها جمـــاهيريا ٠ تصور (يضـــحك) أن المجموعة راحت تباع فى الحوانيت وصالونات الحلاقة ، أدركت حينها اننى ، اذا كنت أريد الاستمرار فى الكتابة ، فيجب أن أعتمد على هؤلاء البسطاء من أبنـــاء شعبى ٠ أدركت كذلك أن الشعر والنضال السياسى سيظلان الى أبد ، متلازمين لدى ، متكافئين » ٠

« للخروج من هذا العزل القسرى الموضوع على الكلام الشعرى اتصلت بعناصر المقاومة ورحت القى فى الجمهور محـــاضرات أدبيـــة ــ سياسية ، ولكن سرعان ما اكتشفت انه لايصال صوتى الى أكبر عـــدد

ممكن من الناس ، جزائريين وفرنسيين كان على أن اتجه الى باريس « فم الذئب » كما يقال (١) ·

ومن خلال السيرة الذاتية التى رواها كاتب ياسين للصحافة · نرى انه كتب روايته ، ودرته « نجمة » Nedjma فى الفترة بين عامى ١٩٤٤ و ١٩٥٠ · ثم نشر مجموعة من المسرحيات التى جلبت له الشهرة ومنها « الجثة المطوقة » Cadrave encerclé و « دائرة القمع » le cercle de repénailles ١٩٥٩ · و « المرأة المتوحشة » la femme sauvage ١٩٦٣ · و « الأسلاف يتميزون غضبا » les ancétres redoublent de ferocité ١٩٦٥ · ثم « الرجل ذو الصندل الكاوتشوك » l'homme au sandales de caoutchouc عام ١٩٧٠ · و « عمل متناثر » l'oeuvre en frogment ١٩٧٧ · وهى كلها اعمال مكتوبة باللغة الفرنسية : ونتيجة للصراع الذى يدور بداخله فيما يتعلق بمسألة الكتابة باللغة العربية · وجد أنه من الأسهل أن يكتب باللغة العامية الجزائرية · وهى نفس التجربة التى سبقته اليها آسيا جبار ·

وقد عاش كاتب ياسين بين عامى ١٩٤٥ و ١٩٦١ هائما بين المدن الأوروبية · وبين باريس وبلجيكا ويوغوسلافيا والمانيا والاتحاد السوفيتى · وهذه السنوات تمثل الخصوبة الابداعية للكاتب · قام خلالها بكتابة ثلاثيته المسرحية المعروفة « عدت الى البلاد بعد الاستقلال ، واستأنفت العمل فى جريدة الجمهورية الجزائرية التى عاودت الظهور من جديد · ولكن بعد فترة قامت السلطات بمنعها من الصدور · دفعنى هذا الى القيام بجولات جديدة فى الخارج · وبعد كل عودة كنت أبحث عبثا عن شىء أقوم به » (٢) ·

فى هذه الفترة ، مارس كاتب ياسين العمل الصحفى · بعد أن التقى بالسفير بن يحيى ، سفير الجزائر فى موسكو · فعمل فى جريدة « المجاهد » : « كان الرئيس بومدين ووفد من الحكومة يتهيأون لزيارة مدينة ورقلة فى الجنوب · فسبقت الوفد وذهبت الى المدينة فى عشية الزيارة الرسمية لتكوين فكرة عن حياة المواطنين · واستطلاع شكواهم · طلبت الى أحد موظفى وزارة الاعلام أن يرافقنى فى جولة عبر المدينة · ركبت سيارة الوزراء السوداء الضخمة ورحنا نقطع شوارع المدينة الصغيرة · لا نقابل فيها قدم انسان تسعى · وفى مشارف

---

(١) لم أنته بعد من تكوين الجزائر ، حوار كاظم جهاد ، اليوم السابع ١٣ ابريل ١٩٨٧ · ص ٣٦ ·

(٢) المرجع السابق ·

المدينة ، فحسب ، لمحنا اربعــة جدران • هيكل مبنى لم يكتمل • عندما توقفنا ودخلنا فيه وجدنا بين الجدران الأربعة خيمة • ماذا تفعل خيمة بين جدران اربعة ؟ أليس هذا شكلا سورياليا بحق ؟ » (١) •

فى هذا الحادث ، اكتشف كاتب ياسين أن الشرطة تبعد فقــراء المدينة اذا جاء رئيس الدولة لزيارة المدينــة • وطالب باعادة الســكان الى مناطقهم الأصلية كى تتمكن الحكومة من مشاهدتهم : « ولما لم يسمعنى أحد • قفلت راجعا • ولقد دفعنى شعورى الى مغادرة البلاد من جديد • جئت الى باريس • وبقيت فيها هذه المرة حتى ١٩٧٠ • ولم أعد الى الجــزائر من جديد الا بعدما سمح لى وزير العمل باقامة مسرح عمالى • وقد استطعنا خصوصا فى السنوات الخمس الأولى أن نقــدم أعمــالا جيدة أغلبها بالعــربية المحليــة فى الجــزائر » •

وقد تحــدث كاتب ياسين أيضا حــول هذه المرحلة قائلا : « بدأت الكتابة بالعامية منذ خمس عشرة سنة • وانقطعت عن الكتابة بالفرنسية • هذا ، بالرغم من أن صديقة فرنسية لى ، هى جاكلين أرنو التى قامت بجمع أعمالى مؤخرا ، كانت تحثنى على الكتابة بالفرنسية • كانت تقــول أنه يجب على هذا ، الا أننى لم اكن أستطيع ذلك • لذا ، عملت على لملمة النصوص التى أهملتها خلال سنوات » (٢) •

وجاكلين أرنو هى باحثة فرنسية أو كما يراها كاتب : « امرأة نبيلة • امرأة رائعة فوق العــادة ، كانت صاحبة قلب كبير بالرغم من أنها فقدت حظوة الطبيعة وعطفها عليهــا • كانت مصابة بالقلب ومريضة بالسرطان وتعب الأعصاب • مع ذلك فقد تابعت رســالتها الثقــافية والجامعية وقامت بما قامت به تجــاه الآداب المغــربية وأعمالى • ان امرأة مثلهــا لأمر خيــالى » •

ومادمنا بصدد الحديث عن كاتب ياســين كروائى عربى يكتب بالفرنسية • فيمكن أن نرصد دأبه فى اللغة العربية ، فهو يتحدث عن هذا الموضوع فى مجلة اليوم السابع ــ العدد السابق الاشــارة اليه ــ قائلا : « الجزائر بلد هو بلاشك اسلامى • لقد أسلمنا • نحن الجزائريين • الا أننا لم نستعرب جميعا • ثم ما هى هذه العربية التى يقدمونها لنــا فى الجزائر ؟ اذهب يا صديقى واستمع الى نشرات الأنبــاء فى المذياع والتلفاز : عربية عتيقة ، مبالغ فى تعتيقها •• الى درجة بعيدة • وهى أنأى ما تكون عن الوضوح الملموس فى عربيــة العراقيين والمصريين

---

(١) المرجع السابق •

(٢) المغربى المتشرد يعود ــ المجلة ــ ٢٧ مايو ١٩٨٧ •

واللبنانيين .. الخ .. لغة بلاغية بائدة . لا يفهمها حتى المثقفون . عملى المسرحى أنا قدمته بالعربية . ولكنها عربية حية متداولة يفهمها المثقف والعامل . فيها عالجت مشكلة المهاجر ومأساة فلسطين ، ومن قبلهما حرب فيتنام . أليست هذه لغة عربية ؟ من يرفع عنها هذه الصفة ؟ اللغة خصوصا فى المسرح ، تشحذ على مبادرة الواقع .. الشعب هو من يصنع اللغة ، حتى فى أخطائه » و « هفواته » . حتى عندما يكسر اللغة أو يلويها فهو انما يحييها . أنا ضد الأكاديميات . الأكاديميون هم محفظو اللغات لا محيوها ، لأنهم يدافعون عن لغة لا وجود لها فى الحياة . فرنسيتى ، فى الرواية على « فصاحتها » مشتغلة هى الأخرى بكلمات الحياة اليومية وبناها . ولست وحدى فى هذا . بل سبقنى اليه كثيرون . فى مسرحى العمالى ، العمل الجماعى هو القاعدة » (١) .

ولسنا هنا بصدد التعقيب على رأى الكاتب . لكن ، كما رأينا ، فهو لم يكن له الخيار حين نقله أبوه من مدرسة تعليم القرآن وهو صغير الى المدرسة الفرنسية . فانه عندما أصبح كبيرا وجد نفسه عاجزا تماما عن ايجاد لغة عربية مناسبة للابداع . فاختار اللغة العامية الجزائرية فى مسرحياته الأخيرة . ولا شك أن موضوع اللغة معقد تماما للكاتب ، كما كتب عنه كامل زهيرى – مجلة الهلال – اكتوبر ١٩٦٥ – « ان اسلوب كاتب ياسين الفرنسى متميز حتى بين الكتاب الفرنسيين ، وهذا ما جعله يصيب شهرة بين القراء وتأثيرا عليهم » .

أما اللغة الجزائرية ، التى يقصدها الكاتب . فهى مزيج غريب بين الفصحى والجزائرية والفرنسية والبربرية . وقد بدا هذا على سبيل المثال فى عنوان مسرحيته « محمد خذ فاليزتك » Mohammed, Prend Ton Valise فمن المعروف أن « فاليزتك » هى اضافة « ك » الملكية الى كلمة Valise الفرنسية التى تعنى حقيبة . وقد حلت الـ « ك » هنا بدلا من الملكية الفرنسية .

جاءت أهمية أن نلقى بعض الضوء على السيرة الذاتية لحياة كاتب ياسين من أنها مرتبطة بابداعه . خاصة روايته « نجمة » .

فلا شك أن حبه لابنة عمه نجمة قد تأصل وجدانيا فى أعماقه ، وجعله يتفرغ تسع سنوات كاملة لكتابتها . كأنه يجتر الحروف ، يسترجعها . ويستعيدها فخرجت الرواية من قطرات دمه . ووجد أنه : رافقتنى نجمة فى جميع أسفارى . فى الدول الأوروبية التى زرتها ، كنت فى أواخر

---

(١) لم أنته بعد من تكوين الجزائر ، حوار جهاد فاضل . اليوم السابع ، ١٢ ابريل ١٩٨٧ .

الأربعينات عاملا مهاجرا فى باريس · وكنت فى نفس الوقت مناضلا فى الثورة الجـزائرية ، عبر رواية « نجمـة » كنت أعمل لأعيش · وكنت أكتب نجمة لاحيا انتفاضة ثوار وطنى » ·

« لم تكن كتابة « نجمة » Nedjma سهلة أبدا ، أرقتنى طويلا قبل أن تصبح أثرا ناجزا · كنت أمام اختيـــار صعب · كيف أضـع الجزائر فى كتاب · الجـزائر القوية والحية · الثورة الحالمة · الجزائر التى كان الآخرون لا يعرفون عنها شيئا سوى الاسـتقلال وسفك دماء شبابها · كان على أن أقنع الفرنسيين · بأن الجزائر ، جزائر نجمة ، ليست كما يتوهمون » (١) ·

ونجمة هى فتاة جزائرية · يدور من حولها أربعة شباب يحبونها ، ومنهم كاتب ياسين · يحاول كل منهم أن يحبها بأسلوبه الخاص · وقد اتبع الكاتب ، مثلما كتب كامل زهيـرى · ايقاعين : ايقـــاع الجمـــل القصيرة · وصف بهـا المدن والشوارع والجدران ، والحياة · وجعل هذه الجمل القصيرة محكمة أشد الأحكام لاذعة الملاحظة خارقة الذكاء ·

« وايقاع الجمل الطويلة ، يصف بها الشخصيات ، حتى انك تجد الجملة عنده تتخللها جمل اعتراضية كثيرة يكاد طولها يبتلع صفحة كاملة من الكتــاب » ·

« واقدر ما فى هذه الجمـل تلك الأوصـاف أو التشـبيهات دون تصـــنع » (٢) ·

« ويرى كامل زهيرى فى نهاية مقاله عن « نجمة » : « فاذا قرأت « نجمة » كاتب ياسين · فلسوف تأخذك هذه الشـاعرية المتدفقة العنيفة التى تتدفق فى أوصالها وعروقها لأن قصة نجمة ليست قصة على ورق ، ولكنها قصة حية ، هى قصة الجزائر والجزائريين والشخصية الجزائرية · وقد تأخـذك هذه الواقعية السليطة اللســـان التى تجـــرح وتدمى كـل مظاهر الحياة تحت الاحتلال · فهى حالة من انفصاض الجـزائريين عن الفرنسيين · لا يحبونهم ولا يقبلونهم ويرفضونهم رفضا باتا · ولكنهـم اذ يذعنون لهم أحيانا ، فهم يكشفون بعد ذلك عن عواطفهم الحقيقية بهذا الصدام الجسدى العنيف ، وهذه السرقات · وهذا القرار المســتمر · وهذه

---

(١) نجمة « تجربة لا أستطيع تكرارها » · مجلة الوطن العربى ـ العدد ٣٥٤ ·

(٢) قراءات فى الأدب الجزائرى ـ كامل زهيرى ـ مجلة الهلال ـ أكتوبر ١٩٦٥ ـ ص ٤٢ ·

السجون التى لا تفرغ من استقبال وتوديع ضـــيوفها حتى من تلاميذ المدارس وعمال المصانع وشغيلة المدن » (١) ٠

وقد طلت نجمة من جديد فى أعماله المسرحية الأخرى مثل ثلاثيته التى تتكون من « الاسلاف يتميزون غيظا » و « مسحوق الذكاء » و « حلقة الثأر » ، هناك مجموعة من الرجال حول نجمة أيضا ٠ منهـــم الأخضر ومصطفى وحسن وزوج أمه ظهار ٠ ونجمة حزينة تنشد حبها الضائع وهى تبكى ٠ لقد اختفى حبيبها الأخضر ٠ أما ظهار فهو عجوز يقف الى جانب الفرنسيين ويستنكر موقف الأخضر ضدهم ٠ وهناك أم الأخضر التى تنتظر عودة ابنها ٠ فتجف يوما وراء يوم ، حتى تصبح عـودا يابسا لا حياة فيه ٠ تردد نجمة فى أسى : «كل نداءاتى لا أسمع لها جوابا سوى وقع اقدام الجنود الثقيلة ولا أرى حولى سوى الجثث والدماء » ٠ وعندما تعثر عليه بعد احدى الغارات الفرنسية على الفدائيين لا تلبث أن تفقده مرة أخرى ٠

وتنضم نجمة الى جيش التحرير مع زميلاتها المجاهدات ، ويأخـذ الحب مجراه فى وسط المعركة ٠ وان كان هنا قد غير شـكله ٠ ووسـط المعركة يتطاحن رجلان من أجل الفوز بقلب نجمة ٠ وينتهى الأمر بأن يقتل احدهما الآخر ٠ وتموت نجمة ٠

ومادمنا بصدد الحديث أيضا عن لغـة الكاتب ٠ فاننا نورد مرة أخرى من أحاديث الكاتب عن لغته - فمن المعـروف ـ كما سـبقت الاشارة ـ ان كاتب ياسين قد حاول فى أواخر حياته ـ مات عام ١٩٨٩ ـ أن يكتب باللغة العربية ٠ وتعثر كثيرا فى التعامل مع الفصحى خاصة فى مسرحياته : « أرغب بتصحيح فكرة عنى حـول اللغـة العـربية وهى تتعلق بكونى افضل مدافع عنها ، أرغب بخدمتها ، لا بقتلها » ٠

ويتحدث الكاتب فى جريدة لوموند أن مسرحية « محمد خذ فاليزتك » قد حققت نجـاحا كبيرا عند عرضـها فى فرنسـا حيث شـاهدها ٧٠ ألفا من المهاجرين ٠ « كتبت المشهد الأول باللغـة الفرنسية ٠ أمـا الباقى فقد كتبته بلغة العامة ٠ ثمانية عشر شهرا من العمل ليل نهـار ٠ ثم عرضت المسرحية فى الجزائر طوال خمس سنوات تحت رعاية وزير العمل ٠ وجدت نفسى مع تسعة ممثلين فى مسرحيتى ٠ وابتعـدنا الى مسافة ٥٥٠ كم من مدينة الجـزائر ٠ الى مدينة سيدى بن عباس لم تكن معنا سيارة ، وفشل مشروعنا ٠ كان الصمت يرين حـولنا ٠ فهذه مدن لم تعرف التلفاز ٠ ولم يكن من السهـل علينا ان نستمر » ٠

---

(١) المرجع السابق ٠

« عندما تصنع مسرحا ، خاصة باللهجة العامية ، فيجب أن تضع أصابعك في المكان الأصح ، هناك هجوم يشن عليك بادعاء أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) كان نبيا فقط ولم يكن عاملا ، لقد منعنا الاخوان المسلمون من التمثيل في الجزائر وهددونا ، ومنعونا من التمثيل في عام ١٩٧٧ ، ولم نستطع التمثيل ،

« عندما تمنع قوى التقدم من التعبير والعمل ، فان المتعصبين يشغلون هذا الفراغ ويحتلون المكان ، انه خطر يتولد من هؤلاء الذين يمنعون الناس من ممارسة عملهم ، فأولى خطوات للاخوان المسلمين بالمسلمين جاءت من البنات ، من طالبات المدينة الجامعية في « بن اكنز » ، فلم تكن مصادفة أن تفاضل البنات نحو الأفضل » (١) .

وقد شهدت السنوات الأخيرة من حياة الكاتب تغيرا ملحوظا ، ففيما قبل كان يرى أن عليه أن يكتب الى المهاجرين الذين يعيشون في فرنسا ، أو أن يكتب الى الفرنسيين أنفسهم ، ولكن في السنوات الأخيرة بدا يفكر في الكتابة الابداعية للجزائريين باللغة الفرنسية « هناك بعض الأمل أن انشر أعمالى في الجزائر لأننى اذا كتبت كتابا فلكي المس نقطة ساخنة ، محددة ، كي أضع النقاط فوق الحروف ، فاذا نشرته في فرنسا ، فهو فشل بالنسبة لي وللجزائر ، يجب أن ننظر الى الجزائر اليوم ، فهناك حالة من تفجر المواهب خاصة في الشعر » (٢) .

واذا كنا قد القينا بعض الضوء على ياسين كرواتي ومسرحي ، فاننا قبل أن نختتم الحديث عنه يهمنا أن نقدم بعضا من شعره الذي كتبه في مطلع حياته ، ففي عام ١٩٨٧ نشرت دار سندباد كتابا أعدته الباحثة جاكلين أرنو تحت عنوان « العمل مجزأ » تضمن مجموعة من أشعاره نقتطف منها قصيدته المشهورة « صباح الخير » :

صباح الخير يا جيناتي
وانت يا بأسي أيضا
هانذا في الحفرة
التي ولد فيها شقائي
لك يا تحسي العتيق
احمل الآن بعض قلب
صباح الخير ، صباح الخير للجميع

---

(١) Kateb Yacine et ses reculese, le monde, 11-8-1985, p. 12.

(٢) المصدر السابق .

صباح الخير يا أصـــدقائي القــدامى
هاأنذا أعود بقلبي
واجد نفسي وحيداً
اعرف انه في هذا المساء
سوف نصعد جميعا لنغني بحماس

مولــود معمــــرى :

يعتبر مولود معمرى أبرز ابنــاء الجيل الأول للحــركة الأدبيــة الجزائرية التى كتبت باللغة الفرنسية · ومن أبناء هذه المرحلة كما سبق الاشارة هنــاك محمد ديب ومولود فرعون ويتسمون بانهم قد انتمــوا الى المدرسة الواقعية التى تهتم بالقاء الأضواء على مشــاكل المجتمع الحقيقية التى يعانى منهــا البسطاء كالتعليم والفقر والطموح والتطلع الى الأثرياء وكيف يعيشون · ويقول فاروق يوسف اسكندر انه فى « كــل أعمال هذه المدرسة الأدبية نلمس رقة الرواية الشاعرية الممتزجة بالعنف · والوعى القومى العميق بتقديس نضال الشعوب ··· والتنديد بالحروب من الزاوية الانسانية · لقد اضافت هذه المدرسة وخاصة أعمــال مولود معمرى الأدبية التى تقارب فى غنائيتها النثرية وصفاتها ونقائهــا الى الأدب الفرنسى المعــاصر نغمة جديدة ورعشة أدبية جزائرية جــديدة · لقد أغنى أدباء الجــزائر ــ مثل اخوانهم من الروائيين الذين يكتبـــون بالانجليزية ــ عن طريق ايقاع لغتهم وموسيقاهم الخاصة ، تلك اللغــة الجديدة التى توسلوا بها للتعبير عن ذواتهم وعن بيئتهم الجزائرية التى انطلقوا منها » (١) ·

ومولود ولد فى قرية تعوريت ميمون التى تنتمى الى ما يســمى بالقبيلة الكبرى فى الثامن والعشرين من ديسمبر ١٩١٧ وذلك فى أسرة غنية · فتلقى تعليمه فى مدرسة القــرية · عنــدما بلغ الحــادية عشرة سافر الى مدينة الرباط عند عمه · ودخل مدرسة الليسيه جورو · ثم عاد الى الجزائر بعد أربع سنوات واستكمل دراسته · ثم سافر الى باريس كى يكمل دراسته من جديد فى مدرسة لوى لوجران · وفى عام ١٩٤٠ التحق بكلية الآداب بالجزائر · ثم شــارك فى الفرقة الأجنبيــة التى كانت تضم ايطاليين وفرنســيين وألمانا ووجــد نفســه مســاقا الى الجبهة فى أثنــاء الحرب العالمية الثانية · وبعد الحرب عمل مدرســا للأدب فى الجزائر · وفى بعض المدن القريبة من العاصمة · ثم سافر

---

(١) مولود معمرى وصراع الجيلين · فاروق يوسف اسكندر ، مجلة الفكر المعاصر · يناير ١٩٦٨ ، ص ٨٦ ·

للاقامة فى المغرب حتى عام ١٩٥٧ · وعاد اليها مرة أخرى ليعمل مدرسا فى جامعة الجزائر · ثم مديرا لمركز الأبحاث الانثروبولوجية حتى عام ١٩٨٠ ·

نشر مولود روايته الأولى « التل المنسى » la colline oubliée عام ١٩٥٢ · ثم جاءت روايته الثانية « نوم الرجل العادل » le sommeil du juste عام ١٩٥٥ · وبعد عشر سنوات جاءت روايته الثالثة « الأفيون والعصا » l'opium et le baton وفى عام ١٩٧٣ نشر كتابا تحت عنوان « موظف البنك » Le banquier يتضمن مجموعة من المسرحيات والمقالات · كما نشر كتابا عن قواعد اللغة البربرية عام ١٩٧٦ · وفى السبعينات شهد نشاطا متعلقا بالثقافة البربرية – كما يسميها – مثل كتاب « ماشاهو » Machaho الذى يتضمن مجموعة من القصص البربرية · كما نشر ديوان شعر يحمل اسم « اشعار قبيلة » عام ١٩٨٠ ، ولم يعد مولود معمرى الى الرواية سوى فى عام ١٩٨٢ من خلال « العابرة » ·

وجميع كتابات مولود معمرى منشورة باللغة الفرنسية · ومطبوعة فى فرنسا · وتدور أغلب حوادث رواياته فى القرى والريف بالجزائر · مثل روايته الأولى « التل المنسى » التى تدور أحداثها فى احدى قبائل البربر · وفى هذه القرية عاش قبل سنوات الحرب العالمية الثانية مجموعة من الجزائريين البربر فى عزلة عن العالم من حولهم · لا يكادون يعرفون شيئا عما يحدث فى العالم · وهذا النوع من الحياة يجعل ابناءه يمشون على وتيرة واحدة · وايقاعهم غالبا ما يكون ساكنا · ولا جديد فيه · لذا ، فان البطالة تنتشر والناس يتسمون بخمول ملحوظ ·

وعنما تندلع الحرب ، تنكسر العزلة ، ويجد أبناء القبيلة – مثلما سيحدث بعد ذلك فى رواية لرشيد ميمونى – ان عليهم أن يغيروا من ايقاعهم ، فالمآسى لا تجىء فرادى ، حيث ان الحرب تأتى حاملة معها الكوارث · ونحن نرى هنا جيلين مختلفين يعيشان فى القرية · الجيل الأول عتيق · وتقليدى فى أفكاره · اعتاد على العزلة · وهو راض بما قسمته لهم السماء · لذا فهو مؤمن أشد الايمان بالقضاء والقدر · أما الجيل الجديد فهو الذى ظهر مع الحرب · وكسر العزلة · وهذا الجيل احتك بالوافدين مع الحرب · ويعرف أن هناك نوعا آخر من الحياة · لذا يتولد لديه التمرد · ولكل من ابناء هذا الجيل أفكاره وتطلعاته · فالمعلم « مدور » الذى تخرج من مدرسة المعلمين يتطلع نحو مستقبل آخر · ويواجه الأفكار التقليدية لمجتمعه ويحاول أن يتمرد عليها · وهناك حوار بين شخصين فى الرواية حين يسأل أحدهما الآخر :

ـ هل أنت في السجن ؟

فيرد الآخر : أنا في الجزائر .. فكلا الحالين سواء !!

ويقول فاروق يوسف اسكندر : « ان قرية تاسكا التى تجرى فيها حوادث الرواية فى جبال البربر ـ حجرة صغيرة ضمن السجن الكبير تبدو فيها الحقيقة الاستعمارية فى شكلها السافر ووضعها الأليم ، كما تبدو الحقيقة الانسانية فى حالات الكآبة والقلق النفسى والنضال : المال والخضوع لوطأة العادات القبلية والتقاليد . فالقرية مع صغر حجمها الجغرافى وبعدها عن حياة المدينة تعج بالحيوية والمفاجآت ، وتتناحر الشخصيات . وفى طريقة مؤثرة تحمل القارىء على الاستجابة العاطفية السريعة بالمشاركة الوجدانية مع الحوادث . والصداقة العميقة مع أبطال الرواية » .

ولا أحد يعرف أيهما افضل . هل العزلة حيث يكون السكون والوتيرة الواحدة . الصفاء الدائم أم الحرب وما تأتى به من عذاب ودمار . ففى الحرب تعانى القرية من صنوف الحرمان أضعاف ما كانت تعانيه قبل زمن كسر العزلة . ففى الحرب زادت المجاعات . ويمكن لشخص يحمل بعض الطعام الى أسرته أن يفاجأ بشخص آخر يرفع عليه بندقيته ويستأذنه أن يقتسم معه بعض الطعام الذى معه » .

« فالموضوع الجوهرى فى كل هذه الأعمال هو المواجهة بين المجتمع التقليدى والنظام الاستعمارى . وتتجسد هذه المواجهة فى قصة بضعة مصائر فردية بطبيعة الحال . فى التفاصيل كل التنوع الذى يعزى الى اختلاف طبائع الكتاب وحساسيتهم . أو يعزى الى اللبس والغموض الذى يقوم فى الحياة نفسها ولكننا لا نستطيع القول ان اساس التخطيط الأدبى للقصة ، عند هؤلاء الكتاب جميعا ، أساس واحد . ويمكن أن نرجعه الى تسلسل زمنى » (١) .

وتجىء أهمية روايات مولود معمرى من انها روايات سياسية فى المقام الأول . ليس فقط لأنها تقف ضد الاستعمار . بل لأنها تهاجم الأفكار الغربية التى يعتقدها ابناء القرية فى روايته « التل المنسى » ازاء الكارثة التى اصابتهم فهم يتصورون أن هذا البلاء ما هو الا غضب من أولياء الله . وبدلا من الخروج من المأساة زادت نسبة التقاليد البالية . ولم يعد احد يسير على هدى الله الحقيقى . فزاد ضلالهم . ويقول فاروق يوسف اسكندر انشباب هذهالرواية «يسخر من الشيخ ومن التقاليد

---

(١) المصدر السابق .

وعالم الغيبيات والقضاء والقدر • ولكن أحدا منهم لا يقدم حلا لمشكلات قومه • انهم يعلنون السخط والثورة تملأ قلوبهم ولكنهم لا يقدمون حلولا « جيل ضائع » وهوة عميقة تفصل بين الجيلين : القديم والجديد •• ولوحات أجيــد صنعها تجمع بين روعة الفن التصــويري والوثيقــة الاجتماعية •• والوصف البــارع للتنديد بالحــروب من الناحية الانسانية في أسلوب يمتزج بالعنف والشــاعرية (١) •

وفي رواية « الأفيون والعصا » تدور الأحداث أثناء حرب الاستقلال من خلال احدى القرى البربرية التي شهدت بعض وقائع هذه الحرب • ونمو الوعي لدى طبيب كان من المصابين باللامبالاة • فالدكتــور بشــير الأزرق يترك حياة الترف في الجــزائر العاصــمة متوجها نحو الجبل حيث توجد قرية « تاله » مسقط رأسه التي تعيش في حالة حرب • انهــا دائما نفس القرية التي تحاصرها الجبــال ولكن هذه القرية غير سلبيـــة • فهي تشترك في حرب التحرير لدرجة أنها تبدأ تمــاما في هذه الحرب •

« مشاعر نفسية مضطربة مؤلمة كانت الحرب تثقل بوطأتهــا على الأشياء فتجعلها أكثر اختصارا وأكثر كآبة • حتى اذا انتهت الحرب • وعاد من الشبان من كتبت لهم السلامة • راحــوا يحملــون سخطهم وقلقهم على مستقبلهم • فعــادوا الى الهجرة الى أوروبا بحثا عن لقمة العيش • ففرغت الأسواق من صخبهم القوى العنيف ، ولم يعودوا يتربصون للفتيات حينما كن يرحن ويجئن في الماضي يفــرغن جرارهن في أوعيــة مثقــوبة ولما حرمت العين والدروب من ضحكات الفتيات وعبثهن أضحت كئيبــة هادئة كمحاكاة الشــيوخ » (٢) •

والجدير بالذكر أن معمري كان مهتما كثيرا ، كباحث ، بدراسة ظاهرة الأدب المكتوب باللغة الفرنســية • وهو يرى أن هذا الأدب قــد أسهم اسهاما عظيما في قضية التحــرر الأفريقي ؛ وله وجهة نظر غريبة في هذا المضمار حين قال ان اللغة المستخدمة في ذلك الأدب كانت لغة المستعمرين « حتى يمكن منازلة النظام الاستعماري في ميدانه ؛ وان كانت قد وجدت ، مع ذلك بضع صحف باللغة العربية تتجه الى عدد محدود نسبيا من القراء • ولكن الجمهور الذي كانت تصــلة هذه الصحف ؛ في الواقع ؛ كان جمهورا أكبر بكثير من جمهور القراء ؛ بل كان يمتد حقيقة الى الشعب المغربي كله • فقد كان أولئك الذين يعــرفون القــراءة

---

(١) مولود معمري وصراع الجيلين • فاروق يوسف اسكندر • الفكر المعاصر ـ العدد ٣٥ ـ ص ٨٨ •

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٧ •

يشرحون الأمور لمن لا يعرفون وعلى أسلوب الارتشاح الغذائى · ان صحت هذه العبارة · كان الناس جميعا ينتهون الى المشاركة فى تلقى الأخبار · بل فى تلقى المذاهب الفكرية والسياسية » (١) ·

وقد تعامل معمرى مع الأدب على أنه موجه أساسا الى جمهور مختلف عن الجمهور الذى يعبر عنه وموجه اليه · وكأن الأدب بمثابة سلاح دعائى لمناهضة الاستعمار · أو منشـور كى يعرض على أبنـــاء الوطن الاستعمارى ما يرتكبه الأبناء من بشـائع فى المستعمرات ·

ويرى مولود معمرى فى مقاله عن الأدب الأفريقى باللغة الفرنسية ان أعمال المبدعين من الجيل الأول فى الجزائر قد تركزت أساسا حول حـركات التحـرر ·

محمـــد ديب :

لا يكاد يمر عام ، الا ويفـوز أحد الأدباء العـرب الذين يكتبـــون بالفرنسية بجائزة ادبية كبرى فى فرنسا · ومنذ عام ١٩٨٦ وحتى الآن القيت الأضواء حول ادباء عرب ينتمون الى جيلين فازوا بجـائزة الأكاديمية الفرنسية للناطقين باللغة الفرنسية ، أو الى ادبـاء شـباب تجـأوزوا الأربعين بسنوات قليلة مثل الطاهر بن جلون وأمين معلوف ·

أما جائزة الاكاديمية فهى بمثابة تقدير لأدبـاء من طـراز كاتب ياسين ، وألبير قصيرى ، ومحمد ديب الذى كان آخر الفائزين بها عـام ١٩٩٤ ، وهى جائزة عالية ، تبلغ قيمتها نصف القيمة التى تمنح للفائز بجائزة نوبل ·

ومحمد ديب المولود فى ٢١ يوليو عام ١٩٢٠ فى مدينة تلمسـان ، هو روائى ، وشاعر ، وكاتب مقال ، وله مسرحية واحدة ، ومجموعة من كتب الأطفال · وقد درس ديب فى مدينته ، وقرض الشـــعر وهـــو فى الرابعة عشرة من عمره · ورغم أن اباه كان موسيقيا بارعا ، فان الصغير لم يتلق منه أى تعليم ، حيث توفى الأب فى سـن مبكرة · وتولت أمـه مسئولية ابنائها الأربعة · وهذه الأم سـتكون الشـــخصية الرئيسية فى ثلاثيته الشهيرة التى بدأ نشرها فى عام ١٩٥٢ ·

---

(١) الادب الافريقى باللغة الفرنسية مولود معمرى ــ الأدب الافريقى الاسوعى ــ مارس ١٩٦٨ ، ص ٧١ ·

وقد حمل ديب المسئولية الاسرية وهو صغير السن · فمارس العديد من المهن ، كعامل نسيج ، ومدرس ، ثم عمل صحفيا بجريدة « الجزائر جمهورية» · بين عامى ١٩٤٩ و١٩٥١ ، ومارس العمل النقابى ، وفى عام ١٩٤٦ بدأ ينشر قصائده ، ومقالاته · وقد اثرت مهنتـه كعامل نسيج · فى ابداعه الشعرى والروائى ، فهو يتعامل مع الكلمة باعتبارها خيطا يمكن غزله مع كلمات اخرى ليصنع جملة ادبية ، أو عملا ابداعيا متميزا ، ولذا فقد راح يعايش شخصيته المتخيلة « عمر » قرابة اربعة عشر عاما . حتى انتهى من تأليف الثلاثية وربما لسنوات طويلة بعد ذلك ·

فى عام ١٩٤٨ ، زار محمد ديب فرنسا لأول مرة من خلال وفد ادباء جزائريين · وبعد ثلاث سنوات تزوج من زوجته الفرنسية · وسافر الى فرنسا عام ١٩٥٢ كى يحضر صدور روايته الأولى « المنزل الكبير » · واقام هناك حتى عام ١٩٥٤ حيث نشر الجزء الثانى تحت عنوان «الحـريق» وفى عام ١٩٥٧ نشر مجموعته القصصية « فى المقهى » · ثم نشر الجزء الثالث والأخير من الثلاثية عام ١٩٥٧ تحت عنوان « النول » · وفى عام ١٩٥٩ تم طرده من الجزائر لمواقفه المناهضة للاحتلال الفرنسى فاختار أن يقيم فى منطقة جبال الألب · وفى نفس السنة نشر اول كتاب للأطفال تحت عنوان « بابا فكران » ، وروايته « صيف أفريقى » ·

وبداية من عقد الستينات ، عرف محمد ديب الرحيل بلا توقف · فسافر أولا الى دول المعسكر الشرقى ثم استقر فى المغرب بضع سنوات، وفى السبعينات اقام بالولايات المتحدة من اجل القاء محاضرات فى جامعة كاليفورنيا · وفى عام ١٩٧٥ سافر الى فنلندا ، ثم عاد ثانية الى الولايات المتحدة ، وعاد من جديد الى فنلندا ·

ومع بداية الستينات أيضا تحـول ديب الى الشعر فنشر ديوانه الأول « الظل الحـارس » ، أما ديوانه التالى فقد نشره عام ١٩٧٥ تحت عنوان « تشكيلات » · ثم جاء ديوانه الثالث « أومنيروس » عام ١٩٧٥ · و « نيران جميلة» عام ١٩٧٩ و « ايتها الحياة » ١٩٨٧ · اما رواياته فكان يكتبها بشكل منتظم ، ولم يتوقف أبدا عن كتابة الجـديد منها · ولم يقف عند نجاح ثلاثيته التى ترجمها الدكتور سامى الدروبى الى اللغة العربية ، ونشرت فى روايات الهـلال عام ١٩٧٠ · ففى عام ١٩٦٢ نشر ديب روايته « من يذكر البحر » ، وبعد سنتين جاءت روايته «الجرى فوق الشاطىء البرى»، وفى عام ١٩٦٨ جاءت « رقصة الملك » ، وبعد عامين آخرين صدرت روايته « الله عند البربر » · ثم نشر « سيد الصيد » عام ١٩٧٣ · و «هابيـل» عام ١٩٧٧ · وفى عام ١٩٨٥ نشر « شرفات اورسول » ·

ومن اشهر المجموعات القصصية لمحمد ديب « الطلسم » عام ١٩٦٦ أما مسرحيته الوحيدة ، « ألف صرخة لامرأة محاربة » فقد نشرت عام ١٩٨٠ ٠

ورغم كل هذا الابداع الغزير فى حياة كاتب لم يتوقف عن الرحيل ، فانه عندما يذكر اسم محمد ديب نتذكر على التو ثلاثيته الشهيرة ، ولا يمكن الوقوف عند هذا العمل الابداعى دون أن نتذكر المصادر التى تأثر بها الكاتب ، فلا شك أننا أمام سيرة أقرب الى تجربة الروائى ، حياته التى عاشتها اسرته ، فهناك الكثير من التشابه بين تجربة الكاتب ، وبين عمر الشخصية الرئيسية فى الرواية ٠

ويقول الكاتب حول تجربة تأليف الجزء الأول من هذه الثلاثية : « رحت أنظر حولى ٠ وبدأت أكتب قصصا درامية منمنمة ٠ وشيئا فشيئا بدأت استجمع كتابى الأول « المنزل الكبير » الذى كتبته على الأقل فى خمس أو ست سنوات قبل نشره فى عام ١٩٥٢ ٠ وقد وضعته جانبا لأن الأدباء الجزائريين الشباب فى تلك الآونة كانوا يرون استحالة نشر الكتب » ٠

وهذا الجزء الأول من الثلاثية مكتوب قبل أن تندلع ثورة الجزائر وتدور أحداثه عام ١٩٣٩ ٠ من خلال أسرة بسيطة ٠ وعمر ابن هذه الأسرة يلتقى بأطفال أشقى منه ٠ أطفال كأنهم الجراد من فرط هزالهم ونحولهم ٠ ملابسهم لا تعدو أن تكون خرقا مجمعة ، أما أقدامهم فتحميها نعال من جلود الشياه مربوطة بحبال من الحلفاء ٠ وربما ركضوا حفاة بغير شىء فى الأقدام أكثر الأحيان ٠ ان أعينهم الكبيرة التى يمتزج فى حدقتها الأشهب والأخضر تحلق بحلقة غريبة فى هذه الأراضى المجدبة التى تركت لهم ٠ أما ما يلوح فيهم من جد وصرامة فقد بدا لعمر شيئا غريبا عجيبا ٠ ألعابهم ليست هى الألعاب المألوفة عند أطفال تلمسان ٠ الحيوانات هى رفاقهم ٠ لا رفاق لهم سواها ٠ وهم مغلقون ، يحسنون الصمت ، ويحتقرون كل ما ليس من الريف » (١) ٠

وهؤلاء الأطفال الذين يمثلهم عمر ، يبدون مبكرين فى نموهم كما يرى محمد ديب ، واحساسهم بالشقاء يلمع فى أعينهم ٠ ولذا فان عمر يشعر بينهم انه طفل صغير ، وهم يسببون له الرعب باندفاعهم العارم الذى يظهر فيهم عند ملاحقة هدف من الأهداف ، مثل قتل الطيور ، أو قيادة القطعان ، أو تحدى الفرنسيين ٠

---

(١) محمد ديب ، الحريق ، ترجمة سامى الدروبى ، روايات الهلال ، نوفمبر ١٩٧٠ ص ٨ ٠

وعمر لديه من المعلومات ما يفوق هؤلاء الرفاق ، فهو يؤكد لهم ان الأرض كروية • وان الشمس ثابتة ، وانهم هم الأطفال ، يدورون حولها مع الأرض • كما انه يتكلم اللغة الفرنسية ، ويجيد العمليات الحسابية • لذا فانه يبدو طفلا غير مألوف أمام الآخرين ، حتى الكبـار •

ورغم تميز عمر ، فانه طفل يتيم ، يعرف معنى الجوع الحقيقى • والدار بالنسبة له دار جوع ، وحاجة الى الطعام ، ولذا فان حجارة هذا البيت افضل لأنها لا تجوع مثل ساكنيها • وهنا يتساءل عمر :

ـ لماذا نحن فقراء ؟ هل صحيح ان هذه قسمتنا وان لا احد يعلم ؟ لكن هنـاك اغنيـاء •

وهو يلتقى هؤلاء الأغنياء ممثلين فى بعض زملائه بالفصـل • ولذا فهو يرفض أن يسرق ، أو يتسول، ووسط هذا الفقر الشديد، والحاجة فان عمر يحس بالاعجاب الشديد بالمناضل حميد سراج ، فهو يريد ان على المستعمر أن ينتهى •ولذا فان عمر يثق به • ولا يتردد أن يبـوح لـه بكافة مكنوناته • كما أن هناك شخصا آخر يثق عمـر فى كلماته ، هـو العجـوز « بن سارى » •

وعندما يكبر عمر فى رواية « الحريق » يكتشف الأسباب التى تدفـع مجتمعة للشعور بالخزى ، وهى الاسـتعمار والأوروبيون • « انه يعـرفه الآن اين تبدأ الأشياء وعلى وجه الدقة ، يعرف الآن اين يقع ذلك الخـط الذى بعده لا يجـوع الانسان ، والذى قبله يشعر بحرقة فى دمه وبشدة لا تفارقه • ذلك الخط انما ترسمه وتغطيه فى آن واحد أمواج المزارع ، وأوراق الشـجر ، ونبضات الينابيع ، وسمط المراعى » •

وتدور وقائع الثلاثية بين صيف عام ١٩٣٩ ، وشهر نوفمبر ١٩٤٢• وهى فترة ساخنة من حياة الشعب الجزائرى ، فهى الفترة التى بدأ فيها حزب الشعب الجـزائرى يمارس انشطته السياسية ، بعد أن تأسس عـام ١٩٣٧ • كما انها فترة الحرب العالمية الثانية التى اوقعت بفرنسا تحت الاحتلال النازى • وتبقى الدار الكبيرة شاهدة على عصره ووصله • انهـا دار عتيقة ، وكبيرة • انها تبدو احيانا اقرب الى سجن كبير • ويطـلق عليها الكاتب اسم « دار سبيطار » أو المستشفى حسب ترجمتها من اللغة البربرية •

« هذه الحياة ، هذه الأرض ، كان لا يعرفهما عمر الا قليلا ، وذلك منذ كشف له عنهما ذلك الرجل الذى يسمى كومندار ، والى هذا الرجـل انصرف ذهن الصبى حين وصـل هـذه المرة ، متسائلا عما حل به ، ولولا ان الغسق قد شمل الأرض لهرع الى حيث يقوم كوخه » •

وأم عمر المسماة « عينى » هى أرملة لنجار · وهى تتولى مسئوليات معقدة لأسرة ، فهى امرأة ، وأم ، وعاملة ، وربة أسرة ، فهى مضطرة الى العمل كى توفر الخبز لأبنائها الأربعة : عيوشة ومريم ، وجيلالى ، وعمر ، وقد مات جيلالى من المرض مثل أبيه ، وبعد عامين من رحيله ، يبدو الحمل ثقيلا عليها ، فرغم الآلام ، فان عليها ان ترعى امها · ولذا ، فان الشيخوخة تبدو على ملامحها قبل الأوان · كما أنها تبدو حازمة ، بل وقاسـية مع ابنائها ·

وتعيش « عينى » وسط جـو اجتماعى مشابه ، فكم من الجـارات ارامل مثلها ، مثل « يمنة » و « زينة » وهناك فتاة على وشك الزواج هى «زهر» ، و «عتيقة» التى تصاب بحالات من الجنون · كما أن هناك العجائز، وبنات العم اللاتى يجئن من وقت لآخر للزيارة ·

ويروى ديب فى الجزء الثانى من الثلاثية كيف وصل رجال المستعمر الى القرية ، ووضـعوا قوانينهم لانتزاع بعض الأراضى من الفلاحين ، وتحويلهم الى أجراء لديهم · ويشتعل فى القرية حريق كان وراءه «كارا على» احد أتباع السلطة ، ويكون هذا الحدث فرصة للاحتجاج من اجـل القبض على العناصر النشطة من الفلاحين « لقد شب حريق ، ولن ينطفىء أبدا · سيظل هذا الحريق يزحف فى عماية · خفيا مستترا · ولن ينقطـع لهيبه الدامى الا بعد أن يغرق البلاد بلألائه » ·

وكان هذا الحادث سببا فى أن يتنبه عمـر أن الجـزائر ارض غنية بثرواتها · ويجد نفسه يسرق لأول مرة من اصحاب الثـروة · وتتغير الحياة بعد أن تفشل الأم فى اجتياز الحدود نحو المغرب ، وذلك بسـبب الحرب · ويتم القبض على الفلاحين المناضلين ·

ويدور الجـزء الثالث من الرواية فى يناير عام ١٩٤٢ · فقد أصاب القرية كساد اقتصادى بسبب الحرب ، مما يدفع بعمر أن يعمل فى ورشة نسيج · انها ورشة ترجع الى القرون الوسطى ، والناس فيها يمارسـون اعمالا قديمة منذ سنوات · وصاحب العمل ماحى بوعنان يحتقر عماله ، وهو يعرف انهم لا يحبونه · ويعيش عمر فى حالة من الملل · ويسمع زميله عباس يردد فى حالة جنون استبدت به : « وجودنا ضيق فى هذا العالم ، بما يثير الصخب من حول الأثرياء · فيرد شخص : هؤلاء الناس ليسوا حشرات · انما الحشرات من صيروهم الى هذه الحـال · وهم يعيشـون على اجسـامنا » ·

وفى « النول » نرى عددا أكبر من الشخصيات الجديدة التى لم يسبق لعمر أن قابل مثلها فى حياته الضيقة فى داره الكبيرة · فهناك سكالى ،

ولامين ، وشول ، وحمرا ، وعكاشة ، وحمروش ولكل منهم حكايته ، وعالمه ويسعون لكسب أرزاقهم .

وتنتهى الرواية نهاية مفتوحة ، كأنما اراد الكاتب أن يقدم جزءاً رابعا لها ، فها هو عمر يشاهد أحد الجنود الفرنسيين فى الظلام ، عندما كان يستحم فى النهر الصغير ، فيحييه ، ويتناول منه قطعة شيكولاته ،كانت نظراته تنتقل من شىء الى شىء آخر ، وكان فى وجهه تعبير عن جديد يوشك أن يكون قاسيا عنيفا » . وبالفعل فقد كان فى ذهن الكاتب أن يفعل ذلك لكنه آثر أن يبدأ ثلاثية جديدة بدأت مع روايته « الله عند البربر » .. واستكملها فى « سيد الصيد » لكنه لم يستطع استكمال هذه الثلاثية ، ففى عام ١٩٧٧ ، كتب رواية جديدة هى « هابيل » حول موضوع الهجرة . فهابيل رجل يجر عربة فى مدينة غربية ، يعيش حالة من التوهان .

وفى هذه المدينة يكتشف بطل الرواية الخبائث ، فقد طرده أخوه من بلاده . وكان عليه أن يبحث لنفسه عن اسم ، وان يفكر فيما فعله قابيل مع أخيه ، وطوال سبعة أيام كان على هابيل أن ينتظر الموت وينتظر سيارة كى تدهسه ، أو شخصا كى يقتله . حتى يتعرف على سابين وهى ابنة كاتب مشهور يلقب باسم « العجوز » ، لكن انتحار الفتاة المفاجىء يثير دهشته ، ويحاول ان ينساها بأن يتعرف على فتاة مخبولة تدعى ليلى . فقرر أن يتبعها الى المصحة العقلية .

والاسم الحقيقى لهابيل فى هذه الرواية هو اسماعيل . ويقول الكاتب جان ديجو فى كتابه عن « الأدب المغاربى » الناطق بالفرنسية » أن محمد ديب قد كتب رواية سياسية وهو يعطى لأسماء ابطاله معنى . فبطله مهاجر مثل بطل رواية « الغريب » لكامى . ولقد هاجر هابيل بسبب أخيه « ذلك الأخ الذى يحكم بلاده . انه اخ حقيقى ما لبث أن اصبح شقيقا روحانيا . انه أشبه بأية حكومة فى اى مكان » .

أما آخر رواية نشرها محمد ديب فتحمل عنوان «شرفات أورسول» وذلك فى عام ١٩٨٥ وهناك تشابه ما بين بطل الرواية عيد وبين هابيل ، فهو محكوم عليه أن يغادر بلاده فى مهمة رسمية الى بلد فى الشمال اطلق عليه اسم أورسول . وعاصمة هذه الدولة هى ياربر . انها بلاد الشمس التى تسطع فى منتصف الليل ، ومن الواضح أن محمد ديب قد حاول أن يكتب رواية عن فنلندا التى عاش فيها سنوات طويلة . ويقوم البطل بارسال تقارير الى حكومته ، ولكن أحدا لا يقرأ تلك التقارير . وكثيرا ما يتجاهل الدبلوماسيون انجازاته . وذات يوم ، وبينما هو يقوم بنزهة عند الشاطىء ، يكتشف حفرة مليئة بمخلوقات خيالية تطلق

صرخات حادة • ولا يعرف ماذا حدث بالضبط له منذ تلك اللحظة ، فهو مدفوع نحو الشمال أكثر فأكثر ، يخترق الجزر ، والليل المليء ببياض الثلوج ، ويتعرف على امرأة تدعى أيل • ولكنه ما يلبث أن يفقدها •
ومع ذلك لا يتوقف عن الرحيل •

ويقول الكاتب جان ديجو أن هذه الرواية الجميلة ، تبدو غريبة ، ومزعجة في أضواء الكاتب المريرة ، وفي أجوائه المعبقة بالموت والجنون، وتعطي الاحساس أن محمد ديب قد وصل الى نقطة من المنفى الأبدى • أكثر من أقرانه من الكتاب المغاربة • ويبدو ذلك في الطريقة التي ينطق بها بطل الرواية لفظ « الجلالة » •• فالكاتب يعطى البلد اسما خياليا يعنى الشمس باللغة الفنلندية • وهناك علاقة خاصة بين الراوية وبين بلاده • انها علاقة روحية تعكس عالم ديب ••

والتشابه واضح بين عيد وبين هابيل ، فكلاهما في حالة هجرة ، والنساء اللاتي تقابل كلا منهما مصيرهن الموت في حوادث غامضة ، فـ « آبل » • •تموت بعد أن تصدمها دراجة بخارية • وتترك حبيبها بعد تعارف قصير في حالة من الحزن ، والتساؤل : لماذا ؟

كان آخر كتاب نشره محمد ديب هو ديوان شعر في عام ١٩٨٧ •• يحمل عنوان « أيتها الحياة » وقد ضمنه مجموعة من قصائده الجديدة وقد توقف الكاتب بعد ذلك عن الكتابة دون سبب واضح •• ومن المهم أن نشير الى أن لغة الكاتب الشعرية قد تغيرت ، فبعد قصائده الطويلة ، فان قصائده الجديدة قصيرة للغاية ، ومن هذه الأمثلة :

وقال البحر

الوجه
لاهث
والتباعد كبير
بين الشاطئين
وآخر الأجنحة
البيضاء

★★★

ويتكلم محمد ديب عن تجربة قصائده المنشورة في ديوان « تكوينات » انه أحس بأن كتابة النثر قد سدت عليه الطريق ، فأصابه الارهاق ولم يحس بأية قوة كي يعاود الكتابة مرة أخرى .. لذا ، كان الشعر هو ملجأه ومرفأه الذى يرسو عنده . وقد جاء هذا الديوان مزيجا بين الشعر المنثور والنثر . وحاول فيه محمد ديب أن يتخلى عن كل قيود الكتابة .

وتنتمى قصيدته « صيف » المنشورة فى ديوانه « الظلال الحارسة » الى هذا النوع من الابداع الذى سعى فيه الكاتب للتخلص من كافة القيود التى تقيده كشاعر . وقد اخترنا هذه القصيدة كنموذج واضح من ابداع محمد ديب الشعرى حيث يقول :

جسده حالم تحت ضياء

الصيف كسفينة آدمية بين رايات الحرب

وهذا الشاب :

ينتهك عطشه الأبدى فى الرغبة

وصمت الموت الذى يتوجه

★★★

أما قصيدته « أوجه الليل » المنشورة فى نفس الديوان ، فهى تنتمى أيضا الى نفس اللون من الشعر الذى يكتبه محمد ديب . وفيها يقول :

(١)

تعود الجموع دائما الى شكلها الأولى

ودائما فى الليل .

وجوه ضامرة

تكشفها أضواء القطارات الطويلة المتقابلة .

هناك دوما السيارات ، ونداءات باعة الصحف

كانها تعيد ضبط العـالم الغريب بالندم

وهكذا ترتطم الجـــدران عند اعتاب الموت ٠

وفنادق الحب تروى مشاعلها

★★★

انشـــد الراحـة

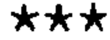
وتفتح المدينة دائما ابوابها كى تقـــودنى

الى الدروب التى يهرب فيها الظل الذى خلقنا منه

اناجى نظرة النجوم الساكنة

واطير فوق الشـارع واضواء النيـون

آه ٠٠ لا شيء يتبعنى ، فالمدينة غير موجودة ٠



(٢)

امشى فى المدينة احفـر المرايا العاكسـة

حيث تتتابع الرصفان ، والمفترقات ، والدروب ،

والعواميد والجدران الملطخة بالاعلانات ، وكانها عارية ،

واشجار سامقة تخـرج من اقفاصها الحـديدية



ضـائع وكاننى فى عالم ليست فيه معاناه

واتطلع للحظة الى اقواس المصابيح

حيث يحلق الضوء الأخضر الغامض فوق الحدائق
ثم يرحل من جديد ·· حتى ينقشع الفجر فنسمع وقع اقدامنا

★★★

فى كل ركن ·· المكان شديد الظلمة ، تملؤه الأضواء المبهرة
والعيون المغلقة ، تتجول امامها دون أن تعرف
انه تحت المدينة النائمة ينبض قلب بهدوء ·

★★★

وتتسال نافورة فى اعماق الميدان المظلم
ايها الليل ، ايها الليل الطيب ، استقبل الظلام المسكين
فالسهران قد غمرته السكرة والدوران ·

هذه القصيدة « أوجه الليل » كتبها الشاعر محمد ديب فى أوائل الستينات ، ثم نشرها فى ديوانه الأول « الظلال الحارسة » عام ١٩٦١ · وهو نفس الديوان الذى أعاد نشره مضافا اليه قصائد جديدة فى عام ١٩٨٤ · وفى هذه القصائد بدا الشاعر على علاقة توحد كامل مع الطبيعة ·· خاصة فصولها ، وأيامها ، ولياليها ، فعناوين قصائده هى عن الربيع، والشتاء ، والليل ، والظلام ، والضياء ، والظلال · ولذا ، فليس من الغريب أن نرى هذه المفردات تتكرر داخل القصيدة الواحدة فى أى من هذه القصائد ، وبذلك فان للشاعر مفرداته اللغوية الخاصة به ، وهو لا يجددها ، بل يكررها · والشاعر موجود فى هذه القصائد يتجول فى الشوارع ، ويرقب أضواء النيون ، ويمشى الى جوار السيارات ، وهو وحيد ، يتحدث الى نفسه يقرض الجديد من الشعر · ويحس بتوحد خاص، رغم شعور الغربة الواضح ، مع كل ما حوله من بشر ، وأشياء · بل ان هذه الأشياء تبدو أكثر التصاقا به فى قصائده من البشر ·

وفى قصيدة « صيف » يمكن أن نلحظ عالم محمد ديب الشعرى · فهى تعد نموذجا واضحا لكافة ابداعاته الشعرية · ان لم نقل ان أغلب هذه القصائد تكاد تكون نسخا كربونية ، أو سلسلة متكررة من نفس المشاعر · الاحساس بالغربة ، والعزلة ، ولعل كثرة ترحال الشاعر ، « وسفرياته » التى لا تنتهى كانت سببا أساسيا لاحساسه بهذا العالم ·

واذا بدأنا بمفردات الشاعر فسوف نرى ان محمد ديب ينظـــر الى المدينة من الخارج باعتباره ضيفا عليها ، رغم انه لم يشر هنا بشكل واضح الى المدينة وأبعادها ، وهويتها ، فان مفرداته هنـا تؤكد على غربتـه . فالآخرون بالنسبة له مجرد « وجوه ضامرة » ، يعـــود أصـــحابها الى اشكالهم البدائية التى كانت عليها فى بداية التاريخ . وهى أيضـا وجوه لا تظهر المرائى الا من خـلال ما تعكسه اضواء القطـارات التى تندفع فى أروقتهـــا .

وما يؤكد من مفردات الشاعر انه غريب عن هذه المدينة حديثه عنها من خلال « فنادق الحب » و « أبواب المدينة » . ثم تلك الأشـياء الموجودة فى كل المدن الأخرى . ولا تميز واحدة منها عن الأخرى مثل الرصفان ، ومفترقات الطرق ، والدروب ، وأعمدة النور ، والجدران التى لطختهـــا الاعلانات والأشـجار السامقة . والحـدائق التى تحلق فوقهـا أضــواء النيـون الخضراء .

هذه الأشياء كلها تساعد الشاعر على زيادة الاحساس بالضياع . لذا فان محمد ديب يكرر اسـتخدام نفس المفردات ، ليس بين القصـــائد وبعضها البعض ، بل ايضا فى داخل نفس القصيدة . مثل كلمة «الليل» ، و «الظل» ، و «الدروب» ، و «الأضواء» ... بل وكلمة المدينة نفسها ، كأنما الشاعر يؤكد انه سجين لها .

والمدينة كما يصفها الشاعر هنا نائمة ينبض قلبها بهدوء شديد . وهى تخلو من حركة الا من قطارات عابرة ، ورجل يمشى وحده بين دروبها يحفر داخل المرايا العاكسة ، فلا يكاد يرى وجهه ، والحركة الأولى فى هذه المدينة هى حركة هذا الشاعر السهران حتى لحظات الفجر . فهـــو الساهر الوحيد بينما « المدينة نائمة » .

ولم يتوقف عند أصحاب الوجوه الضامرة الذين يظهرون فى مثـل هذه الساعات من الليل ، وهو يصفهم فى مكان آخر بانهم مغلقو الأعين . ولكنه ينبهنا الى ان الأشياء من حوله متيقظة ، مفتوحة العيون ، مثـــل المرايا العاكسة . فهى تبدو شاهدة على مروره بين أروقة المدينة ، ومثل القطارات التى تسقط أشعتها على وجوه المارة فتضيئها ، ومثل السيارات . والظل الهارب ، وأضواء النيون . بل ان الأشياء الجامدة تتحرك فى عالم محمد ديب ، فالرصفان ، ومفترقات الطرق والدروب ، وأعمدة الاضاءة بل والجدران الملطخة بالاعلانات ، والأشجار السامقة . كل هذه الأشياء ليست ثابتة مثلما فى أى مكان ، بل هى « تتتابع » وراء بعضها البعض ، فتتحرك بينما المدينة نائمة .

ولعل الصوت البشرى الوحيد الذى يسمعه الشاعر فى هذه القصيدة ، هو صوت نداءات باعة الصحف ، وعلى كل فهو نداء غير حميمى • اشبه بالعيون المغلقة ، والوجوه الضامرة ، يكاد يكون «ديكور» لنفس المدينة ، فكان الليل فى مثل هذه المدن لا تكتمل صفته ، الا اذا كان به باعة صحف • وبالفعل فان الشاعر يرى ان السيارات ، وأيضا نداءات باعة الصحف ، تقوم باعادة ضبط هذا العالم غير المألوف ، وتجعله مصابا بالندم •

والقصيدة هى لحظة معايشة قصيرة ، واذا قارناها برؤى محمد ديب ، فسوف نرى انها مجرد نبض عابر من الذى يحياه أبطال رواياته ، فنحن أمام رجل تائه يعيش لحظة تيه ، أو فلنقل ان حياته كلها هى هذه اللحظة ، هى لحظة من السكرة الخاصة ، والدوران عن المألوف • ورغم اننا لا نستطيع أن نحدد زمن الدراما فى القصيدة ، بين بداية القصيدة ونهايتها ، فان هناك لحظتين مؤكدتين ، الأولى ان هناك ليلا • ثم هناك بعد ذلك انقشاع الفجر ، وبين هاتين اللحظتين قام الشاعر بالتجوال فوق الأرصفة ، ورأى آلاف الأشياء ، ابتداء من الجموع التى تعود الى شكلها البدائى ، والمقصود به هنا هو الموت ، او النوم ، باعتبار ان النوم حالة من الموت ، مرورا بتضاريس الشوارع • الى ان ينقشع الليل ويأتى الفجر •

وليس هناك توحد بين الشاعر ، وبين تلك الأشياء التى يراها ، لذا فانها تجعله يشعر بالمزيد من الغربة ، ولم يحدث اى تآلف بين الشاعر وبين هذه الأشياء • فرغم ان المدينة تبدو حانية للشاعر ، تفتح له ذراعيها ، وابوابها كى تقوده الى دروبها ، فان هذا ليس كافيا كى يتآلف معها ، فالقصيدة تنتهى ، وقد أصاب الدوران الشاعر • ورغم أن سكينة ما قد حلت به حين نبض قلبه بهدوء ، فان ما رآه محمد ديب فى هذه المدينة اشبه بما يراه كل غريب فى أية مدينة بها نفس المعالم ، وفى نفس اللحظات •

والشاعر حبيس المدينة ، ولليلها المظلم ، فجدرانها ترتطم عند اعتاب الموت • وفى دروبها تهرب الظلال • ولذا ، فان التعبير الموجز والصحيح الذى وصفه الكاتب عن نفسه هو انه « ضائع » ولكنه ضياع غريب ، فكأنه فى عالم خال تماما من اية معاناة • لذا فهو يحس بالسكينة :

انه تحت المدينة النائمة ينبض قلب بهدوء •

وفى هذه السكينة يصبح الضــوء أخضر ، تمتلىء الميادين بالأضواء المبهرة ، ثم تنسال نافورة المدينة فى أعمـــاق الميدان المظـلم فتجعــله مضـــيئا ..

والغريب أن الشاعر فى منتصف قصــــيدته قد أعلن أن المدينة التى سار بها ، وتجول بين أروقتها ، غير موجودة ، ولم يكشف عن عـــدم وجودها بالنسبة له ، فهل هى مدينة أحــلام ، أم أن لحظة التجوال كانت لحظة رؤية خاصة له ، أم أن كل ما رآه كان بمثابة حلم يقظة ؟

آه .. لا شىء يتبعنى ، فالمدينــة غير موجودة .

وهكذا ، فان الكاتب يحاول أن يقتل مدينته . أو أن يعتبرها غيــر موجودة طالما انهــا خالية من الحميمية ، رغم أنه لم يشر قط الى رغبتــه الشـــديدة فى أن يتواصل مع آخرين . وفى المقطع الثانى من القصيدة ، فان الشاعر يضع الموت فى مقابل الحب .



رشـيد بوجـدرة :

جاء شـكل الأدب العـربى المكتوب بالفرنسية عند رشـيد بوجـدرة جديدا • فالكاتب الذى نشر روايتـه الأولى « الطـلاق » la réjudiation باللغة الفرنسية عام ١٩٦٩ كان عليه أن يتعامل مع اللغتين بنفس القدر • فهو اذا كتب رواية باحدى اللغتين • كان عليه أن يترجمها بنفسه وبلغته الابداعية الى اللغـة الثانية • حدث ذلك فى كل أعماله ، تقريبا ، ابتداء من روايته الأولى « الطلاق » وحتى آخـر أعماله • وهو فى كل تجـربة منها عليه أن يختار العنوان الذى يناسبه • والتعبيرات اللغـوية الأقرب الى قارئه سـواء العـربى أم الفـرنسى ، فروايته « معـركة الزقاق » تمت ترجمتها الى الفرنسية تحت عنـوان « فتح جبل طارق » • وهناك روايات ترجمها آخرون مثل « الارث » • التى ترجمت بواسطة انطوان موسالى الى اللغة الفرنسية عام ١٩٨٦ •

وبوجدرة روائى فى المقام الأول • فهو معروف كمبدع فى مجـال الرواية ، وحول تعليمه اللغة العربية تحدث الى خميس خياطى • قائلا : « البلد الوحيد الذى استعمرته فرنسا ومنعت فيه تعليم لغته الأم هو الجزائر • كانت اللغة العربية ممنوعة وكان ذلك سببا فى مجيئى الى تونس (معهد الصادقية) ، كان قانون « بيلا وان » يمنع تعليم وتدريس اللغة العربية فى الجزائر ماعدا اللغة المحلية • كان « بيلا وان » يعتبر ان اللغة العربية لغة ميتة واللغة المحكية تفتقد الى القوانين • فنجـد الجزائرى يتعلم فى المدرسة اللغة التى يتكلمها فى المنزل والشـارع •• وهذا الشىء هو السبب فى شروعى فى الكتابة باللغة الفـرنسية • وبعـد ذلك عدت الى لغتى العـربية » •

« لقد كتبت باللغة الفرنسية للضرورة • لم يكن من الممـكن نشر كتاب « الطلاق » فى اية دولة عربية • مسـالة الهـوية واللغـة والذاتية هى من المسائل الأساسية بالنسبة للروائى المغـربى • لقد قتل الفرنسيون فينا الذاتية والهوية والعشق والحب والجسد • فالادب العـربى لم يهتم الا بالجسد • الذاتية تؤدى الى الهوية التى هى بالتـالى تطـل على اللغة • فاللغة هى الأساس للذاتية والذاكرة •• افصاحى عن هويتى العربية ورجوعى الى اللغة كان من الضرورى • اما أن أعود الى اللغة العربية أو اصمت أو انتحر • اما ان أنتقل الى العربية وأتابع الكتـابة فيها أو أكف عن الكتابة وأنتحر • كاتب ياسين انتحر بشرب الخمور وكذلك مالك حداد • ليس من الصحيح أن كاتب ياسين يكتب باللغـة المحلية ، فهو لا يعرفها ، كاتب ياسين انسـان رجعى •• ر•ج•ع•ى• رجعى وغير حديث • مواقفه غير محدثة • لماذا ؟ لأن اللغـة العربيـة

اليوم هى الحداثة سواء بالنسبة للغة المحكية أو اللغة البربرية · ما هى اللغة البربرية ؟ أنا بربرى شاوى · خمسون فى المائة من لغتى البربرية هى من اللغة العربيـــة · اين هو الابداع فى اللغة البربرية ؟ · الأدب الشفوى اقل قيمة من الأدب المكتوب » (١) ·

وقد آثرنا أن نستعين بهذه الفقرة الطويلة من حديث بوجدرة كى نرى كيفية تغير المفاهيم الخـــاصة باللغة فى الجيل الذى ينتمى اليـه بوجدرة وهو الذى ظهر مع نهاية الستينات ولمع فى سنوات السبعينات · فالكاتب هنا مزدوج اللغة الابداعية · وهو يكرس اللغة التى يريدها حسب الظروف التى تحكمه ، أو حسب الجمهور الذى يوجه اليه كتابته ·

وحتى فى لغته العربية ، فان الكاتب يستخدم الفقرات الطويلة على طريقة وليام فوكنر وكلود سيمون · وفى روايته « الارث » على سـبيل المثال نرى علاقة حب تربط بين رجل مسلم وفتاة يهـــودية · وهنـــاك وسط هذه العلاقة عودة دائمة الى الوراء · فالراوية هنا يعود الى ماضيه بلا توقف · انه يروى قصة هذا الماضى وهو مقيم فى نفس المكان الذى عاش فيه سنوات المراهقة · وهو يسترجع بطاقات البريد · والصور القديمة · ويتصفح مجلات قديمة · ويكتب بلا توقف قصـص أفراد أسرته · عن أبيه الذى مات فى حجرة مجاورة · وعن سـفره الى اماكن بعيدة · لقد أرسل الى أسرته الكثير من البطاقات البريدية من كل بلد زاره · ها هى هذه البطاقات تصلح خامة جيدة لروايته الغارقة فى الماضى · ففى كل منها مدون تاريخ ارسالها · وعليها بعض العبارات · وها هو ابنه يسأله عن بعض التفصيلات · كما أن المرأة التى يحبها لا تكف عن ملاحقته · انها مثله مشغوفة بماضى حبيبها · وهو يحكى لها دوما عن هذا الماضى · ويبدو الأمر الآن وكأن كل شىء قد أصبح ارثا ·

اما روايتـــه « الف وعـــام من الحنـــين les 1001 années de la nostalgie التى نشرت بالفرنسية عام ١٩٧٩ ، فهى رواية موغلة فى القدم · باللغة الضخامة · ومزخرفة بالشخصيات والأحداث · لقد أراد الكاتب أن يصنع ملحمته العـربية المعـاصرة · فمن الواضح أن بوجدرة قد توغل الى الأعماق فى عالم « ألف ليلة وليلة » · وراح الحنين يدفعـه أن يتوغل فى عالم الاسلام وتاريخ المسلمين لأكثر من الف عـام مليئة كلها بالحنين ·

---

(١) الروائى العربى مهووس بالسياسة · حوار خميس خياطى · اليوم السـابع ٩ نوفمبر ١٩٨٧ ، ص ٣٦ ·

وتدور الأحداث فى قرية معاصرة تسمى المنامة · تقع فى أطراف الصحراء · ولكن بعض الأحداث التى تعيشها فيها قد دارت يوما ما فى الماضى · ويقول الكاتب انه فى هذه المدينة الخيالية عاش ذات يوم العلامة ابن خلدون · ثم هنـاك رجل اسمه الكاتب محمد بلا اسم · يعيش فى وحدته وحنينه للماضى · وهذا الرجل يعيش فى أسرة لديهـا اكثـر من ثمانية عشر زوجا من الأطفال التوءم ، وهو الآن اكبر ابنـاء هذه الأسرة · وهو الوحيد الذى ليس له توءم ·

لقد رزقت الأسرة ثمانية عشر من التـوائم ·· لذا ، فان بطـل هذه الرواية يعتبر شخصا معجزة · لأنه ولد فريدا بين اخوته · وهو قادر ان ينتقل بين الماضى والحـاضر ، بسهولة شديدة ·

يقول لنا فوجان فروستى ان « كتاب بوجدرة يعلمنا ، اذا كنـا نجهل ، ان الرق ، الذى حرمه الاسلام ، كان موجودا فى العصر الذى كانت فيه « ألف ليلة وليلة » تحدث سحرها · وكان يتم جلب الرقيـق السود من القرن الأفريقى واثيوبيا وزنزبار من أجـل تجفيف البـرك ومن أجل تخزين القمح فى العـالم المسلم الذى كان يصـل حتى الاتحـاد السوفيتى الحـالى · هذه الخصوبة كانت حقيقية · وقد تعلمنـا ان هناك ثورتين مؤثرتين · وبالغتى الأهميـة · هما ثورة السود · والزند التى خلقت دولة حقيقية لمدة خمسة عشر عاما · انها دولة القرامطة التى ولدت على مقربة من العراق · كانت حركة شمولية استمرت طوال قرنين وكانت اقرب الى جمهورية افلاطون · وها هو بوجدرة يؤكد على السمات الرومانسية ، وليست التاريخية لعمله · وهو يؤكد على نماذج منها - ويضع الرسوم التوضيحية » (١) ·

اختار رشيد بوجدرة أن يصنع فى هذه الرواية عالما فنتازيا عربيا ، مليئا بالخيال والسحر · ومليئا بكل ما يمكن أن تمنعــه الســلطات فى البلاد العربية · وخاصة العبارات المكشوفة التى اشتهر بها الكثير من الأدباء المغاربة ، وايضا الناطقون بالفرنســية فى الوطن العربى ، ولكنه بشكل عام لا يصــل الى اية درجة من درجات الاباحية ·

وليس كل أدب رشيد بوجدرة غارقا فى الفنتازيا · فروايته « قاهر الغربة » التى نشرت فى فرنسا عام ١٩٨١ تتحدث عن واقعة تاريخيــة حقيقية دارت فى شهر مايو عام ١٩٥٧ ، حول الغارة الأخيرة التى ارتكبها الفرنسيون ضد رئيس المجلس الجـزائرى · بعد أن تم القبض عليه وحوكم

---

(١) Les mensonges de schéhérazade, le nouvel observateur 9-10-1979.

بتهمة الخيانة · وتم أعدامه من قبل منظمة المقاومة · ويقول بوجدرة ان « كل ادبى هو ذاتيات · انى لا أستعمل الذاتيات كقناع أخفى به شيئا ما ولكن كأرضية كأساس ، لأنه من خلال الذاتية بامكانك خلق الكيان الروائى وبدون ذلك يكون الروائى شيئا متحجرا بدون عروق ودم وشحم · كل الأدب الروائى العربى يفتقد الى هذا العنصر · أما الشعر · وتلك حقيقة تناقشنا فيها مع بعضنا البعض عدة مرات · الشعر العربى هو أفضل شعر فى العالم من ناحية الجودة · فمثلا لا يوجد فى العالم من يتحمل المقارنة بأدونيس على مستوى اللغة والابداع ·· الانسان العربى لا يتكلم عن أشياء حميمة · عن الأشياء الخاصة · الجوانية · فهذا الشكل هو شكل اجتماعى نفسانى مطروح · وهذا المجتمع يرفض الحديث عن أشياء معينة تستسلم الى نوع من الرقابة الذاتية تعتمد على المثل القائل « أعوذ بالله من كلمة انا » ، والكاتب العربى الذى لا يطرح الذاتيات ، عليه الا يكتب روايات ليتوجه الى التاريخ والبحوث والشهادات · الرواية المعاصرة والاكتشافات النفسانية قائمة على الذاتية » (١) ·

وفى أعمال أخرى للكاتب ينتقل بين الواقع المعاصر والتاريخ العربى، ففى روايته « معركة الزقاق » التى ترجمت الى الفرنسية ، تحت عنوان « فتح جبل طارق » ، ينتقل بين كل من الماضى الى الحاضر · الماضى هنا هو زمن فتح الأندلس حين عبر طارق بن زياد البحر · أما الحاضر فنراه من خلال طبيب يدعى ايضا طارق · وهذا الطبيب يحب أباه كثيرا · وهو رجل موغل فى التاريخ · يعشقه ويقرؤه بكل شغف · وبين الحاضر الذى يمثله طارق الذى ينضم الى المقاومة · وبين التاريخ الذى فتح فيه العرب الأندلس يحدث المزج · وهذه الرواية هى « جملة واحدة متقطعة · مستعادة ، تنغرس فى ذكريات الطبيب فتأخذ منه أحلى وقائع شبابه · وينتهى الأمر بسؤال مطروح ليس له جواب : « أين المنقذ ؟ » · أين المنقذ من تقلبات الدهر والذاكرة ؟ أين المنقذ من تقلبات سلطة الأب وليونة الأم ؟ أين المنقذ من القمع اليومى الذى يواجهه ومن خيبته عند اكتشافه لحقيقة « جبل طارق » المعاصرة : بعض البيوت والصبيان والشيوخ واقفين تجاه الريح العتيدة ·· لا أكثر » (٢) ·

---

(١) الروائى العربى مهووس بالسياسة · حوار خميس خياطى · اليوم السابع ٩ نوفمبر ١٩٨٧ ، ص ٣٦ ·

(٢) المرجع السابق ·

آســـيا جبـــار :

تنتمى الكاتبة الجزائرية آسيا جبار الى مرحلة وسط بين كاتب ياسين ورشيد بوجدرة · وقد اخترناها لأنها تمثل حالة خاصة وفريدة في مسألة الابداع ليس فقط لأنها امرأة ، كنموذج للمرأة الكاتبة التى تبدع باللغة الفرنسية ، بل ، أيضا لأنها جربت أسلوبا مختلفا · فاذا كان ياسين قد حاول أن يكتب للمسرح بلغــة عاميــة جزائرية بعد ان عجز عن فعــل ذلك باللغة الفصحى · فان آسيا جبار قد جــربت السينما · حيث تختلف لغة التعبير هنا كثيرا ·· فيمكن للفيلم ان يتكلم بلغة الصورة ·

وقد جربت آسيا جبار الكتابة باللغة العربية فى مرحــلة ما من حياتها ، الا أنها عجزت تماما عن التعبير عما يجيش به صدرها · فالابداع غالبا له لغة واحدة · وعاشت الكاتبة فى حيرة · فلا رواياتها قرئت فى الجزائر بنفس الكيفية التى تريدها ·· ولا هى صنعت أفلاما كما تشاء · فعادت مرة أخرى الى الأدب بعد طول انقطاع ·

تقول لالا خفاجة : « اذا عاش المرء فى قلب العملية الحضارية وعلى تخومها · فانه ليس موقفا محايدا بين التلوث واللاتطور · لكنه ممارسة للحالتين معا · حاولت الكاتبة الجــزائرية أن تفعل هــذا · عندما تكون امرأة من العــالم الثالث على رصيف باريس · فان الرصيف لا يعطيها جنسية أخرى · سوف يظل انتماؤها للأيدى الخشنة ، لأناس يريدون أن يصنعوا شـــكلا مختلفا للحياة » (١) ·

وآسيا جبار المولودة فى الجزائر عام ١٩٣٦ هى نموذج لنســاء عديدات تائهــات بين حضارتين · وقــد قيــل انهــا حاربت الفرنســيين بالفرنسية · وذلك حسبما يقول الكاتب المعروف الان بوكيه · ان الكتابات التى وضعها كتاب شمال أفريقيا العرب قد أحدثت الزلزال · مؤكدا أنه كان من المفروض أن تترهل الثقافة الفرنسية من السياسة الفرنسية » (٢) ·

نشرت آسيا روايتها الأولى « العطش » la soif عام ١٩٥٦ · أى وهى فى العشرين من عمرها · وكما يرى مراد بوربون انهــا رواية شباب أكدت أن آسيا تمتلك ناصية الموهبة · والسحر والذكاء · وقد مكنها ذلك من الاسترخاء على مخدع الأدب ، وقد قيــل ان آسيا جبار فى تلك السنوات هى فرانسواز ساجان الجــزائر · تمتلك قلمــا خاصا فى سرد الوقائع الباريسية » (٣) ·

---

(١) الكلمة للمرأة ـ لالا خفاجة ـ مجلة أوراق ـ العدد ٣٠ ، ص ٢٧ ·

(٢) Asia Djabar, jeune afrique, Dec. 1094.

(٣) المصدر الســابق ·

وعلى مدى اكثر من اربعين عاما لم تنشر آسيا جبار سوى مجموعة قليلة من الروايات فتشت فيها جميعا عن جذور شعبها التاريخية والاجتماعية ٠ فعندما حصلت بلادها على استقلالها عام ١٩٦٢ ٠ عادت الى الجزائر تهنئها وهى تحمل بين يديها مسودة روايتها الثانية : « اطفال العالم الجديد » وقد فتحت لها جامعة الجزائر ذراعيها ٠ حيث قامت هناك بتدريس التاريخ ولكن الابداع كان يطارد الكاتبة فلم تستغرق طويلا فى التدريس ٠ وفى عام ١٩٦٧ عادت الى فرنسا وهناك نشرت روايتها الثالثة « القبرات الساذجة » Les alouettes naives حول وضعية المرأة المسلمة فى الوطن وفى المهجر ٠ ومنذ ذلك الحين تصدرت آسيا جبار الحركة النسائية العربية فى شمال افريقيا ٠ ففى عام ١٩٦٨ حضرت مهرجان الثقافة الأفريقية فى الجزائر وقدمت مسرحية مكتوبة بالفرنسية تحمل عنوان « الفجر الدامى » Rouge l'aube حول مرارة الاحتلال الفرنسى للجزائر ٠ وعندما ترجمت بنفسها هذا النص المسرحى الى اللغة العربية بدا اكاديميا خاليا من الحياة ٠ وعبثا حاولت اعطاء النص روحه الحربية ولكن بلا جدوى ٠ وكأنه من الصعب عليها أن تعود من منفاها داخل لغة أوربية الى لغتها التى من المفروض أن تكتب بها ٠

اما صدمتها مع السينما الجزائرية فقد كانت ـ حسبما يقول مراد بوربون ـ من أن السينما القومية قد بدت لها باللغة الأكاديمية ٠ وعندما عهد اليها التلفاز الفرنسى ان تخرج فيلما فى عام ١٩٧٧ ركبت سيارة مع كاميرا وذهبت لتصور البسطاء من الناس وجاء فيلمها « نوبة النساء بجبل شنودة » تعبيرا عن دور المرأة الريفية فى حرب التحرير ٠ وقد حصل هذا الفيلم على جائزة مهرجان فينيسيا عام ١٩٧٩ ٠ ثم فيما بعد اخرجت فيلمها الثانى « زردة » ٠

فى عام ١٩٨٥ حاولت ان تستفيد من تجربتها السينمائية فقامت بتحويل فيلمها الأول الى رواية تحمل عنوان « الحب والفنتازيا » ٠ ومثلما فعلت فى الفيلم فعلت فى الرواية ٠ فكلمة « نوبة » ـ فى الفيلم ـ تعنى مجموعة من العازفين يعزفون الواحد تلو الآخر او هى تناوب لقطع موسيقية من خمسة فصول ـ وجاءت الرواية كأنها هذه النوبة ٠ مقسمة الى خمسة اقسام لها تأثير الألحان المتعاقبة ٠ وفى الرواية تعطى آسيا جبار الكلمة للنساء ٠ وتجعلهن يتكلمن الواحدة بعد الأخرى ٠ فيصفن الأضرار التى تركتها حرب التحرير الجزائرية على انفسهن وعلى عائلاتهن ٠

تدور أحداث الرواية حول مصير مجموعة من النساء والفتيات المرتبطات بحضارتهن ارتباطا قويا . واللواتى يصرن فى مرحلة من حيواتهن حائرات فى أمورهن : فهن تارة خاضعات للرجل . وفى تارة أخرى ثائرات على التقاليد والعائلة .

تفتتح الكاتبة روايتها بسير امرأة جزائرية . بدأت تتحرر من القيود التقليدية وقد تأثرت فى صباها كثيرا بالحرب الجزائرية الأولى التى استمرت بين عامى ١٨٣٠ و ١٨٧١ ، ترى هذه المرأة فى أبيها المعلم الصادق فى عمله . الذى يسعى الى رفع الجهل والتخلف عن الناس بالوسائل التربوية المتاحة فى تلك السنوات . ورغم انه كان يتقبل الكثير من المفاهيم الغربية التى اتى بها المستعمر الى الجزائر . فانه كان يتصرف احيانا طبقا لأساليب التربية التقليدية كما كانت فى الريف الجزائرى . وعلى هذا النحو كانت علاقته بابنته . مع أنه أتاح لها أن تتعلم . ومكنها من أن تتصرف بحرية حتى تزال عنها كآبة العيش فى الأوساط المغلقة .

وفى الرواية هناك نماذج لنساء أخريات منهن أرامل . وفلاحات عشن أيضا حرب التحرير : « هؤلاء النسوة لم يمارسن الأدب فى حياتهن . اكثر مما عانين فى الحرب . كانت كلماتهن خناجر . لقد سمعت حكاياتهن تردد . واردت أن أترجمها كى أنقل القرن التاسع عشر داخل صوت من خلالهن (١) .

هؤلاء النساء خرجن من بيوتهن أو مارسن نشاطا غير النشاط المنزلى . لكن بناتهن قد ساهمن مساهمة واسعة فى حروب التحرير الطويلة . قدمن للمجاهدين شتى أنواع الدعم والمساندة الى أن حصلت البلاد على استقلالها . وقد دفعت هؤلاء النسوة الكثير من دمائهن ، فقد كان الجنود الفرنسيون يبطشون بهن أبشع البطش . وصفت الكاتبة بعضا منه وصفا دقيقا مؤثرا . مثل المذبحة التى حدثت فى قرية « القنطرة » القريبة من وهران ، أو فى مذبحة جبل نقمارية فى يوليو ١٨٤٥ . أو تعذيب المجاهدين من نساء ورجال فى قرى أخرى حيث حول الفرنسيون خزانات المياه الرومانية الى سجون حشروا فيها المناضلين والمجاهدين .

لقد اكتشفت الكاتبة وهى تبحث فى التاريخ أن اللغة الفرنسية التى تكتب بها ملطخة بالدم . وحين دققت فى تاريخ العلاقة بين الضباط

---

(١) Dans la crue de la douleur. T. Ben jelloun, le monde 10-5-1985, p. 21.

الفرنسيين واثرياء الجزائر ، رأت أن العنف هو الشاهد الذى تكتب به التاريخ • أو كما تقول : « أنا وريثة هؤلاء القتلى • لقد حاولت من خلال هذا الكتاب أن أثبت أن هنـاك دما فى ميراث اللغـة » (١) • فى احدى الحوادث الدامية التى كانت تهتم بها تتحدث عن وقائع احراق خمسمائة جزائرى فى ١٩ يونيه ١٨٤٥ على ايدى الفرنسيين فى الخزانات السابق الاشارة اليها •

ويقول الطاهـر بن جلون ان هـذه الرواية هى عن الحب الذى تكنه آسيا نحو لغتها العربية ، لكن لذة الحب لم تعـل بعد • فى المجتمع المغاربى التقليدى • فالرجل لا يسمى زوجته أبدا • فهو يطلق دائمـا على زوجته وأولاده تعبير « البيت » • ووالد الراوية كسر هـذه القاعدة• فأرسل بناته الى المدرسة الفرنسية متمنيا ان يكن فى طليعة المجتمع • وقد كان ينادى امرأته دائما بـ « سيدتى » (٢) •

وتقول آسيا فى نفس الحديث عن علاقتها باللغة : « درست اللغـة الفرنسية • واصبح جسدى منسقا على النمط الغربى » • وعندما كان الآخرون يسألون الأب عن السبب فى أن بناته لا يرتدين الحجـاب يرد : لانهن يذاكرن • وبفضل المدرسة الفرنسية استطاعت البنات الهروب من الحبس كى يعبرن عن طموحهن • وتعلمت الكاتبـة الفرنسية كلغة كتـابة وليس سوى ذلك • وهى تقول انهـا تعلمت الفرنسية كى تسرق شـيئا من عـدو الأمس •

هذا العدو كم سرق ونهب مدنا باكملها ! ، وكم أعدم من بشر ! • ولم يكن الفرنسيون فى حملاتهم الانتقامية المزعومة يبقون على الاطفـال ولا على النساء ، ويرى الناقد الألمانى بيتر هوفمان بستر أن « الكتاب من أوله الى آخره عرض لشجاعة المرأة الجزائرية واستعدادها للتضحية • ولكن ، ماذا جنت من شجاعتها فى حرب التحـرير وتضحيتها ؟ ما تراها اجتنت من شىء ذى شأن • بل على العكس • لقد ازدادت وطأة التقاليد التى تجعل للمرأة دورا فى العائلة لا تتخطاه » (٣) •

وحول هذه الرواية كتب المستشرق جاك بيرك قائلا : « انه يا لسعادة المؤمن أن يجد فى ضيقه سعادة نقية خالصة • وذكرى معبقة بالمستقبل • لذا ، راحت الروائية تستجمع الفرنسية التى ملكت زمامها وجربت موهبتها فى تخيل صورة الحـرب • والانغـلاق والرغبة • وهى تحلل بلغتهـا

---

(١) المصدر السـابق •
(٢) المصدر السابق •
(٣) مجلة « فكر وفن » العدد ٥٣ ، ص ٩٤ •

وتتحدث عن مغامرة شعب له حياته ، وحيويته ، حيث ترى آسيا جبار ذلك الصباح من صيف عام ١٩٣٠ حين حطت جحافل الفرنسيين على حفلات العرس الجزائرى وراحت تقود الرجال الى سجون فرنسا » (١) .

أما رواية « ظل السلطانة L'ombre du Sultana » المنشورة عام ١٩٨٧ فهى بمثابة تكملة لروايتها السابقة . وحسبما تقول الكاتبة « هى قسم من أقسام نوبة العزف . تمثل الرواية الأولى آلة الكمان لأن نغماتها جهورية ولها علاقة بالتاريخ والمأساة . أما « ظل السلطانة » فهى تمثل آلة تصدر أصواتا رقيقة . وبطلة الرواية تدعى حجيلة . امرأة عربية تعيش فى أحد الأحياء الشعبية بمدينة الجزائر . تزوجت من رجل طموح لكنه نموذج للرجل الشرقى الذى يؤمن بالعزلة والانغلاق . لايبتسم قط . وكأن العبوس هو لغة التخاطب بينه وبين زوجته . يأمر وينهى . يطلب منها أن تأتى له بأشياء مثل منفضة السجائر . انه انسان بلا اسم . أما هى ــ كما كتب خميس خياطى ــ فامرأة طيبة رقيقة تتأثر بسهولة وبدون عنف . من هنا يأتى اختيار اسم حجيلة لها . على اسم طائر رقيق . فهى فى بداية الطريق . بعيدة عن التمرد والثورة . عاشت مع أمها واختها كنزة فى احدى الضواحى الفقيرة » .

وحجيلة ودت ، ذات مرة ، أن تتمرد على هذا الزوج الطاغية فخرجت من الدار ، مثلما فعلت نورا بطلة ابسن فى بيت الدمية » ــ دون اذنه وبدون حجاب . فتشعر لأول مرة وكأنها فقدت جسدها وكيانها وحريتها « فتصبح مجرد عيون ترى ولا ترى ، تنمو لديها رغبة الرؤية خلسة » .

ومحاولة لتقليل قيمة الرجل . فان الكاتبة تتحدث عنه بضمير الغائب ، فهو شخص بلا اسم محدد . شبح كبير يأتى ويذهب . وعندما يعرف الرجل أن امرأته خرجت من الدار بدون اذن ينهال عليها ضربا أمام ابنها .

وقد تحدثت آسيا جبار فى نفس العدد من « اليوم السابع » قائلة : « تمثل الحب والفنتازيا » علاقتى بأبى . أما « ظل السلطانة » فهى تصور علاقتى بأمى . القسم الثانى من الرواية الأولى هو تعبير عن علاقة فتاة بأبيها وبالتالى باللغة . فعوض أن تكون اللغة الفرنسية لغة الغير ولغة المستعمر . كانت بالنسبة لى لغة الأب . وهذه اللغة فتحت لى أبواب العالم . وأصبحت علاوة عن كونها لغة الآخر ، لغة الحرية .

---

(١) La langue de l'envahisseur le nouvel observateur 9-5-1985. p. 84.

حين احاول تحليل ذاتي أجد أن اللغة الفرنسية مكنتني من الهروب من سجن المنزل . لقد حاولت في هذه الرواية التقرب من اللغة المحلية الجزائرية . أن استعمل لغة النساء اللاتي حافظن على هويتهن » (١).

وفي تعليقه على هذه الرواية عند ترجمتها الى اللغة الألمانية كتب بيتر هوفمان بستر أن آسيا جبار تروى « بدقة الضغط النفسي الذي تعانيه نساء شابات من جراء الحاح أمهاتهن عليهن في أن يطعن أزواجهن ويقمن بما يطلبونه منهن من الواجبات . فهؤلاء الشابات هنا يكن ضحية لتربية أمهاتهن اللاتي يتصرفن ازاءهن بموجب رد الفعل الناتج عن الاحباط والخيبة . لاتشير آسيا جبار في كتابها الى ما قد تكون غاية هذا النزاع بين الرجل والمرأة المستهلك لطاقات كبيرة . كان أولى أن تصرف في مجالات أخرى . وعلى كل حال سينقضي زمن طويل حتى تصبح المرأة مساوية للرجل في الحقوق ، شريكة له وكفء امام القانون وفي المجتمع وفي العائلة (٢) .

وما دمنا بصدد الحديث عن ازدواجية اللغة عند الكاتب ، فان آسيا جبار قد عانت الكثير من هذا الاغتراب بين لغتين وهويتين ثقافيتين . وقد تحدثت في مجلة اليوم السابع انه « لاننا لم نكن قادرين على الكتابة مباشرة بالعربية ، فقد بذلنا جهدنا لكي يصار الى ترجمة اعمالنا سريعا الى هذه اللغة . واسفر الأمر عن ظاهرة غريبة . اذ أن ادبنا ، ان تحول الى العربية ، لم يحقق النجاح المرتجى . والذنب هو ذنب عملية العبور هذه اكثر مما هو ذنب نوعية الترجمة . فالجمهور لا يحب هذا النوع من التأقلم . الجمهور الذي يقرأ ابدى الكثير من الحذر . لأنه يفضل أن يكشف الكتاب المغاربة عن نصوصهم مباشرة » (٣) .

رشيد ميموني :

برزت مجموعة من الأسماء المهمة في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية في الثمانينات مثل طاهر جاعوت وعز الدين بوتمور الذي مات برصاص المتشددين في مايو ١٩٩٣ . الا أن أبرز هذه الأسماء وأكثرها نشاطا وشهرة وتواجدا هو رشيد ميموني المولود في مدينة بودو القريبة من الجزائر العاصمة عام ١٩٤٥ . والذي درس الاقتصاد في بداية حياته . وقد نشر رشيد روايته الأولى « لن يكون الربيع اكثر جمالا » ،

---

(١) امرأة حلمت بشارع مستحيل ، خميس خياطي ، اليوم السابع ٨٧/٣/٣٠ ص ٤٣ .

(٢) مجلة فكر وفن ، العدد ٥٢ سنة ١٩٩٢ ، ص ٩٤ .

(٣) مجلة اليوم السابع ، ١٢ يناير ١٩٨٧ .

في الجـزائر في عـام ١٩٧٨ · وما لبث أن توجـه الى فرنسـا مـع اوائل الثمانينات لينشر فيهـا أعمـاله التالية · ففي عـام ١٩٨٢ نشر روايته « النهر المحول » التى تدور حول مناضل من الجيش الجزائرى الوطنى فى معـركة التحرير · تصـور البعض انه قد مات ، فيفاجأون بعودته الى القرية · ولم يكن عليهم سوى أن ينكروه لأن البطل دائما يجب ان يكون ميتـا ·

أما روايته « طمبيزه » Tombeza المنشورة عـام ١٩٨٤ فانهـا تدور حـول شخص مولود لأم اغتصبـها رجل · وانكرتها عائلتها بعـد فعلتها الشنعاء التى ليس لها يد فيها · انه يحـاول أن يجد لنفسـه ظـلا فى هذا العالم بان يكون ثريا · أو شخصا مرموقا ··

وفى عام ١٩٨٩ نشر ميمونى روايته الفرنسية الثالثة والتى لفتت اليه الانظار وهى تحت عنوان « شرف القبيلة » · وقد اكدت هذه الرواية اننا امام كاتب يسير على نهج كافكا ويصنع لنفسـه ولابطـاله اجـواء خاصة · فالى جانب المكان الذى يبدو سعيدا فى رواياته ، وهو غالبا قرية صـغيرة ، فهنـاك مجمـوعة من الأشـخاص مرتبطون بهـذا المكان يحـاولون الدفاع عنه · والالتصاق باديمه ·

والمـكان فى روايـة « شرف القبيـلة » l'honneur de la tribu هو قرية بعيدة عن الذاكرة تسمى « الزيتونة » · هذه القرية غير موجودة تقريبا على خريطة البلاد · لقـد نسـيها جنـود الاسـتعمار الفرنسى · وبالتالى فان الثوار لم يفكروا فيها · لأنه حيث يوجد المحتل توجـد الثورة ورجالها · ولذا فان القرية معزولة عما يحدث فى البلاد ·

وتبدا احداث الرواية حين يستلم موظف البريد رسالة تفيد بأن رجال المستعمر قد اعلنوا ان « الزيتونة » اصبحت برتبة « قائم مقام » ولا شك ان مثل هذا التركيز المفاجىء على المدينة سيجعلها فى دائـرة الضـوء · ويرى البعض ان الوضع الاقتصادى سوف يتحسـن ·

والرواية تدور على لسان راوية يسمع من احـد شـيوخ القـرية ما حدث للقرية · فقد جاء ابناء القرية الى هنا بعد فترة قصيرة من الغزو الفرنسى للبلاد ، جاءوا كى يبتعدوا عن هذه النكبة التى أصابت الجزائر · وكان عليهم ان يصنعوا مجتمعـا معـزولا · ليس فقط عن فرنسـا · بل وأيضا عن الجزائر ·

لقد جاء على القرية ذات يوم حاكم عينه رئيس الحكومة الثورية الجـديدة · هذا الرجل معروف لدى البعض من القرويين · فهو ابن لأحد الرجال الذين لهم نشاط فى القرية · وهذا الرجل لا يعـرف مبـادىء

مهمته بالضبط ، لذا فليس من الغريب ان يسخر من البعض او يمزح من الآخرين · ثم لا يلبث أن يتحول الى طاغية · وهنا تتغير ايقاعات الحياة في القرية التى لم تعرف الطغاة من قبل ؛ فعلى شيوخ القرية أن يقاوموا هذا الطاغية ·

ومن الواضح أن الكاتب يعطى اشارة باللون الأحمر حول ما يمكن أن يأتى به أية طاغية للبلاد · ولا شك أن هذا الرأى سيكون هم الكاتب في أعماله القادمة · وفى أحاديثه الصحفية ، بل وفى مواقفه من المتشددين الاسلاميين فى الجزائر (١)·

وفى عام ١٩٩٠ نشر ميموني مجموعة من القصص القصيرة في كتاب يحمل عنوان « حزام الغولة » La ceinture de l'orgene حاول فيه من جديد التصدى لظاهرة الطاغية · والطاغية هنا قد لا يكون الشخص · ولكنه قد يكون نظاما اجتماعيا · والكاتب يرى أن الشعب الجزائرى على اختلاف مشاربه السياسية بيروقراطى التفكير · وقد جاء ذلك نتيجة للخمول والتخلف والضغط النفسى والفساد · وتجاوز القوانين والحكومات ·

أما روايته فى عام ١٩٩١ فتحمل عنوان « الحياة على الكفاف » Une peine à vivre وتطارد الطاغية بمنظور مختلف أقرب الى روايات الكاتب الأولى التى بدا فيها مدى تأثره بعوالم كافكا · فالرواية تدور أحداثها فى بلد غير مسمى من بلاد العالم الثالث · وفى هذا البلد ، كما فى أغلب هذا العالم ، هناك طاغية ينتظر دائما المزيد من العبيد · وهذا الطاغية يقع فى الحب · وتمتلك امرأة بلا اسم مثله كل مشاعره بشكل يؤدى الى الجنون · وأيضا الى سقوطه من فوق عرشه · وهذا الطاغية اشبه بحكام عرفهم العالم الثالث بجنونهم الملحوظ · من بوكاسا الى موبوتو ونورييجا وماركوس ودوفالييه وربما هو مزيج منهم جميعا ·· لقد احتفظ الطاغية بحبيبته فى القصر كأنها رهينة لحبه وراح يحبها حتى الموت ·

ويرى الكاتب أن « فعل » أى طاغية هو أن يكون له ضحاياه وأنه فى الغالب شخص يفتقد أهلية العقل · كما تحدث الى مجلة « الشروق » قائلا : « مضمون رواياتى لا يمس عمق فكرة حقا ، فأنا لا أحرض الناس ضد التقدم العصرى · وذلك لأننى أؤمن بأنه لا مفر من الحداثة والمعاصرة » ·

---

(١) حذار فقدان الذاكرة – حوار حسين قبيسى ، مجلة الشروق ١٤ مارس ١٩٩٢ ص ٥٩ ·

هذا هو بعض من عالم رشيد ميمونى · آخر الأجيال الأدبية الشابة فى الجزائر ·· والذى وضعته جبهة الانقاذ قبل وفاته فى يناير ١٩٩٥ ، مع أدباء آخرين ضمن المطلوب اغتيالهم واسكاتهم ·· وقد كتب ميمونى العديد من المقالات فى الصحف والمجلات الفرنسية فى الآونة الأخيرة ، هاجم فيها الجبهة · وليس موضوعنا بالطبع التركيز على مواقف الكاتب السياسية فى حياته · قدر اهتمامنا بمسألة لجوء هذا الكاتب الى الابداع باللغة الفرنسية · فلا شك انه بعد الرواية الأولى وجد ميمونى فرصته لدى دور النشر الباريسية · ومثل هذه الفرص لاتتاح لكل من يكتب بالفرنسية · وقد دفع هذا الكاتب الى أن يقدم خمس روايات فى عشر سنوات تقريبا مؤكدا انه أبرز الأسماء الجزائرية ، التى تكتب بالفرنسية بعد رحيل كاتب ياسين ، الذى توقف بدوره طويلا · ووسط حالة من الجفاف الابداعى عند كتاب آخرين موهوبين » ·

الطاهر جاعوت :

وأصبح على الأدباء أن يموتوا من أجل ابداعهم ، من أجل كلمات جميلة كتبوها يوما ما · فكان لزاما عليهم أن يخرج عليهم قوم ملثمون، بغتة ، فى ساعات النهار ، ويطلقون النيران ، فتتناثر دماء فنان ، حاول أن ينثر من حوله الزهور ، وأن يجسد من حوله المشاعر الجميلة ، والنبيلة ·

كان هذا هو حال الشاعر والروائى الجزائرى الطاهر جاعوت الذى لقى مصرعه فى مايو عام ١٩٩٤ فى مدينة الجزائر ، وجاعوت شاعر لم يفعل شيئا سوى أن قرض القصيدة وحاول أن يزرع أملا بكلماته ·

يمثل الطاهر جاعوت واحدا من ابناء الجيل الثالث من الأدباء الجزائريين الذين يكتبون مباشرة باللغة الفرنسية ، فحين ولد فى عام ١٩٥٤ ، كانت الجزائر كلها تستعد للثورة وكان الثوار يقرءون روايات كاتب ياسين ، ومولود معمرى ، ومولود فرعون · وحين كان فى الثامنة، حصلت بلاده على استقلالها ، فالطاهر من مواليد ١١ يناير عام ١٩٥٤ بمدينة أصفهان الجزائرية · وقد درس فى هذه المدينة حتى المرحلة الثانوية ، حيث اتجه الى العاصمة · وهناك حصل على الليسانس فى علوم الرياضة ثم درس العلوم والصحافة ·

وقد تولدت موهبة الطاهر الشعرية فى سن مبكرة ، أى وهو فى الحادية عشرة من العمر ، ورغم لغته الفرنسية ، فانه قد اهتم فى شعره بالواقع الجزائرى المعاصر · وفى عام ١٩٧٥ نشر ديوانه الأول « المدار

الشائك » ثم جاء ديوانه الثاني عام ١٩٧٨ تحت عنوان « القوس حامل الماء » وفي عام ١٩٨٠ صدر ديوانه الثالث « قاطن الجزيرة وشركاه » ٠ أما آخر دواوينه فهو « العصفور المعدني » ٠

ويمكن تقسيم ابداع الطاهر جاعوت الى مرحلتين منفصلتين تماما ٠٠

كان في الأولى شاعرا مليئا بالغموض ، ويهتم باللغة ، وتراكيبها المعقدة، انتهت هذه المرحلة تماما عند بداية الثمانينات فتوقف عن القرض٠ واتجه الى الرواية ، حيث نشر أولى رواياته عام ١٩٨١ تحت عنوان «امرأة منزوعة الملكية» ٠ وفي عام ١٩٨٤ نشر روايته الثانوية « الباحثون عن العظام » ومجموعة قصصية باسم « فخاخ الطيور » ٠ وفي عام ١٩٨٧ نشر رواية « اختراع الصحراء » أما روايته « العسس » فقد فازت عقب صدورها عام ١٩٩١ بجائزة البحر المتوسط ٠

وقد تباينت دور النشر التي أصدرت هذه المؤلفات بين دار نشر في باريس وبين دار نشر جزائرية ٠ وفي عام ١٩٨٤ كلفته احدى دور النشر الجزائرية باعداد مجموعة من مختارات الشعر المعاصر المكتوب باللغة الفرنسية ، بالتعاون مع احدى الصحفيات تحت عنوان «الكلمات المهاجرة»٠

وطوال الفترة بين عام ١٩٧٥ ، وحتى اغتياله في الثاني من يونيه ١٩٩٣ عمل مشرفا على الصفحة الثقافية في مجلة « الجزائر الأحداث » التي تصدر باللغة الفرنسية في الجزائر ، كما كان يراسل مجلة « أحداث الهجرة » التي تصدر في باريس ٠ وفي بداية عام ١٩٩٣ شارك في تأسيس مجلة « القطيعة » الأسبوعية وعمل مديرا لتحريرها ، والتي كان هدفها الأساسي عمل قطيعة مع كل فكر ظلامي وضد شد الجزائر نحو الغد ، حيث اهتم بتحديث اللغة والفكر وقد شارك معه في تحرير المجلة ادباء من طراز « رشيد بوجدرة ورشيد ميموني » الذي قرر الهجرة الى المملكة المغربية عقب اغتيال جاعوت بعد أن أصبحت حياته في خطر ٠

وابداع الطاهر جاعوت يميل الى الغموض وليس من السهل قراءته حيث يدور النص كما جاء في موسوعة الأدباء الجزائريين حول مفاهيم خاصة مثل اللغة والهوية والمنفى ٠ ومن بين قصائده المنشورة في ديوان « القوس حامل الماء » ، يقول : (كما ترجمه الى العربية الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي) تحت عنوان « أمل » :

الشعراء

وهيكل الأنوار

المشيد من فقـــار ظهوركم
هل تجـــد فيـه اخيرا ··
هـذا الخبز الذى نبحث عنـه ؟
اسـمعها تصـــعد من فوقكم ··
ضـــجة الأنهـــار ··
ومن أحضـــان هياكلكم المتصــــلبة ··
ينبجس رفضـــكم أن تتســـلقوا ··
جـــدار الصمت !

★★★

اشتهى ان اعيـد (····) كل شيء
في جســـد ـ عاصـفة
لقد فقدت الى الأبـد
نجـم الرحـلة الهـادىء
وعلى أن أواصــل تشردى
آه ·· كم هـو ثقيـل جلد الشـاعر !

★★★

ســـاغنى حتى اللحظـــة
التى تصـــبح فيهـا المتعـة
انفجــــارا فى الراس ··

★★★

هل اتحمـل قدرى الغـــاشم ؟
داخل جلدى المـؤقت ··
هل لى مكان بين النجـــوم ؟ ··

ليس هناك الا الخوف من أن ينتزعوا حلمى » ..

★★★

فى حديث للكاتب الطاهر جاعوت الى مجلة « شئون عربية » التى تصدر باللغة الفرنسية (عدد نوفمبر ١٩٩٢) يقول عن مرحلة تحـوله فى بداية الثمانينات من قرض الشـعر الى الرواية : « الأنواع الأدبية التى مارستها قريبة جدا من بعضها البعض · وخاصة فى هذه الأيام ، حيث لدينا كتابة متفجرة · فمنذ عام ١٩٨١ ورغم أننى نشرت روايات فقط فاننى استمررت فى كتابة القصائد · فمازلت أكن للشـعر وقارا كبيـرا · والشعر بالنسبة لى هو الشكل الأكثر قبولا · والأكثر سـعة حتى من الرواية نفسـها التى لا يمكنهـا ان تسبح فوق سلم ملىء بالمرونة · ولهذا فاننى لم أعتبر نفسى روائيا · وأعتقد أننى كاتب أكثر منى روائيا · وأهم شىء فى أى كتـاب هو أننا نمارس فيـه الكتابة · والعمل على مسـتوى اللغة التحول فالحكايات لا تهمنى كثيرا · وأنا لا أجيـد قص الحـكايات سوى تلك القصص الخـرافية التى رويتها فى « الباحثين عن العظام » ·

والغريب أنه رغم هذا الرأى الذى ذكره الطاهر جاعوت فانه لم ينشر أية قصائد منذ اتجه الى كتابة الرواية ، وبدت هذه الكلمـات أشـبه برجل يشعر بأنه خان حبيبته السابقة ، فراح يعدد فى مآثرها دون أن يعود اليها أو أن يترك حبيبته الجديدة ، لأنه بكل بساطة غير قادر على اتخاذ القرار أو لم تعد لديه القدرة على ذلك · خاصة أن تلك الحبيبة لديها من وسـائل الجـاذبية ما يجعله سابحا فى نهرها المتـدفق ·

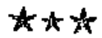
فاذا كان الشعر قد عبر فيه الطـاهر جاعوت عن لحظة آنية ، مليئة بالغموض ، اهتم فيها بتجريب حاد مع اللغة ، فانه فى رواياته قد عاد الى طفولته الى تلك السن المليئـة بحكايات جـذابة سـاحرة ، فالكاتب هنـا لا يستهويه ما يحدث على الساحة الاجتماعية والسياسية فى بلاده ، لذا فانه يهرب الى زمن الطفولة · حيث تتملك المرء شهوة الحياة فى مجتمـع مثالى · والرغبة فى الرحيل الى الفضاء الرحب · وفى نفس الحـديث المشار اليـه عبر الطاهر جاعوت عن هذه الحالة التى انتابته قائلا : «أعتقد أن الطفولة تلعب دورا بالغ الأهمية فيما أكتبه · فروايتى الأخيرة « اختراع الصحراء » ، تنتهى بالطفولة · انها نوع من السيرة الذاتية للعـديد من الشخصيات تبدأ بسن البلوغ وتنتهى بالطفولة مظللة بكل المشاعر التى يحسون بها وهذا هو حـال كل أبطال الرواية » ·

« بالنسبة لى فان الشيء الوحيد الحقيقى هو الطفولة · ولا شـــك أن تعلقى ببلاد هى فى المقام الأول وطنى وكان سببه ما تلقيته فى طفولتى وجعلنى انتمى الى هذا البلد · ولهذا فان رواياتى الأربع لا تحتفى بالنزعة القومية بنفس الشكل الموجود فى الأدب الجـزائرى بشكل عام » ·

« علاقتى بالتاريخ الوطنى والقومى هى علاقة انتقـادية ، قائمـة على أساس تناقض التاريخ القومى وعلى الذاكرة التجميعية والتـــاريخ الشخصى وانا أحس دوما أن هذا التـاريخ الشخصى يساهم فى خنــق المشاعر القومية الحقيقية · ويضع ذلك كله فى اطار ضيق وبالغ الحدة· اما أنا فاننى انتمى لتاريخ آخر يتمثل فى حق كل شخص فى تاريخـــه وفى ذاته المتســـعة » ·

وكما أثار الطـاهر جاعوت نقاده فى فهم عالمه الصعب والغـامض وكما اثار قاتليه الذين اغتالوه لمجرد أنه كتب دون متـابعة أعماله ، فان الطاهر جاعوت قد نفى عن نفسه أنه كاتب ملتزم ، حيث قال فى حديثـه الى مجلة « شئون عربية » السابق الاشارة اليهـا : « لم أكن ابدا كاتبا ملتزما ، فذلك نوع من الفخاخ ، كان يمكننى أن أسقط فيه عندما بدات فى الكتابة ، ففى تلك المرحلة من الشباب المبكر كان المنـاخ العـــام فى الجزائر ثوريا للغاية ومع ذلك لم اسقط فى ذلك الفخ ؛ لأننى فهمت الثورة الجـزائرية بمفهومى الخـاص » ··

ويكمل الطاهر جاعوت فى حديثه الى الكاتب عبد القادر زغـلول قائلا : « انا كاتب يدافع عن القيم الأخرى ·· فلديها معان أخرى فى بلد مثل بلادنا ، وانا أحاول أن أعبر عن مواقفى فى الصحافة ، وليس هنـاك موقف نضالى فى كتاباتى ليس هنا موقف نضالى قوى · وقد رفضت دوما أن أضـــع نفسى فى أطــر أيديولوجية · ومرجعى فى ذلك هو عاطفتى الخاصة · واذا كنت اؤمن كثيرا بالأدب ؛ فانى أؤمن بشكل أقل فى بعض المفاهيم والقيم السياسية فالكتابة بالنسبة لى مسألة خاصة · محاولة لتجديد العالم من حولنا »



قائمة بأهم الأدباء الجزائريين الذين يكتبون بالفرنسية

آبا ، نور الدين (١٩٢١) :

ولد في مدينة سطيف · درس القانون في الجزائر · ثم سافر الى فرنسا وايطاليا · عمل صحفيا وناضل من اجل القضية الفلسطينية · ثم عاد بعد طول اغتراب الى الجزائر عام ١٩٧٧ · شاعر · من أهم دواوينه : « فجر الحب » عام ١٩٤١ ، و « وراء الطلال » عام ١٩٤٢ و « أبواب الغروب » ١٩٤٣ ، و « اغنية ضائعة لبلاد عائدة » ١٩٧٨ ومن مسرحياته « آخر يوم للنازى » عام ١٩٨٢ ·

عمروش ، تاوس (١٩١٣ ــ ١٩٧٦) :

ولدت في تونس · شقيقة جان عمروش · تنقلت بين باريس وتونس · بدأت نشاطها بكتابة الاغنية · تزوجت من فنان تشكيلى · وعملت في الراديو التونسى · روائية وشاعرة من أهم اعمالها : « البذرة السحرية » ، ١٩٦٦ ، ورواية « العاشق الخيالى » عام ١٩٧٥ · ومجموعة كبيرة من الاغنيات ·

عمروش ، جان (١٩٠٦ ــ ١٩٦٢) :

اسمه الحقيقى جان الحب · ولد في قبيلة صغيرة · وهاجر مع أسرته الى تونس · ودرس هناك ، عمل مدرسا · ثم سافر الى أوروبا · وعندما عاد الى الجزائر عمل في الاذاعة الفرنسية كما عمل في الاذاعة الجزائرية · مارس السياسة · توفى في باريس · شاعر · من أهم دواوينه المنشورة في تونس « رماد » ١٩٣٤ و « النجمة المقدسة » ١٩٣٧ · كما نشر مجموعة من اللقاءات مع بول كلوديل · واندريه جيد وفرانسوا مورياك ·

بلغانم ، وبير (١٩٢٥) :

ولد في باريس · عمل بناء · واقام في الجزائر · ثم رحل الى باريس ، شاعر من أعماله « نزهة مع ظلك » عام ١٩٥٤ ، « ليلة اتالى »

١٩٢٥ · و « القفزة المستعادة » عام ١٩٧٤ ، ومسرحية عن «سبارتاكوس» عام ١٩٧٠ ·

بوجدرة ـ رشيد (١٩٤١ ـ) :

(انظر الفصل الخامس) ·

الحمراوى ، على (١٩٠٢ ـ ١٩٥٠) :

ولد فى أسرة من عين الحمام · سافرت أسرته الى مكة · ثم استقرت فى الاسكندرية عام ١٩٢٢ · سافر الى بلاد عديدة · واستقر فى القاهرة · مات فى حادث عام ١٩٥٠ · روائى · نشرت روايته « ادريس » عام ١٩٤٨ · ثم أعيدت طباعتها باللغة العربية عدة مرات ·

جبار ، آسيا (١٩٣٦) :

(انظر الفصل الخامس) ·

حاجى ، بشير على (١٩٢٠) :

ولد فى أسرة بسيطة · ودرس فى المدرسة القرآنية · ثم فى مدرسة فرنسية · عمل فى مجال النشر · دخل السجن عام ١٩٥٤ · أقام فى باريس والجزائر · شاعر · وكاتب مقال · من أهم رواياته « أغنية من أجل ١١ ديسمبر » ١٩٦١ ، و « لتستمر البهجة » ١٩٧٠ ·

جاعوت ، الطاهر (١٩٥٤ ـ ١٩٩٤) :

(انظر الفصل الخامس) ·

محمد ديب (١٩٢٠ ـ) :

(انظر الفصل الخامس) ·

عمرانى ، جمال (١٩٣٥) :

ولد فى سور الغزلان · ودخل السجن عقب اشتراكه فى مظاهرات ، هاجر الى سويسرا واشترك فى اصدار العديد من الصحف الجزائرية مثل جريدة « الشعب » · وعمل فى الاذاعة · شاعر · من أهم دواوينه : « أغنية للأول من نوفمبر » ١٩٦٤ ، « شمس ليلنا » ١٩٦٤ · و « أيام

بلون الشمس » ١٩٧٩ ٠ له مجموعات قصصية منها «الغروب الأخير» ١٩٧٨ ، ومن مسرحياته « بين الأسنان » و « الذاكرة » ١٩٧٩ ٠

فارس ، نبيل (١٩٤٠) :

ولد فى القبيلة الصغيرة ٠ التحق بالجيش ٠ درس الفلسفة ٠ رحل الى اماكن عديدة فى العالم ٠ روائى وشاعر ٠ من رواياته : « يحيى قليل الحظ » ١٩٧٠ ٠ و « عابر الغرب » ١٩٧١ ٠ و « حقل الزيتون » ١٩٧٢ و « ذكريات الغائب » ١٩٧٤ ٠ و « موت صلاح بيه » عام ١٩٨٠ ٠ اما دواوينه فمنها اغنية عقالى » ١٩٧١ ٠

فرعون ، مولود (١٩١٣ ـ ١٩٦٣) :

ولد فى القبيلة الكبيرة ٠ ابن اسرة ريفية ٠ عمل فى الزراعة ٠ ثم ذهب الى المدرسة ٠ ثم عمل فى التدريس ٠ اغتيل فى عام ١٩٦٢ ٠ روائى وشاعر من اعماله الروائية : « ابن الفقير » ١٩٥٠ ٠ و « الأرض والدم » ١٩٥٣ ٠ و « ايام القبيلة » ١٩٥٤ ٠ و « طرق صاعدة » ١٩٥٧ ٠ ومن اعماله الأخرى : « اشعار سى مهند » ١٩٦٠ ٠ و يوميات ١٩٦٢ ٠ ١٩٦٢ ٠ و « نصوص جزائرية » ١٩٦٢ ٠

معمرى ، مولود (١٩١٧) :

(انظر الفصل الخامس) ٠

ميمونى ، رشيد (١٩٤٥ ـ ١٩٩٥)

(انظر الفصل الخامس) ٠

ياسين ، كاتب (١٩٢٨ ـ ١٩٨٩) :

(انظر الفصل الخامس) ٠

الفصل السادس :

الأدب المغربي المكتوب باللغة الفرنسية

استطاع الكاتبان المغربيان أحمد سفريوى وادريس شرايبى ان يفتتحا الابداع المغربى المعاصر فى عام ١٩٥٤ بروايتين شهيرتين همـا « علبة العجائب » la boite au merveille و « الماضى البسيط » le passé simple المكتوبتين باللغة الفرنسية · وكما جاء فى كتاب la litterature francophonie depus 1954. فان هذا التاريخ يعتبر بمثابة مولد للأدب المغربى المكتوب باللغة الفرنسية · وقد صنع هذا الأدب جيلا موازيا للجيل الجزائرى الذى ظهر فى عام ١٩٥٢ مثل محمد ديب ومولود فرعون وغيرهما وليس من النصف أن نقارن بين عطاء نفس الجيل فى البلدين ، وذلك لاختلاف العديد من الظروف التى عاش فيها الكاتب فى كل من البلدين · فلا شك أن الحضور الثقافى الفرنسى فى الجزائر كان أشد واقوى · وقبل هذا العام ، على سبيل المثال لم يكن يوجد فى المغرب أدب فرنسى مثلما حدث فى الجزائر · كما أن اللغة العربية لم تكن تائهة فى المغرب مثلما حدث فى الجزائر · وعليه فان أديبين مثل شرايبى وسفريوى كانا يجيدان اللغة العربية الفصحى مثلما يجيدان اللغة الفرنسية · وسوف نرى أن الكثير من هؤلاء الأدباء الذين كتبوا بالفرنسية قد درسوا علوم القرآن فى طفولتهم وحفظوا سوره الكريمة · فى نفس الوقت الذى لم يبتعد فيه البربر عن الثقافة العربية ·

وقد عرفت المغرب ادباءها الذين يكتبون بالفرنسية ، كما عرفت الذين يكتبون بالعربية · ولا شك أن الحركة الأدبية المغربية قد افرزت عددا أقل من الأسماء البارزة من مثيلتها فى الجزائر ، ليس فقط من حيث العدد بل أيضا من حيث الأهمية · ومن أبرز هذه الأسماء التى ظهرت فى نهاية الخمسينات محمد خير الدين · وعبد الكبير الخطيبى · ومصطفى نيسابورى · وأيضا عبد اللطيف لعبى ·

والغريب ان أول مجلة ادبية ظهرت فى المغـرب كانت ، كما جـاء فى الكتاب المذكور ، تحمل اسم « انفاس » وقد صدرت عام ١٩٦٦ . وفى العدد الأول من المجلة . بدت الشكوك حول الأدب العربى المكتـوب باللغة الفرنسية . وتساءلت المجلة : « هل يجب أن نصرح أن هـذا الأدب لا يخصنا اكثر من انه جزء بسيط منا ؟ ليست لدينا اجابة حول حاجتنا لأدب يحمل ثقل واقعنا الحالى ، فى مواجهة ثورة متوحشة تلطمنا » .

وقد اهتمت المجلة دوما بالدفاع عن الأدب المكتـوب بالفرنسية . باعتباره عربيا . ولا شك أن غير هـــذا قد دفع بالأدباء المغـاربة الى الاحساس بأنهم غـرباء فى وطنهم فترك أكثرهم بلاده ورحـل ادريس شرايبى الى بقاع الأرض كلهـــا على سـبيل المثال ، قبل أن يسـتقر فى فرنسا . وفعل مثله عبد اللطيف لعبى . ثم الطاهر بن جلون .. وزادت أهمية التعامل مع هذا الأدب . فاذا انتقد المجتمع المغربى تصوره البعض يهاجمه ، وأن كاتبه مدفوع من الاستعمار لتشـويه صورة العـرب . وقد حدث ذلك بشكل واضح مع ادريس شرايبى عنـدما نشر روايته الأولى « الماضى البسيط » Le passé simple فى عام ١٩٥٤ حيث اثارت الرواية فضيحة فى الأوساط المغربية . وراحت الصحف تكيل له السباب والشتائم وطولب باعدام الكاتب . فلم يكن أحد من الشعب المغربى يتصور أنه فى اللحظة التى يشحذ فيها الجميع الهمم من اجل النضـال للاستقلال . فان كاتبا ينشر رواية مليئة بالعنف حول تمرد شاب ضد أبيه . هـذا الأب كما تصوره الرواية اقطاعى و « سيد » زمانه . وهو جلاد الأسرة . ورغم الأدب الطاغية ، فان التقاليد لا تحبذ قط ان يتمرد ابن ضـد أبيه . فلا شك ان هذا يسقط كافة القوانين الاجتمـاعية . وفى فصل من الفصول يتحدث الابن عن أبيه وهو يمسك السكين ويفكر فى أن يقتله . يبتسـم الابن وهـو يمسك السكين التى استعملها فى فتح كتبـــه . كما استعملت فى ذبح الدواجن فى عيد الفطر . وحز رقبة الخروف فى عيد الأضحى .

وقد دفعت الظروف بشرايبى أن ينكر أية صلة له بالرواية . ثـم سافر الى بلاد عديدة لسـنوات طويلة منها ايطـاليا والمانيـا والنمسـا ويوغسلافيا وبريطانيا . وتقول موسوعة أدباء المغرب باللغة الفرنسية ان شرايبى قد عاش فى اسرائيل عامين (أو بالأحرى شـهرين) باسـم مستعار (١) . وقد نشر شرايبى رواياته كلها فيما بعد باللغة الفرنسية . منها رواية « التيوس » les boucs عام ١٩٥٥ . و « الحمار » l'ane

---

(١) Dictionaire des auteurs maghrebiens, jean Dejeux , Karthala, Paris, 1984, p. 231.

١٩٥٦ · ثم « الحشد » la foule ١٩٦١ و « الحضارة أمى » la civilisation, ma mére ١٩٧٢ ، وفي هذه الروايات كان ــ شرايبي يتحدث بأسلوب انتقادى واضح للمجتمع المغربى · فهو يرى ان العالم يتغير بينما بلاده لاتزال شابة صغيرة ·

أما الجيل التالي الذى جاء بعد شرايبي وسفريوى فهناك محمد عزيز الحبابى الذى عرف كفيلسوف وأستاذ جامعى · وهو يكتب باللغة العربية · كما كتب أيضا بالفرنسية · ثم هناك فيلسوف آخر يدعى عمانويل منير ·

ويعتبر عبد اللطيف لعبى واحدا من الأدباء المرموقين في جيل الستينات · حيث اصدر مجلة « انفاس » باللغتين العربية والفرنسية · ولكن نشاطه الغالب هو قرض الشعر باللغة الفرنسية · أما مصطفى نيسابورى فهو شاعر آخر جمع قصائده المكتوبة بالفرنسية في ديوانين الأول في عام ١٩٦٨ تحت عنوان « ذاكرة عالية جدا » · ثم « ألف ليلة وليلتين » عام ١٩٧٥ ، وبينما ازدهرت الرواية المكتوبة بالفرنسية في الجزائر · فان الشعر المكتوب بالفرنسية قد ازدهر في المغرب · على أيدى محمد خير الدين وزغلول مرسى ·

لذا ، فليس من الغريب أن يبدأ الطاهر بن جلون ، عند ظهوره في أوائل السبعينات ، ابداعه كشاعر · وقد التصق بالشعر فترة قبل أن يتجه كلية الى الرواية · ونتيجة لأهمية بن جلون كأديب يكتب باللغة الفرنسية ، ويعتبر الآن واجهة هذا النوع من الأدب المغربى فاننا سوف نخصص الجزء الغالب من حديثنا عن ابداعه ·· خاصة ان هذا الابداع قد توج في عام ١٩٨٧ حين فازت روايته « ليلة القدر » بجائزة جونكور وهو بذلك أول عربى يحصل على مثل هذه الجائزة المهمة ·

والطاهر مولود في مدينة فاس في عام ١٩٤٤ · وقد كان الوليد الوحيد في اسرة لم تنجب سوى البنات · وسوف نرى ان هذه التجربة قد أرقت الكاتب كثيرا وعبر عنها في روايتيه « ابن الرمل » و « ليلة القدر » · وقد هاجرت الاسرة بينما الطاهر في العاشرة من عمره الى مدينة طنجة · وظلت هناك ثماني سنوات · وعندما بلغ الثامنة عشرة سافر الى مدينة الرباط لدراسة الفلسفة في الجامعة · ثم توجه الى مدينة تطوان عقب تخرجه في عام ١٩٦٨ من اجل العمل كمدرس للفلسفة · وانتقل بعد ذلك الى الدار البيضاء · نشر أولى قصائده في عام ١٩٦٥ ثم قرر ان يدرس علم النفس في باريس · والتى اختارها للاقامة منذ عام ١٩٧١ · حيث وجد وظيفة مناسبة في جريدة لوموند التى لايزال يعمل بها حتى الآن ·

نشر الطاهر بن جلون ديوانه الأول « رجال تحت كفن الصمت » hommes sous linceul de silence عام ١٩٧١ فى الدار البيضاء · أما بقية اعماله فنشرت جميعها فى باريس وهى على النحو التـالى : « ندوب الشمس » ci catrice du soleil – ديوان شعر – عام ١٩٧٢ · و «حروودة» Harrouda رواية عام ١٩٧٣ · ثم « احاديث الجمل » le discours du chameau شـعر عـام ١٩٧٤ وديوانه « بذور الجـلد ·· أصـيلة ·· ذكريات الطفولة » Grains de peau .. Asilah وهو كتاب نشر فيه محمـد بن عيسى – وزير الثقافة المغـربى – مجمـوعة من الصـور · وفى عام ١٩٧٦ نشر بن جلون كتابه « ماتت اشجار اللوز متأثرة بجراحها » وهو عبارة عن مقالات قصيرة وقصائد شـعر ·· وفى نفس العـام نشر مختارات من الشعر المغربى الحديث باللغة الفرنسية تحت عنوان « ذاكرة المستقبل » · وفى روايته الثانية « انزواء العزلة » la réclusion solitaire وفى عام ١٩٧٧ نشر مجموعة مقالات فى علم النفس حـول رسالة الدكتوراه التى كان يعدها تحت عنوان « منتهى العزلة » la plus haute de solitude

ثم جاءت روايته « موحا المجنون · موحا العـاقل » عام ١٩٧٨ · وفى عام ١٩٨٠ عاد مرة اخرى الى الشعر ليقدم ديوانه « خبايا الذاكرة » · A l'insu de souvenir ، وفى نفس العـام ترجـم الى الفرنسية رواية « الخبز الحافى » le pain nu لصديقه محمد شكرى وكتب لهـا مقدمة باللغة التميز ·· ثم نشر روايته « صلاة الغائب » عام ١٩٨١ · وقام فى عام ١٩٨٢ بنشر مجموعة من النصـوص تحت عنـوان « منفى الحجـارة » l'exil de pierres وفى عام ١٩٨٥ نشر روايته « ابن الرمل » وجاءت روايته « ليلة القدر » عام ١٩٨٧ لتحصـل على جائزة جونكور · وفى عام ١٩٨٩ نشر روايته « يوم الصمت فى طنجة » ثم نشر روايته « غض البصر » عام ١٩٩١ ، و « تصاعد الرماد » ، و « الملاك الأعمى » ١٩٩٣ ، و « الرجل المحطم » ١٩٤٤ ·

ورغـم أن الكاتب يعيش فى باريس وينشر باللغـة الفرنسية ، الا ان كل أعماله تدور أحداثها فى المغرب ·· بين مدنها وفوق اديمها · وأبطال هذه الروايات هم مغاربة وعرب فى المقـام الأول · ولعل هذا هو سر مذاق الكاتب · وكما جاء فى جريدة الوطن الكويتية انه « كلما كنـا قريبين من مسقط رؤوسنا امتلكنا اكثر الفرصة فى أن نخـاطب العـالم كله · وفى أن نكون مفهومين من الجميع · واذا كتب احدنا رواية عـن الانسان عموما فانه لا يؤثر فى أى قارىء بشكل خاص » ·

« اذن ، هويتى واضحة . هى عربية ومغربية . وبالتالى فان كتبى تشهد على هذا الانتماء » (١) .

ويقول بن جلون فى نفس الحديث أنه « لا مشكلة هوية لدى . أقول ان لغتى هى الأدب . ولا أشك فى عروبة ما أكتب . ومن البدهى أن يكون هذا الأدب الذى أكتبه عربيا فى الجوهر والروح وليس فى الكتابة » .

« لم نعد كتابا هامشيين فثمة جمهور كبير يتابعنا الآن . وهو الذى يمنحنا الشرعية والاعتبار ، وليست الأوساط الأدبية الفرنسية » .

ولو نظرنا الى ابداع بن جلون ، فستراه مرتبطا فى المقام الأول بالمكان العربى . قضاياه . ومشاكله . ومعاناته . وقد بدا هذا بشكل واضح فى كتابه « ماتت اشجار اللوز متأثرة بجراحها » فهو على سبيل المثال يدافع عن القضية الفلسطينية والفلسطينيين . ويقول فى خطاب له وجهه الى ابنه : « لقد توقف اليوم داخل تجعيداتى منذ أن مرت آلاتهم الدامية فوق منزلنا . كم هى مرعبة تلك السيارة الضخمة التى تنتهش الشيء القليل الذى بقى لنا : قطعة من الأرض . سقف وثلاث اشجار . انها آلة تصنع الضوضاء ، تلمع الشمس وتنفجر فى الضحك المتواصل عندما تخرج من الزهور البرية الصغيرة الهشة التى تسعى الى النمو . رأيت أسنانه الصفرة من دماء الأرض التى تحطمت فوق حفنة رمال . رياح خفيفة تحز جذور الشجرة . تهبط الشمس وتجمعها . أعتقد انها تسكن سحابة صغيرة جامدة لا تتركنا منذ ان كنا بلا سقف . بلا مأوى . اخوك الصغير يجرى كى يقفز . كتب المدرسة يعلوها التراب . لقد خفنا . وحاولت الآن ان تلتهمها » .

« مجروحون من ارضنا . خجولون فى أشجارنا . كنا هناك ثلاثتنا . يصيبنا موت مفاجيء وجزء منا أعتقد انه قد مات . لقد انتزعوها بالطبيعة فى الفجر ، ظللنا هادئين . فتحوا جراحنا واحتسينا موتنا . كان له طعم المر . قالت أمك ان لها ـ جراحنا ـ عطر الياسمين . فتحت السماء على نداء العصفور اليتيم . ولاحظنا جسد الضوء مغطى بالسماء الجديدة . ترنحت السماء فى هذا اليوم لأن الظلم العارى قد سطر خطوطه فوق أرضنا وأجسادنا » (٢) .

---

(١) لسنا هامشيين . عقل العويط . جريدة الوطن (الكويت) ٢٥/٤/١٩٨٩ .

(٢) Les amandiers, sont mort de leurs blessures. T. Ben jelloun, maspero, Paris, 1976.

وبهذه اللغة الشاعرية الراقصة يكتب الطاهر مقالاته السياسية . في مقال له ، أو لعله نداء باطني ، الى الشاعر الفلسطيني محمود درويش بعنوان « أرض يتيمة » يقول : « محمود درويش . هو هذا الصوت الذي يشدو بالحب . صوت مشدوه بالشعور الضفرة من البساتين التي تركها عند الفجر . في سن السابعة . عاش في دير السد . الأرض محتلة . فوق أرضي « بوطنية لا حدود لها » . غير محددة المصير . والكرباج الذي يسقط من الضحك عندما يحوم الطائر بين السحب وزبد البحر . عاش محمود في حيفا حتى عام ١٩٧٠ . وفي كل يوم يقدم شعرا وحجرا . يصنع من كل جملة حقلا من الوحدة المليئة بالصور وفروع أشجار الزيتون . انه منفى خارجي . في موسكو والقاهرة ثم بيروت حيث أثار ضجة عابرة » (١) .

وفي مقال آخر بعنوان « العربية . العربية » حول زيارته للمسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة ومدى شعوره بالرهبة والخشوع الذي احس به كتب : « ليست الصحراء قصيدة . ولكنها أيضا افكار مسبقة . وصورة ملونة مرسومة بالنيون أعلى العمارة التي لا تنتهي في أركان الشوارع التي لا سقف لها . انها ذكرى شاحبة . تنتقل فوق جبين السحب التي تبدو في وجه السماء حيث تكمن النجوم » .

وتؤلم الوحدة الكاتب دوما . ويقول : « انا صغير في وحدتي . لكنني أضحك . لم أقص لحيتي هذا الصباح . وليس هذا أمرا جسيما . فلا أحد ينظر الي . انهم يقرءون في الدهاليز . يقرءون في المترو . لا يضيعون أوقاتهم . بينما أقف في الممرات أسمع الشباب يغنون . فأضحك وأفرح . سوف أتكلم مع أي شخص . لا ، سوف يعاملني كشحاذ . من هو الشحاذ . من هو الشحاذ في هذه البلاد ؟ لم أره قط . أناس ينزلون متكاتفي الأيدي . وآخرون يصعدون. أشعر انهم متشابهون. سوف أتكلم مع هذا الثنائي ، سأجلس أمامهما طالما أن المكان شاغر . وسوف أخبرهما بشيء لطيف أشبه بمواء القط أو عواء الذئب » (١) .

وما يكتبه الشاعر هنا في صورة مقالات ليس سوى نوع من التعبير الشعري المنثور عن اشياء يحسها . ولذلك فان هذه الانطباعات قد بدت مجسمة كثيرا في هذا الكتاب عن القصائد . لكن موضوع الوحدة الذي يعاني منه الكاتب يطارده في قصائده وانطباعاته .. فهو يكتب عن « طبوغرافية » الوحدة . وهناك مجموعة قصائد قصيرة متناثرة

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

جمعها تحت عنوان « أصيلة · فصل الزبدة » وهى قصائد لا تزيد كل منها بأية حال عن خمسة أو ستة أبيات · قليلة الكلمات مثل :

أدير رأسى المدينــة
وأهازج البحـــــر
واستعيد صوتى
كأنه المســـرج
الأطــلال تحتفظ بندوبهـــا
ويسكب الزبد ملحا فوق الهلب
ملح كثير يثير مشاعر الأطفـــــال

وفى آخر مجموعة من هذه القصائد هناك قصيدة رائعة يقدمها قائلا: « أنا فى الحكمة والحقيقـة · أمتلك مفـاتيح المدينة · سـيد البحـــار والصيادين · أنا اليوم مقبرة فى الأرض الرطبة · أجمـــل المقابر التى أصابها الجنون · حيث ينـام فيها المجـانين ومرضى الحب · المرضى الحقيقيـــون » ·

·· أما القصيدة فيقول فيها :

أنا مجنون بعائشــة
الأكثر حســـنا من القمر
النقيــة كجنونى
ليس من الصــدى
أن أبكى وأصيح وأسكت
أرقص فى اللهب
وأتكلم مع المــوتى
بينما يرتجف المفتــاح
كتاب مفتوح للأطفال الخـــائفين
أنا مقبرة الفقراء

أما كتابه « ندوب الشمس » فهو يضم كذلك مجمـوعة من القصائد الطويلة استوحاها من جو المغرب وأطلق عليها اسم « مراكش » كما يضم قصصا قصيرة بلا عنوان · ثم ثلاث قصص أقرب الى الانطباعات منهـــا

الى فن القص حيث مزج الشعر بالسرد لدرجة يمكن تصورها قصائد قصصية قصيرة · مثل « الجمال » و « الشجرة » وهى كلها تعبر عن الحياة فى شمال افريقيا : « من وقت لآخر تمد الشجرة نبضاتها · وتتمدد جذورها · سرعان ما يستفيد منها الأطفال كى يخرجوا ويلفوا فى الغابة العارية وهم سعداء · تدور الشمس بين اصابعهم · ويفتحون اذرع السماء · ويهرب الصباح بين اشواكها · كى يشهد على ابحار المهاجرين » ·

وفى الفصل الأخير من هذا الكتاب يقدم بن جلون انطباعه حول الكتابة قائلا : « اكتب لأنه ليس لى وجه · اكتب لأعبر عن التناقضات · التناقض الذى يقربنى من كل هؤلاء الذين ليسوا انا · من كل الذين يصنعون الجنود الذى يسيطر على ويخوننى · لا اكتب « من أجل » او « فى » او « مع » اى منهم · القى نفسى فى موكب · واهرول الى عزلتى حيث الكلمة لاهثة ويصبح الفراغ اكثر اتساعا » (١) ·

ويضم ديوان « احاديث الجمل » مجموعة من القصائد المغربية المجنونة التى تعكس شعور الكاتب بفراغ الوحدة والحنين الى الألفة · وبين بعض فقرات وقصائد الديوان ، يقدم الطاهر بن جلون كالعادة مقتطفات نثرية اختارها هنا من كتاب « هكذا تكلم زرادشت » لنيتشه · وقد اهدى احدى هذه القصائد الى الشاعر محمود الهمشرى التى يقول فيها :

لا تبكوا الموتى
لقد تعلمت من الرمال
وتعلمت من الشجر
وتعلمت من الشمس
أن الموتى ليسوا فى حاجة الى دموعنا

ويبدو بن جلون مهموما دائما بقضية فلسطين · فى ديوانه عن « خبايا الذاكرة » يكتب اشعاره عن قضية فلسطين وعن الحرب الأهلية فى لبنان · ويبدو مدى تغلغل مشاكل بلاده العربية فى وجدانه وهو فى مهجره الذى اختاره · فهو يفكر فيها وهو يركب المترو · وايضا حين يجوب شوارع المدينة التى يعيش فيها · وقد عبر عن هذه الأحاسيس فى ديوانه « منتهى العزلة » قائلا : « اذا حدث وتركت باريس الى المغرب او الى أى مكان · فاننى افتقد هذا النفور · مثلما أفتقد وجوه ومشاعر هؤلاء الأصدقاء الذين ارتبطت بهم فى هذه المدينة · لقد تربيت اول الأمر

---

(١) Cicatrice du soleil. T. Ben jelloun. Paris, Maspero, 1982.

فى فاس ثم فى « طنجة » • وسط حضارة عربية داخل منزل • فرنسية عربية فى المدرسة • لذا لم يبد لى الطرف الآخر من البحر المتوسط غريبا تماما • فباريس مثل المغرب • بها أسواق كبيرة • والوان وروائح • يحدث أن تنتابنى الرغبة فيها • فى سوق باريس ليس لك الحق أن تلمس او تتذوق بل عليك أن تختار بعينيك وتدفع بعد النظرات بالعيون • ربما لهذا السبب ففى باريس وحدها ثلاثمائة وخمسون قاعة عرض سينمائى • لذا فان مخرجى أفلام ما قبل الحرب – مثل كارنيه ورينوار ورينيه كلير – دائما ما يظلون فى الذاكرة حتى الآن •• الآن هناك سينمائيون جيدون لكنهم ليسوا فنانين كبارا » (١) •

ويقول فى نفس الكتاب ان الأديب فى العالم الثالث فى حاجة ان يتعرف الى كتاب آخرين وانه قد تعرف على جان جينيه الذى علمه حياء الأدباء • أما صديقه الناشر ماسبيرو فقد ساعده على نشر كتبه فى داره الخاصة التى طبعت أغلب دواوينه الشعرية •

هذا هو العالم الشعرى للطاهر بن جلون •• ولكن ماذا عن رواياته ؟

لا شك أن هناك أشياء عديدة من ذاكرة الكاتب قد تجسدت فى هذه الروايات • مثلما تجسدت فى أشعاره • والذاكرة خصبة بالأماكن والأشخاص الذى يعيشون عليها • وفى أغلب روايات بن جلون هناك جزء من سيرته الذاتية • هذه السيرة متناثرة فى هذه الروايات بشكل يمكن الامساك بها بسهولة وايضا يمكن أن تفلت منك بسهولة • فالكاتب يصوغ هذه السيرة ببراعته الفنية التى لا تجعله يقع فى شراك السيرة الذاتية التى قد تنحى بالكاتب عن القص الروائى •• وقد تؤثر كثيرا فى فنية العمل : وفى رواياته يبدو المكان ، والأسرة • عماد كل أعماله الفنية • ولا شك أن الطرفين قد تفاعلا معا فصنعا مزيجا خاصا لكل منهما الآخر •• فلا يمكن أن تذكر الأب والأم دون أن تذكر البيت الذى عاشا فيه مع ابنائهما • ولا المدينة التى انتقلا اليها • والمدينة هنا ، كما عاش بن جلون هى فاس • أو طنجة • انهما دائما نفس المدينتين ، كأن العالم لم يتحرك خارج حدودهما •• ورغم العالم الرحب الواسع الذى ذهب اليه بن جلون فيما بعد ، فانه آثر أن يحبس نفسه فى هذه المدينة ، كما أن الكاتب يذكر مدنا أخرى مغربية مثل الدار البيضاء التى يراها فى رواية « حرودة » مدينة المستقبل • أما طنجة فانه يداعبها فى نفس الرواية ويطلق عليها اسم « الخيانة • وهذه

---

(١) A l'insu du souvenir T. Ben jeloun, Maspero. Paris, 1980.

المدن بالنسبة للكاتب هى مدن الطفولة · وفى هذه المدن تتباين اشكال الناس خاصة النساء · فهناك المرأة الفاضلة الطيبة ، وهى غالبا أمه كما أن هناك بنات الهوى ·

ويمكن أن نجد كل هذا العالم والسمات فى روايته الأولى « حرودة » والذى تكرر بعد ذلك فى كل رواياته ، فهو يهدى الرواية الى أمه · تلك المرأة التى عليها أن تتعامل مع الأب كأنه البطريرك · أو « الاله » ـ مثلما حدث فى رواية شرايبى الأولى ـ والمرأة هى التى تصنع تمثال هذا الرجل الذى هو أبوه ·

وفى رواية « حرودة » لا ينسى بن جلون أنه شاعر · فيتغنى لها ويصفها شعرا قائلا :

حرودة
طير
نهد
امرأة
عروس بحر
مجسدة فى الكتاب (١) ·

وحرودة امرأة هوى تختلف كثيرا عن أمه ، كما سبقت الاشارة ، وجسدها يتعرى بسهولة أمام الكلمات المكتوبة · وهو ليس جسدا عاريا ·· بل هو جسد مقدس يناسب هذه المهنة · وهى فى منظور الكاتب نموذج للمرأة كما جاء فى قصيدته · وحرودة تعيش فى فاس · وهى مكان متسع لامرأة مثلها · وفى شهر رمضان تبدو المرأة مختلفة تماما حيث يحل الورع على المدينة · وهناك مزج بين المدينة التى يعيش فيها الكاتب وبين المرأتين اللتين هما أمه وحرودة · فهو معجب بكلا النقيضين · واذا كانت فاس مدينة حرودة · فان طنجة مدينة واسعة بها الأطلال والمؤسسات وهى مدينة البلور · والجبل الذى يحوطها حاملا ذكرى من أيام الحرب · كما أن « طنجة » تخفى وجهها · وتبدو شاحبة وهى تكذب عليك » (٢) ·

وقد بدت نفس ملامح الأشخاص والأشياء فى روايته الرابعة « صلاة الغائب » التى يروى فيها أيضا جزءا آخر من سيرته الذاتية · ومع ذلك فان كل شىء يبدو أشبه بالخيال · عدا تلك الأسئلة التى تتعلق بالهوية والجذور والكتابة فهى أشبه بيوميات خاصة لشخص يبحث عن

---

(١) Harrouda, T. Ben Jelloun, Denöel, Paris, 1974, p. 7.

(٢) المرجع السابق ·

هوية ويريد أن يعطي لجذوره معنى · فكل شخص يقدمه الكاتب يكافح في مجاله · و « يمنى » المرأة التى سوف تقود الآخرين وهى تعبر الغرب ليست صورة حقيقية من امرأة كانت تحمل نفس الاسم ، عملت فى الهوى وعاشت في مدينة فاس · انها بالطبع صورة متكررة من حرودة · ولعلها نفس المرأة · أما سندباد فهو رجل فقد الذاكرة بعد أن صدم فى علاقة عاطفية وكأنه يتخلى بالمجتمع من حوله عن هوية ارتبط بها كى يعيش فى عالم جديد · انه يعيش فى المقابر قريبا من شخص أكثر منه فقرا · والفقر هنا هو فقر الروح · انه يحمل اسم كلبه « بوبى » · وهناك الطفل الذى عليه أن يذهب مع الثلاثة الى مقبرة الشيخ « أبو العينين » لقد ولد فى المقبرة تحت شجرة زيتون · ليس له اسم · وهو كما يصوره الكاتب انسان بكر يبدو واضح الوجه ·

تتحرك هذه المجموعة بقيادة « يمنى » من الشمال نحو الجنوب · في داخل البلاد · يرون مغرب الأمس واليوم · ينتقلون بين المدن والقرية · من أماكن حقيقية الى أخرى يتخيلونها · انهم يتمتعون حين ينسبون أن الزمن يدور من حولهم · ويروح واحد منهم يتذكر زمن المقاومة ضد الاستعمار التى كان يقودها الشيخ أبو العينين ·

ويقول الكاتب حول ظروف تأليفه هذه الرواية : « كتبت هذا الكتاب ابان اضطراب فى مشاعرى ، عشته يوما مع الضياع · وطاردت أبطالى · وسافرت بنفسى معهم وعندما حانت لحظة فراقهم · طاردونى فى أحلامى ونومى وحياتى · لقد تسلطوا على · كانت تلزمنى بضعة أشهر كى أخلص نفسى منهم · فهى ليست سيرة ذاتية الا من خلال خيال بالغ النقاء · وهذا هو السبب الذى جعلنى أكف عن النوم » (١) ·

واذا كانت هذه الروايات قد بدا فيها المكان بطلا من خلال المدينة والأشخاص الذين يعيشون فيها · فان الأسرة هى البطل الأساسى فى روايتيه ، أو فلنقل ثنائيتيه ، « ابن الرمل » و « ليلة القدر » فنحن هنا أمام بن جلون بشكل آخر · ذلك الصبى الذى وجد نفسه فى أسرة أنجبت عددا كبيرا من الاناث ولم تنجب سواه ·· فاستحق كل الرعاية والاهتمام باعتباره الذكر الوحيد فى المنزل · وقد قام الكاتب بتغيير هويته ليتخيل أحمد الطفل الذى جاء فى أسرة لم تنجب سوى البنات · وأحمد هذا ليس سوى بنت · لكن رب الأسرة أقسم على امرأته ذات يوم أن تلد ولدا · حتى لو كان بنتا ·· فسوف يكون ولدا ·· لذا فعندما ولدت الأم أنثى ، كان على الأب أن يعلن على الملأ أنه رزق « أخيرا بمولود ذكر · بعد أن أعطاه الله سبع بنات » ·

---

(١) نشرة Le seuil سبتمبر ١٩٨١ ، ص ٢ ·

والثنائية الروائية تدور أحداثها على لســان هذه الأنثى ـ الذكر ، أو الأنثى التى عليها أن تتصرف كأنها ولد ٠ فهى عندما كبرت صارت رجلا يحمل فى جسده صدر امرأة ٠ والأب هنا مثل الأب فى كل الروايات التى كتبها بن جلون ٠ فهو بين «سيد» و «رب» المنزل ٠ ويحس أن رجولته مفقودة طالما أن امرأته لم تنجب له صبيا واحدا ٠ يصرخ : « بطنك يا امرأة ، تعجز عن حمل صبى » ٠ صرخ الحاج : « لذلك قررت أن تكـون الولادة الثامنة عيدا ٠ احتفـالا عظيما يستمر سبعة أيام وسبع ليال ٠ ستصبحين اما حقيقية ، ستصبحين اميرة لأنك ستكونين قد انجبت صبيـا ٠٠ الطفل الذى ستضعينه سيكون ذكرا ٠ سيكون رجلا ٠ سيدعى أحمد حتى ولو كان أنثى ! لقـد أعددت العدة لكل شىء وهيأت لكل شىء ٠ سـنأتى بالقابلة العجوز ، لالا راضية ٠ فهى لن تعيش بعد ذلك أكثر من عام أو عامين ٠ وسأعطيها بالتالى ما يلزمها من نقود ، كى تحتفظ بالسر ٠٠ »٠

ويقول الكاتب فى فقرة أخرى من نفس الفصل من الرواية المعنون « باب يوم الخميس » : « عليك أن تبكى من الفرحة ٠ انظرى ٠ انظرى ٠ انه طفل ٠ لا حاجة لاخفاء وجهك ٠ يجب أن تكونى فخـــورة ٠ لقـــد أعطيتنى طفلا بعد خمسة عشر عاما ٠ غلام ٠ انه طفلى الأول ٠ انظرى كم هو جميل ! ٠ المسى أنامله ٠ وشـــعره ٠ انه رجـــل ٠ ثم استدار ناحية القابلة وطلب منها أن تسهر على الطفل وألا تترك أحـــدا يقترب منـــه ٠ وخرج من الغرفة تعلوه ابتسامة عريضة ٠ يحمل كل رجـولة الدنيـــا فوق كتفيه ٠ أحس وهو فى الخمسين من عمره أنه شاب ٠ لقد نسى ، أو لعله تناسى ، كل ما دبره ٠ لقد رأى فتـــاة ٠ ولكنه تصور بكل ثقة أنها غلام » (١) ٠

وعندما كبر احمد بدأ يدرك الحقيقة ٠ وراحت الكوابيس تنهشه ٠ انه فتاة لم يكن امامها سوى أن تسجل معاناتها يوما بعد يوم ٠ فراحت تراسل صديقا مجهولا اكتشف سرها وحرص على مقاسمتها أحـــزانها وهمومها ٠ وربما من موقع المحب العاشق «تنتقم الوجوه منحديثى بالعبوس الدائم لذلك أبعدها برفق ، وأضعها جانبا ٠ أكدسها فوق بعضها البعض ٠ تنسحق ، تتألم ٠ بعضها يتمكن من الصراخ ٠ صراخ اليـوم ٠ نعـاء ٠ اصطكاك الأسـنان ٠ وجوه بدون ملامح ٠ ليست لرجـل ولا لامـــرأة ٠ لكنهـا أشـكال لجمـال مطلق ٠٠ الأيدى تخوننى أيضـا خاصة حين أحاول تزويجها مع الوجــوه ٠ المهم هو تحـاشى الفـرق ٠ احتفالية الفرق

---

(١) باب يوم الخميس ـ مجلة الأديب المعاصر ـ ترجمة محمود قاسم ٠ حزيران ١٩٨٨ ، ص ٤٦ ٠

تأخذنى · اننى مهدد بخسارة كل شيء · وليست لدى الرغبة فى أن أجد نفسى فى الخـارج مع الآخرين » (١) ·

وتبدأ أحداث الجـزء الثانى من الثلاثية ـ ليلة القـدر ـ حين يموت الأب · ويكون هذا الحادث بمثابة انطلاقة الشرارة لكل مشاعر الأنثى المتفجرة فى الفتاة التى عليها أن تنتبذ اسمها الرجولى · وتعطى لنفسها اسم زهرة · وتقرر أن تنطلق فى المدن والبلاد · وبن جلون يطلق على بطلته اسم « زهرة الزهور » التى تحس كم ينهد صدرها فى جسدها · وترغب أن تعيش حياتها · لكن هل يمكنها أن تهرب من المصـير الذى سجله لها أبوها · عليها أن تترك النسـاء المخنوقات وتذهب الى حيث يقودها جمالها · ورغم أنهـا فتـاة ثائرة متمردة القلب · حيـوان غريب شارد · الا أنها تشعر بأنها قريبة دائما من الله · وتحمل معهـا المصحف الشريف : « انظر كم أنا طفلة ذات هوية مزدوجة وملقحة · أنا طفلة مقنعة ـ حسب رغبة أبى الذى أحس بالخزى والعار لأنه لم يرزق بولد · وكما تعرفون ، فأنا هذا الولد الذى كان يحلم به · أما الباقى فان البعض منكم يعرفه · وسمع الآخرون أطرافه كلام من هنا أو هنـاك · هؤلاء الذين يغامرون بقص حياة ابن الرمل والذين يعانون بعض المضايقات · بعضها حقيقى والبعض الآخـر فشل فى أن يفقدهم روحهم · لنحـكى لكم قصصا · انها ليست قصتى بالفعل · رغم اننى حبست نفسى فيها · فقـد جاءتنى الأخبار · ولست مندهشـة وغير متضايقة · كنت أعـرف أننى سوف أترك خلفى الحكايات المثيرة للدهشـة · ولكن لأن حياتى ليست خزانة · فقد بدأت فى ترتيب الأحداث · وأكشف لكم السر الذى ظل محفورا خلف الجدران السوداء لبيت له سبعة أبواب » (٢) ·

وحول ثنائية الحدث فى الروايتين تكلم بن جلون فى مجلة اليوم السابع : « أما موضوع طبيعة رواية « ليلة القدر » فهى ليست تتمة لرواية « ابن الرمل » وانما هى نظرة مكملة لهـا ·· قد تكون تتمة للرواية الأولى بمعنى اننى أخذت نفس الشخصية ولكنى لم أعالجها كما تركتها فى ختام رواية « ابن الرمل » « بل وضعتها هنا وسط الأحداث وأعطيتها امكانية قص وقائع حياتها ومعايشتها · ستعيش الشخصية حالات صـعبة ومؤرقة لكنها ستخترق هذه الصعوبات لفرض هويتهـا وحتى يعترف بوجودها · والذى سيتعرف بها فى أول الأمر هو انسان ضرير · لماذا ؟ لأن شخصيته

---

(١) ابن شرعى لواقع معقد · كمال طويبة · مجلة « جديد » العدد ١١ ، ١٩٨٦ ، ص ٢١ ·

(٢) La nuit sacrée. T. Ben Jelloun, seuil. 1987, Paris.

« ليلة القدر » المحورية هى شخصية حجبت لفترة طويلة وعاشت فى الخفاء • فليس فى امكانها اذن أن تظهر دفعة واحدة تحت الكشافات وأمام أنظار ستتصفح مفاصلها لتخلع عنها الحجاب الذى كان يغلف هويتها • فمن المنطقى الا تهدى كيانها الجسدى الا الى انسان لا يبصر • هذه هى النقطة الأولى • ثم ثانيا ، فالعلاقة التى ستتوطد عراها بين الأعمى وهو القنصل وشخصية الراوية هى علاقة روحية وفكرية وشعرية (١) •

والطاهر بن جلون يتعامل مع روايته وكأنها « حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة • فنحن لو نقبنا فيها سنعثر بكل سهولة على العناصر التى طبعت الليالى العربية : الجنس فى المقام الأول ، ثم الغرابة ووصف العلم وكأنه جزء من الحقيقة • ثم تحول الشخصيات والأقنعة والأسرار التى يحل بعضها صراحة وبعضها تلميحا •• ثم هناك الأمكنة : الروض والعطار ، والحمام ، والبيوت الحافلة بالغوامض وزوايا الأسوار ، والشخصيات التى تخرج من المألوف سواء أكانت شخصيات الحلم أم شخصيات الواقع : الجلاسة بمظهرها الذى تطنب الرواية فى وصفه ، والعم وزوجته ، وشيخ الروض المعطار ، ثم هناك الجن (فى الحمام) والأشباح • وهناك الوقوف خارج الأزمنة : فالليل يختلط بالنهار ويضيع الزمن من حيث ان مرور الوقت لا يعكس أى تأثير على الأحداث كم أمضت زهرة فى الروض المعطار ؟ كم أمضت فى بيت الجلاسة والقنصل ؟ كم أمضت فى السجن ؟ لسنا ندرى • والطاهر بن جلون يستعير هنا من الحكايات الشعبية العربية هذا الوقوف الملح خارج الزمن • وهناك ذلك المزج المر بين الجنس والعاطفة وبعض الأمور الأساسية الأخرى • ولعل هذا العنصر يتخذ قوته الاستثنائية من كون الرواية تحكى لنا بصوت البطلة نفسها • وهناك أخيرا عنصر الايهام • فتماما كما ان ابن جلون يختتم « ابن الرمل » على حيرة القراء أمام أحمد • كذلك نراه يستمرىء اللعبة هنا فيوقعها فى الابهار ازاء العديد من الأمور • مثلا : ازاء علاقة الجلاسة بالقنصل » (٢) •

يعود المكان واضحا من جديد فى رواية « يوم من الصمت فى طنجة » المنشورة عام ١٩٨٩ والتى يتحدث فيها عن رجل عجوز مريض قابع فى حجرة • وذات ليلة باردة وبينما هو فى وحدته • والجدران

---

(١) الشاعر يشاغب ، حوار خميس خياطى • اليوم السابع • ٢٣ نوفمبر ١٩٨٧ ص ٣٨ •

(٢) رحلة العمر ، ابراهيم العريس • اليوم السابع • ١٩٨٧/١١/٣٠ ، ص ٤٢ •

تسرب الصقيع · تنتاب الرجل رغبة أن يخابر أصدقاءه · ولكنــه يكتشف أن كل الأصدقاء قد ماتوا · فتنتابه الرغبة فى المرأة · ويكتشــف أن الخادمة ليست سوى امرأة دميمة · تنتابه الرغبــة فى أن يقص الأنسجة والأقمشة مثلما كان يفعل فى شبابه فى محله ، ولكنه عندما يحاول أن يفعل هذا يكتشف أن أصابعه ترتعد · ورغم هذا فهو يصر أن يفعل ذلك ، حتى لو ألقى بكل الأدوية من النافذة ·

ورجل مثل هذا ليس له حاضر · لابد أن يعيش فى المــاضى وأن يسترجع فى ذاكرته كل ما حدث وما لم يحدث فى الســنوات الخوالى · وعليه أن يعيد تجسيد الوجوه والأصوات مرة أخرى · وأن يرى ، من جديد ، كيف كان الجيران القدامى كأنه بهــذا يصنع حيــاة داخلية من الصعب الامســاك بها الا فى الذاكرة فى يوم ملىء بالصمت · لا يجىء احد كى يتحدث اليه · وعليه الآن أن يقبل فكرة أنه رجــل عجوز · بل وأن يموت وقداتسع صدره لنهايته الهــادئة ·

وهذا الرجل اقرب فى صفاته الى صورة الأب فى كل روايات بن جلون · لكنه هنا يعيش فى وحدته ويومه الأخير · فهو أيضا عاش بين فاس وطنجة ·· وفتح حانوتا للحياكة فى المدينة · وفى طنجة كان هناك الكثير من الجيران الطيبين · وكانت زوجته تعــانى من أنها قصيرة القامة والرجل العجوز رغم أنه يستسلم للحظة موته ، الا أن هذا لا يحدث بسهولة · فلا شك أن كل هذا الماضى الذى يقبع فى ذاكرته يجعله يقــاوم كى يعيش لحظات أخرى · ويقول بن جلون ردا على أوجه المقارنة بين أبيه وبين هذا العجوز : « لقــد فكــرت دوما فى أبى الــذى عاش دائمــا فى طنجة وأنا اكتب هذا النص · بالنسبة لى فأنــا لم أكن أتصــل به الا بصعوبة · وهذا الكتاب ليس سوى وسيلة لتحديد مشاكله · وليس من أجل حلها » (١) ·

وفى روايته المنشورة عام ١٩٩١ تحت عنوان « غض البصر » ينتقل بن جلون الى احدى المدن البربرية فى جنــوب المغــرب ويجــعل الرواية ، مثلما حدث فى ثنائيته ــ تدور على لسان راوية تواجه عمتها القوية الشكيمة · وتحلم بأبيها الذى رحل الى فرنسا من أجل العمل والذى يمثل بالنسبة لها شيئا مهما · تتصور الفتاة أن أسلافها القدامى قد تركوا لها كنزا فى مكان بجبال طنجة · وأنهــا الوحيدة التى تعرف اسم المــكان الذى به الكنز · وذات يوم يعود الأب من سفره ، بعد أن يموت أخوها القزم كى ينتزع كل أبناء أسرته من جذورهم ويذهب بهم الى باريس ·

---

(١) Un livre a Tanger, Gilles Pudlouski, le point, 8-1-1990, p. 12.

حيث سيقيم الجميع فى حى « جوت دور » ـ نقطة الذهب ـ الذى يعتبر تجمعا للعرب المهاجرين من شمال افريقيا ·

وما أن تصل الراوية الى باريس حتى تكتشف عالما آخر لم تكن تتصور قط انه موجود · فهى ترى السيارات الفخمة لأول مرة · وتطالع الكتب · وتصطدم بالعنصرية الأنانية والحب · وتحس كأنها ولدت من جديد ولكن هل تنخلع من جذورها القديمة ؟·

والفتاة فى هذه الرواية تتسم أن لها عينين جميلتين وواسعتين وجبهة عالية مليئة بالغموض · وفى الكتب التى تبدأ فى قراءتها ، وهى القروية البريئة ، تبدأ فى التعلم أن هناك أشياء جميلة جمال الخيال الذى كانت تتمتع به وهى فى القرية · ولذا فانها تصنع لنفسها ما يسمى بالبعد الثالث ، انه يمزج بين حلمها وخيالاتها وبين ما تراه من واقع ·

ولا شك أن بن جلون فى هذه الرواية « يؤكد توهانه بين منفيين وثقافتين يحاول أن يبحث عن مكانه بين حياتين وحضارتين » (٢) ·

ومثلما فعل فى « ليلة القدر » فان الكاتب يمزج بين الواقع المعاش والأسطورة المتمثلة فى المخيلة · ويقول فردريك فيتو ان بن جلون قد استفاد من تجربة زلزال اغادير الذى حدث فى أوائل الستينات · فقد مات الكثيرون ، لكن من بقوا على قيد الحياة قد فقدوا الذاكرة · وظهر هناك ما يمكن تسميته ببائعى الذاكرة ، ومع ذلك فان البطلة هنا قد عاشت كوابيس بدت كأنها تتبدد · فقد بذلت الراوية هنا الكثير من أجل أن تتعلم القراءة وأن تصنع مصيرها · وهى التى لم يكن عليها سوى الامتثال وهى طفلة صغيرة فى المدرسة ، أصبحت لها الآن شخصيتها الواضحة (٢) ·

هذا هو عالم أشهر كاتب الآن من المغاربة الذين يبدعون باللغة الفرنسية · وقد اخترنا أن نلقى عليه أضواء عريضة لأنه بالفعل النموذج الأكثر وضوحا فى هذا الأدب · الأكثر اخلاصا لبيئته العربية · وصحيح أن هناك أسماء أخرى مثل التى ذكرناها فى بداية حديثنا ·· لكنها ليست بنفس الخصوبة والجودة ·· ويبقى بن جلون الاسم الأكثر معاناة فى الأدب المغربى المكتوب بالفرنسية ·

---

(١) l'eternelle étrangere, Michele Gazier. Telerama 2-1-1991, p. 12.

(٢) La chasse au Tresor, F. Vitaux, le nouvel observateur 10-1-1991, p. 93.

ادريس شرايبى :

ولد ادريس شرايبى فى مدينة الجديدة فى ١٥ يوليو ١٩٢٦ · ويقول قاموس الأدباء المغاربة الذين يكتبون بالفرنسية ان تاريخ الميــلاد غيـر معروف بالضبط · وانه قد اخذ بالتقريب (١) ، كان له خمســة أشـقاء · وقد جاء ذلك من ان أباه كان يتيما من الأب والأم فمال الى انجاب الأطفال· اما أمه فكانت امرأة من طبقة الذوات كما يقول الكاتب · وقد درس ادريس فى مدرسة القرآن الكريم · ثم انتقل الى المدرسة الفرنسـية · وكتب الشعر وهو فى العاشرة من العمر وحصـل على جائزة أدبيـة كشاعر · وفى سبتمبر ١٩٤٥ ترك المغرب كى يدرس علوم الكيمياء فى باريس · وحصل على شهادة فى الهندسة الكيماوية عام ١٩٥٠ · ثم وجه دراسته بعد ذلك الى طب الأعصاب · ولكنه لم يستكمل دراسته العليا فى هذا المضمار · فراح ينتقل مسـافرا بين ايطاليا وسويسرا وبلجيكا والمانيا والنمسـا ويوغسلافيا وانجلترا وأسبانيا ودول أخـرى مارس فيها العـديد من المهن كالصـحافة والهندسـة والتصـوير · وكبائع متجول وحارس ليـل · ومدرس للغـة العربيـة · ويقـال انه عاش عامين فى اسرائيل ، حسبما جاء فى القاموس السابق الذكر باسم مستعار · ثم مارس الكتابة · وعمل منتجا فى الاذاعة الفرنسية · وقد ظلت برامجه تبث لفترة طويلة · وقدم برامج للتعريف بالدين الاسلامى للقارىء الغربى مع الكاتب أندريه روسو · وفى عام ١٩٦٦ اهتم بالمسرح الزنجى · ومسرح الشرق الأوسط · وتزوج من امرأة فرنسـية أنجبت له خمسة أوفـال · وعمل فى عام ١٩٧٠ مدرسـا للغـة العـربية فى مقـاطعة كويبك الكندية ·

نشر ادريس شرايبى روايته الأولى « الماضى البسيط » عام ١٩٥٤· والتى أثارت ضجة كبرى فى تلك الفترة حيث كان الكتـاب جريئـا وحاول أن يمس من هيبـة الأسرة · وخاصة الأب · هذا الأب الذى يسميه الراوية بالسيد · انه يمثل نموذجا حياً للطاغية · وهذه هى المرة الأولى فى بلد يقـدس الأسرة والآباء يرى فيها القـراء كيف يتمرد الابن على ابيـه · هذا الاقطاعى الكبير · لقد كانت هذه الحـالة الجديدة من التمرد بمثـابة تحطيم لأشـياء كثيرة مقدسة خاصة أن ادريس شرايبى قد كتب الرواية كأنها أقرب الى السيرة الذاتية مما أكسبها واقعية وصدقا صدم الناس · وقد تعرض شرايبى للكثير من الضغوط النفسية بسبب الرفض الشديد لما جاء فى هذه الرواية · ورغم انه أنكر نسبها اليه · الا أنه راح يكتب·

(١) Dictionnaire des auteurs maghrébiens, Jean Dejeux Karthala, Paris, 1984.

وجاءت كتبه الأخرى ومنها « التيوس » les boucs عام ١٩٥٥ .
(رواية) ومجموعة قصص تحمل عنوان « من كل الأفق » de tous les
horizons عام ١٩٥٦ . ثم « الزحام » la foule عام ١٩٦١
(رواية) و « متابعات مفتوحة » succession ouverte (رواية)
عام ١٩٦٢ . ثم « سيأتى صديق لرؤيتك » un ami viendra vous voir
(رواية) ١٩٦٧ . ومجموعة مقالات تحمل عنوان « الحضارة أمى »
la civilisation, ma mére و « الذاكرة الموشومة » عام ١٩٧٠
la memoire totouée ررواية تحمل عنوان « الموت فى كندا »
la mort au canda و « مهمة فى البلاد » une enquiète au jays
١٩٨١ و « أم الربيع » la mère du printemps عام ١٩٨٢ . و « مولد
فى الفجر » naissance a l'aube عام ١٩٨٦ و « المفتش على »
inspecteur Ali عام ١٩٩١ .

وادريس شرايبى يقيم فى باريس بصفة دائمة منذ عام ١٩٦٥ .
ومثل كل اقرانه . لم يشأ أن يخرج عن جلده . فهو يكتب عن البيئة العربية التى عاش فيها ولكن فى أعماله الأخيرة امتزجت بشخصيات عربية وأخرى فرنسية . فعلى سبيل المثال فان روايته « الذاكرة الموشومة » تدور احداثها فى قرية بشمال افريقيا فى ليلة الاستقلال فهناك شاب يدعى « بول ريفير » — انه ابن الاستعمار . يرفض فكرة أن ينفصل عن الأرض التى ولد فيها . وكى يهرب من هذا الواقع المرير الذى عليه أن يواجهه ، فانه يفكر فى انشاء تمثال تذكارى على هيئة ساعة .

وفى أحد البارات بمدينة طنجة يلتقى بامرأة بريطانية تدعى بيتى .
وهى امرأة نفعية تحاول أن تتعرف عليه وتغويه فيقع فى هواها .
وتتلاحق الأحداث بسرعة ويصبح على « بول » أن يرحل ولكن هناك شيئا يمزقه . تمر عدة سنوات . رحلت زوجته مريم الى المدينة على أمل أن تحصل على عمل . وذهب معها زيجو صديقه الحميم . والرواية مزدحمة بالشخصيات فهناك ولدا العم عثمان ، وونيس الذين يعملون فى اصلاح السيارات . أما زيجو فيصبح حارسا على مقبرة للسيارات بينما ونيس الشغوف بالميكانيكا يروح يبحث عن شبح «بيتى» فى كل سيارة تمر أمامه ويحس كأنه يتشمم عطرها . ويفاجأ ذات يوم أن زيجو قد اشترى له سيارة قديمة أشبه بالتى كانت تقودها بيتى . ويذهب ونيس ذات ليلة الى أحد البارات ويكتشف أن المرأة التى تغنى كل ليلة وتصنع المتعة للزبائن ليست سوى «بيتى» .

ترى «بيتى» حبيبها القديم فى صورة ونيس فتحتفى به • ويعـرف انها كانت تحب أباه بول ريفيير الذى يشبهه كثيرا • وينتبه ونيس الى خطيئته التى سيرتكبها فيشترك فى سباق السيارات ويحس أن السيارة وهى تنطلق لتكسب السباق كأنها تخلصه من الامه الجسدية •

وفى روايته « مولد فى الفجر » يبدو الكاتب مهموما بمسألة اتصال الشرق بالمغرب • والسياسة التى يرى أنها فى حالتى صعود وهبوط •• وبطل الرواية سيدى قاسم رجل يبحث عن جذوره • وعن أجداده لذا فهو يتوجه الى الجبل كى يبحث عن بقايا وآثار هؤلاء الأجداد • فهناك قبل اثنى عشر قرنا وفى عام ٧١٢ ، حضر الأجـــداد لفتح الأندلس من خلال جيوش طارق بن زياد • « كانت قوات الاسلام جميلة • وجديدة • كان الدين مفتوحا • واستقبل فى احضانه كل المقهورين وساوى بينهم • وحولهم الى منتصرين كبار • هذه هى العشيرة الكبرى » (١) •

والعرب فى رواية شرايبى قوم مليئون بالحيوية والنشاط • استطاعوا ان يجتازوا الزمن فوق دوابهم • ويتحدث الكاتب عن شخصية قادرة على صنع المعجزات • وتحاول أن تعثر على عصر جديد افضل مما يحدث الآن• وهناك أيضا شخصية عزاوايت الذى جاء من أعماق التاريخ كى يولد من جديد ويحمل كل شىء على يديه • وتقول الناقدة آن براجانس : « يجب ان نقول ان شرايبى يقـــدم هنا أحد أجمـل مشاهده الطفولية التى يمكن قراءتها • فعند لحظة الموت نعرف أن اباه هناك •

« لا فرق بين الموت والحياة فلا أحد يمكنه أن يميز بينهما • ولا أحد يفصلهما سوى هذه المسافة وهى الحياة نفسها » (٢) •

أما روايته « المفتش على » فتدور على لسان الراوية ابراهيم عرورق الذى أصبح مشهورا على المستوى العالمى بكتابة الروايات البوليسـية التى بطلها شخص يدعى المفتش على • والكتب التى تحكى عن هذا المفتش تحقق كسبا عاليا • كما انها تحصل على جوائز ادبية • لقد قضى ابراهيم سنوات عديدة فى فرنسا • وها هو يعود الى بلاده المغــــرب مع زوجته فيونا ، وهى امرأة اسكتلندية جميلة أشبه بعـرائس البحر • الآن عـلى فيونا ان تنتظر قدوم ابنها الثالث ، كما أنها تنتظر قدوم والديهـا من

---

(١) Naissance a l'aube, Driss charaibi, le seuil Paris, 1986.

(٢) Driss Charaibis, le monde 14-5-1986, p. 18.

ادنبره ، ولا شك أن مثل هذه الزيارة ستكون ساحة خصبة للصراع والمواجهة بين مجتمعين مختلفين تماما · فالزوجان ـ والدا فيونا ـ يقومان بجولة فى المدينة ويعلق أحدهما قائلا : « اننا فى بلاد لا تمشى فيها الأشياء ، فالناس هنا فى بطالة » ·

أما الكاتب على لسان الزوج المؤلف فهو يرى أن أوروبا ليست سوى قصص مرسومة · أو سلاسل من الحكايات الساذجة · ورغم أن شهرته جاءت من كتاباته التى يؤلفها لهم · وان الناس يسمونه « ملك أكشاك بيع الكتب » الا أنه لم يلتحم تماما مع هذه الحضارة ·

قائمة بأهم أدباء المغرب الذين يكتبون بالفرنسية

بارودى ، عبد الله :

سياسى وشاعر وجامعى . عاش فى المنفى فى فرنسا لسنوات عديدة من اعماله النثرية « المغرب تبحث عن ثورة » عام ١٩٧٢ . ومن اشعاره دواوين « المغرب أو ذاكرة المنفى » عام ١٩٧٩ . و « اشعار فوق الأرواح الميتة » عام ١٩٨٢ .

بلزميتى علوى ، محمد (١٩٥١) :

ولد فى الدار البيضاء . درس الأدب فى جامعة باريس ، ثم درس ١٩٧٧ . ثم « اشعار Poemes » و « اتساع الموت المعطر » ١٩٨٥ .

بلهاشى ، احمد (١٩٢٧) :

ولد فى الدار البيضاء . درس الأدب فى جامعة باريس . ثم درس فى كمبردج . ثم عمل بعد الاستقلال ملحقا فى مجلس الوزراء للسلطان محمد الخامس . قام بتدريس الانجليزية فى بريطانيا وفرنسا . عمل مديرا للمركز السينمائى بالرباط . له مسرحيتان « الآذان ذات الوشاح » عام ١٩٥٦ . و « حصن الرمل » عام ١٩٦٢ .

بلهاشى ، عبد القادر (١٩٢٧) :

ولد فى الدار البيضاء . ودرس فى جامعة كمبردج . عمل مديرا للمركز الثقافى المغربى بين عامى ١٩٥٨ و ١٩٥٩ . قام بتدريس اللغة الفرنسية فى بريطانيا وعمل سكرتيرا لسفارة المغرب فى واشنطن . نشر مسرحيته الأولى « المتبرجة » ١٩٥٢ ، ورواية « ثريا » . أو « الرواية التى لم تنته » عام ١٩٦٠ .

بن جلون ، الطاهر (١٩٤٤) :

(انظر الفصل السادس) .

بن حمزة ، عبد الرحمن (١٩٥٢) :

ولد فى مراكش · يعمل مدرسا للغــة الفرنسية وناقدا · شــاعر · من اعماله « المسافر » عام ١٩٧٥ · و « اضواء هشة وصحراء شاسعة » ١٩٧٧ · ثم كتاب نثرى بعنوان « من يوم لآخــر » عام ١٩٨٠ ·

خطيبى ، عبد الكبير (١٩٣٨) :

ولد فى الجديدة · درس علم الاجتماع فى السربون · ثم حصــل على الدكتوراه عام ١٩٦٥ · يعمل مدرسا فى كليــة الآداب بالرباط · روائى وشاعر وباحث وناقد من رواياته « الذاكرة الموشومة » عــام ١٩٧١ · و « كتاب الدم » ١٩٧٩ · ومن مسرحياته « النبى المحجب » عام ١٩٧٩ · ومن اهم دراساته « فن النسخ الغربى » عام ١٩٧٦ ·

خير الدين ، محمد (١٩٤١) :

ولد فى طفروت من ابوين نجارين · اكتشف الشاعر «رامبو» واحبه· ويكتب بالعربية والفرنسية ، صادق شعراء فرنسيين · وتزوج بفرنسية · اسس مجلة «انفاس» عام ١٩١٦ مع عبد اللطيفـلعبى ثم مجلة «المياه الحية» ثم رحل الى فرنسا عام ١٩٥٦ ، شاعر من اهم دواوينه « غثيان اسور » ١٩٦٤ ، و « شمس العناكب » عام ١٩٦٩ ، و « هذه مراكش » ١٩٧٥ ، و « بعث الزهور البرية » عام ١٩٨١ · ومن رواياته « اجسام سلبية » ١٩٦٨ و « الخــارج من الأرض » ١٩٧٣ · و « حيــاة وحلم وشعب » عام ١٩٧٨ ·

سفريوى ، أحمد (١٩١٥) :

ولد فى فارس فى أسرة بربرية · درس فى مدرســة قرآنية · ثــم مدرسة فرنسية · ومارس العديد من المهن · ثم بدأ فى نشر اعماله عام ١٩٤٣ فى الصحف ثم عمــل فى وزارة الثقــافة · يقيم فى المغــرب · روائى · من اهم اعماله : « كنيسة عنبر » ١٩٦٤ · و « علبة العجائب » ١٩٥٤ · و « مراكش » عــام ١٩٥٦ ، و « الحلم بمــراكش » ١٩٧٠ ، و « منزل العبودية » ١٩٧٣ ·

سليم ، جاى (١٩٥١) :

ولد مع اخيــه فريد لأب مغربى وأم رومانيــة ، رحلت الأسرة الى باريس عام ١٩٧٣ · شارك فى العمل فى مجــلات نقدية ادبيــة · روائى · وناقد · من رواياته « الاسبوع ١٠ ومدام سيمون فى سن المائة » عــام ١٩٧٩ ، ثم « مجنون القراءة » او « الأربعين رواية » عام ١٩٨١ ، ثــم « ستكون طاغية يابنى » عام ١٩٨٢ ·

شارابيى ، ادريس (١٩٢٦) :

(انظر الفصــل السادس) ٠

لحبابى ، محمد عزيز (١٩٢٧ ـ ١٩٩٣) :

ولد فى فاس ٠ ودرس فى باريس ، ثم حصــل على الدكتوراه فى الفلسفة ٠ عمل مدرس فلسفة فى كلية الآداب بالرباط ٠ ثم عميدا الكلية عام ١٩٦١ ٠ أسس اتحاد الكتاب فى المغرب ٠ وسافر الى بلاد عديدة ٠ صار عضوا فى مجمع اللغة العربية ٠ يقيم فى مراكش ٠ كاتب مقال ٠ وشاعر ٠ من أعماله الشعرية « أغنيات الأمل » ١٩٥٢ ٠ «بؤس وضياء» ٠ « أغنيـــات الأمل الجــديد » ١٩٥٨ ، و « صــوتى يبحث عن طــريق » عام ١٩٦٨ ٠

لعبى ، عبد اللطيف (١٩٤٢) :

ولد فى فاس ٠ ودرس فى الرباط ، ثم قام بتــدريس الفرنسية ، الى أن تم القبض عليه عام ١٩٧٢ ٠ كتب أولى قصائده عام ١٩٦٢ ٠ تزوج من فرنسية عام ١٩٦٤ التقى مع ٣ شعراء مغاربة : خير الدين ، نيسابورى ، وقرروا انشاء مجلة « نفحات » عام ١٩٦٦ ٠ فى عام ١٩٧٢ تم القبض عليه مرتين بتهمة قيامة بأعمال ضد أمن الدولة ٠ وحكم عليه بالسجن عشر سنوات وتم الافراج عنه عام ١٩٧٥ ٠ فسافر الى باريس ٠ ثم عاد للاقامة فى المغــرب ٠ وخرج منها مرة أخرى عــام ١٩٨٢ ٠ شاعــر ٠ من أهــم دواوينه « شجــرة الحــديد المزهــرة » عام ١٩٧٤ و « تحت الكتمان » وهى أشعار مكتوبة فى الســجن ٠ ومنشور عــام ١٩٨١ ٠ أما دراساته فهنــاك « الشعر الفلسطينى فى المعركة » عام ١٩٧٥ ٠

المالح ، ادمون (١٩١٧) :

(انظر الفصــل الثامن) ٠

هاشمى ، بن سالم (١٩٤٧) :

عمــل مدرسا فى كلية الآداب بالرباط ، شــاعر وناثر من أشــعاره « اذا لم نستعرض التغييرات الكبرى » عام ١٩٨٠ ، وكتاب عن الانسان تحت عنوان « من الشكل الأيديولوجى للاسلام » عــام ١٩٨٠ ٠ والــذى كتب له المقدمة مكسيم رودنسون ٠

نيسابورى ، مصطفى (١٩٤٣) :

ولد فى الدار البيضاء ٠ التقى بمحمد خير الدين واشترك معــه فى تأسيس مجلة « أنفاس » ، شــاعر ٠ من دواوينه « ذكريات عالية جدا » ١٩٦٨ ٠ و « الليلة الثانية بعد الألف » عام ١٩٧٥ ٠

الفصـل السـابع :

الأدب التونسى المكتوب باللغة الفرنسية

حسب كتاب « الأدب الفرانكفونى منذ عـام ١٩٤٥ » فـان الأدب المكتوب باللغة العربية فى تونس سواء قبل سنوات الاستقلال (١٩٥٦) أو بعدها قد جعل من الأدب المكتوب بالفرنسية أدبا هامشـيا (١) · وذلك بالطبع قياسا الى الأدب المكتوب بالفرنسية فى كل من الجزائر والمغرب وباعتبار أن دول المغرب العربى قد سـيطر عليهـا الاسـتعمار الفرنسى وثقافته سنوات متقاربة زمنيا · الا أنه لم تحدث فرنسة لتونس بنفس الدرجة التى حدثت فى الجزائر على سبيل المثال · لذا فبمتابعة قاموس الأدباء المغاربة الذين يكتبون بالفرنسية الذى أعده جان ديجو عام ١٩٨٢ سنرى ليس فقط أن عدد الأدباء التونسيين الذين يعبرون بالفـرنسية أقـل عددا · بل أيضا أقل شهرة وأهمية من الأدباء المغربيين والجزائريين ·

ومنذ بداية الاستعمار الفرنسى لتونس · فان المدارس العربية لـم تتوقف عن العمـل ، وعن تلقين أبنائها اللغـة العربية · وسوف نرى أن أبرز أدباء تونس يكتبـون باللغة العـربية مثلما يكتبـون بالفرنسية · ومن بين المدارس البارزة التى لم تتوقف عن تعليم اللغـة العـربية مدرسة «صديقى» · كما أن هناك العديد من المدارس كانت تقوم بتعليم اللغـة الفرنسية الى جوار اللغة العربية الأساسية · ولعبت جامعـة الزيتونة دورا بارزا فى تعليم العربية والاحتفاظ بها ·

وكما سبقت الاشارة ، فان الأدباء التونسيين كانوا يفضـلـون دوما اللغة العربية · حتى الكاتب اليهودى البير ميمى · فان لغتـه العـربية كانت مميزة أكثر من الفرنسية · وقـد تغيرت الموازين الى حد ما فى نهاية الستينات ، حين لاحظ التونسيون ان فرص النشر فى فرنسا أفضل ·

---

(١) مرجع سابق · La litterature francophone depuss 1945.

فى هذه الفترة كان الصغار الذين عاصروا الاستقلال قد اصبحوا كبارا . ولم يعد هناك خوف من الثقافة الفرنسية بنفس الحساسية التى حدثت فى الجزائر . فعقب الاستقلال اهتمت الحكومة بانشاء المزيد من المدارس العربية . ولكن هذا لم يمنع الناس ، فى ظل سياسة انفتاح ، أن ينشروا كتبهم بالفرنسية فى تونس ، خاصة أن دور النشر التى تطبع باللغة الفرنسية لم تتوقف عن العمل . ولكن هذا لم يمنع الكتاب التونسيين من البحث عن فرصة للنشر ـ كما سبقت الاشارة ـ خارج الحدود .

لعل الشعر كان الفن الأول الذى استخدمه الكاتب التونسى لمواجهة الاستعمار ، ومن أجل بث الحماس فى قلوب المناضلين ضد الاستعمار . ومن أبرز هذه الأسماء الشاعر عبد المجيد طلاطلى الذى جمع فى شعره بين الحماس والحكمة . فكرس شعره من أجل كراهيته الدم والتسلط والعنف . وهو من مواليد عام ١٩٢٨ . درس فى مدارس نابول الثانوية . وحصل عام ١٩٥٢ على جائزة قرطاج عن مجمل أعماله ولم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين من العمر . وقد الهمته هذه الجائزة ديوانه الأول المنشور فى نفس العام تحت عنوان « فوق رماد قرطاج » . وفى العام التالى نشر ديوانه الثانى « اعراس فوق رماد قرطاج » . ثم نشر فى نفس العام « رجال وأرواح » ، وكل أعماله منشورة باللغة الفرنسية فى تونس . كما ظلت أعمال كثيرة له فى الأدراج ولم تنشر حتى الآن ومنها ديوانه « سوف أصلى فوق مقبرتك » .

أما الشاعر الثانى فهو كلود بناوى المولود فى عام ١٩٢٢ . والذى بدأ حياته صحفيا عام ١٩٤٧ وأعتبر من أهم الأدباء الطليعيين بعد الحرب العالمية الثانية . كما اهتم مثل العديد من هؤلاء الطليعيين، كما حدث فى مصر مع مجموعة الفن والحرية ، بالفن التشكيلى . وكان صديقا للكثير من السرياليين الفرنسيين . وقد سافر كلود فى عام ١٩٥٧ الى باريس واستقر بها .

وكلود من الشعراء الذين ظهرت موهبتهم فى سن مبكرة . فقد بدأ حياته كروائى فى عام ١٩٤١ من خلال روايته « حمامات . زهرة الحب » ثم نشر ديوانه «لون الأرض» عام ١٩٥١ وتوالت دواوينه المنشورة فى تونس « لنعاود الحب » عام ١٩٥٣ ، و « الزمن كالفصول » عام ١٩٥٤، ثم « الصيف القادم من البحر » وهو من الشعر المنثور عام ١٩٧٢ . وقد اهتم كلود فى أعماله بالطبيعة . ويبدأ مدى شغفه بالالتصاق بالحياة المليئة بالضياء والاشراق . حيث يقول فى ديوانه « الصيف القادم » وهو كما اشرنا من الشعر المنثور :

« لا الصباح يولد الليل ، ولا الثمرات وطعمها ، لا الثمـــار ، ولا الملح منذ زمن المنفى كانوا قادرين على أن يخففوا من احساسى بالبهجة »٠

ومن بين هؤلاء الشعراء أيضا هناك صلاح جـــرمادى المولود فى حلفاويين عام ١٩٣٢ ، ودرس فى مدارس صديقى الثانوية ، ثم حصـل على شهادة لتدريس اللغة العربية واخرى فى اللغة الانجليزية ، ثم عمـل مساعدا فى المدرسة العليا بتونس ، وقد جاءت أهميته من خلال مجموعة المقـالات التى كتبها عن الأدب التونسى ومشـاكل اللغة والتعـريب فى العديد من المجلات ، وقد ترجم الى اللغة العـــربية الكثيـــر من الكتب الفرنسية فى اللغويات ، وروايات مالك حداد ورشيد بوجدرة ، وقد نشر ديوانه الأول عام ١٩٧٠ تحت عنوان « الهامة العالية » ، وفى عـــام ١٩٧٥ نشر ديوانه الثـانى باللغـة الفـرنسية تحت عنـوان « أجـدادنا البدويون » ٠

وفى عام ١٩٨٢ مات صلاح جرمادى فى حادث سيارة وقد اخترنا من ديوانه « أجدادنا البدويون » قصيدته « أكون أكون » :

أنا هادىء فهل أنا هادىء ؟ ٠
هل يأتى الصخب من المدينة ؟ ٠
أنا مبتهج بشوش ، فهل أنا مبتهج بشوش ؟
بكل هذه القنابل ذوات الفتيـل
وهؤلاء الرجال المدججين
انا سعـيد فهل انا سـعيد ؟
لى امرأة تغنى ولها أمانيها
ولى سـيارة تدور على عجـــلاتها
وكل الأطفـال الحـزانى من البكارة
وهؤلاء الغرقى الذين يسبحون فوق المرعى
لقـد وصلت ، فهل وصلت ؟ ٠
وهذه القنابل التى تتساقط كأنها الفتحات
وهذه الواحات الحمراء حيث تحلم اللغـات (١) ٠

وقد أقام العديد من الكتاب التونسيين لفترة فى فرنسا ، ولكن الكثير منهم ما لبث أن عاد الى بلاده ، مثل صوفى الجولى وعبد العزيز قاسم ،

---

(١) Nos ancetres, les bédouins. Salah Garadi, Paris, p. Joswald., 1975.

ومنصف غانم الذى ظل فى باريس حتى وفاته · وهناك أيضا الكثير من الأسـماء التى ظلت متأثرة بلغتها الفرنسية مثل طاهر بكرى وشمس نادر، والعبرى بن على ، وأمينة سـعيد ، والذين اختاروا الاقامة فى فرنسا ·

ويعتبر منصف غانم المولود عـام ١٩٤٧ من أبرز من حاولوا أن يجدوا طريقا جديدا لابداعهم الشـعرى · وكما يقـول عنه جان ديجى فى قاموسه عن الأدباء المغاربة الذين يكتبون باللغة الفرنسية انه يعد من أهم الشعراء التونسيين الذين كتبوا بالفرنسية فى الجيـل الحـالى ·

ويهمنا هنا أن نترجم له قصيدته « من هجـرنا » من ديوانه « لأن الحيـاة وطن » المنشـور عام ١٩٧٨ ومن أعمـاله الأخرى ديوان « ١٠٠ ألف عصفور » الذى نشره على نفقتـه الخاصـة عام ١٩٧٥ · يقـول الشـاعر :

انا جـائع ·
جائع للافق الملىء بطيور النورس والعقاب
والقـلائك
ذوات الاشرعة البيضـاء
احب الزرقة الرقيقـة
وقبضـات البحـارة
فوق جباههم العـالية
احب الفجـر
فى البـاب الشـاحب
والظـلال
فى سـلال الأطفـال
فوق أهداب الأرامل المتيقظـات
احب عطر السردين الفـواح
وميـلادى
الأكثـر تهيجـا
من البحـر
اعـارض المـلوك
واجمـع الأسـماك المتخمـة
للشرهين واللصـوص،

بالأمس • عندما حلم سرطان البحر بالحبـــار

وحتى اغوص فى الصـــخر

التهمت المحـارات الطـــويلة

ويعتبر عبد المجيد الحص ايضا من بين الشعراء البارزين فى اللغـة الفرنسية • وهـو ينتمى الى البـربر ، مولود فى ٢٠ ينـاير ١٩٤١ فى بومروس • ويعمل حاليا مدرسا للأدب الفـرنسى والأدب الفرانكفونى فى جامعة بادى بايطاليا • وهو يكتب المقال والدراسة الأدبية • نشر ديوانه الأول « أريد أن احكى لك سرا » عام ١٩٧٢ • ثم « صورة السكرة » عـام ١٩٧٣ • ثم « ايريس ـ افريقيا » عام ١٩٨١ وفى هـذا الديوان يقول فى احدى قصـــائده :

وفقدت ورق نعناعى

وزهور الياسمين التى احملها فوق اذنى اليمنى

فى المســـاء

اشقائى واصدقائى الذين لا اعـرف اسماءهم

فى منفاى البـــارد الغـــائب

فى انقشاع الضـــباب الخفى

وفى مجال الرواية التونسية المكتوبة باللغة الفرنسية يبرز الـكاتب البير ميمى كابرز اسم فى عالم الابداع الروائى ـ راجع الفصل الثامن حول الأدب العربى اليهودى المكتوب بالفرنسية ـ تجىء من بعـده مجمـوعة من الأسـماء من ابرزها : هاشمى بابكوش المولود فى اسرة ثرية بتونس عام ١٩١٧ • وقد تولى رئاسة الوزارة التونسية لفترة قبل أن يتم عزله عام ١٩٥٢ قبل الاستقلال • وعندما وجد أن الناس قـد نسيته عقب الاستقلال سافر الى فرنسا عام ١٩٥٣ وتزوج من ايطـالية • ونشر روايته الأولى « تبقى ذمتى » عام ١٩٥٨ • كما كتب المسرحية ولكن من أهم اعمـاله الأخرى « سيدة من قرطاج » •

وتعتبر رواية « تبقى ذمتى » واحدة من ابرز الروايات التونســية المعاصرة المكتوبة باللغة الفرنسية • وهى بمثابة سيرة ذاتية للكاتب مليئـة بالرقة والتنوع • فبطل الرواية محمد يخبرنا انه يود أن يؤلف كتابا يريد أن ينزع من خلاله بعض مشاعر الخـزى من المسلمين • وأن يمنعهـم أن يقولوا انهم يحبون فرنسا وبعض الفرنسيين • ومحمد هنا لا يخفى حبه الشديد لفرنسا • ولكنه رجل بالغ الوفاء لوطنه •

وقد بدت نفس النغمة عند الكاتب فى روايته الثـــانية « امرأة من قرطاج » فهى تتحدث عن علاقة حب بين رجل مســلم وامرأة مسيحية ، فى وقت يوافق فيه شيخ عجوز على أن يزوج ابنته من رجل غير مسلم · ويقول جان ديجو : « ان المؤلف يعطى العـــلاقات سمات انســانية · ففى الرواية الأولى أراد أن يفسر أسباب انحسار الاستعمار · وهو يتحدث أن الأطفال غالبا ما يكونون ولبدى زواج مختلط · كما يقــول محمد : « انهم يتربون قبل كل شىء فى ثقافة انسانية محترمة قائمة على احترام العقيدة » (١) ·

ومن ابرز الروائيين الذين يكتبون باللغة الفرنسية هناك صلاح الدين يحبرى ، وعادل عروى ، ثم هناك مصطفى قليلى ، وعبد الوهاب مدب ، وسعاد جلوز وهيليه بيجى ·

فمصطفى تيليلى ، على سبيل المثال ، مولود عام ١٩٣٧ ولكنه عاش فى نيويورك ثلاثة عشر عاما عمل خلالها فى الأمم المتحدة ثم استقر للاقامة فى باريس عـــام ١٩٨٢ · نشر روايته الأولى عام ١٩٧٥ تحت عنــوان « غضب الأمعاء » ثم « الصخب النائم » عام ١٩٧٨ · و « مجد الرمال » · عام ١٩٨٢ · وتدور احداث روايته الأولى حول رجل جــزائرى يدعى جلال بن شريف يبحث لنفسه عن هوية بعــد نهــاية حرب الاستقلال · فيقــرر أن ينضم الى الفلسطينيين من اجل محاربة اسرائيل · أما روايتـــه الثـانية فهى عن رجل انضم الى الخمير الحمر · وفى الرواية الثالثة يتحـــدث عن الحادث الارهابى الذى تم فى مكة فى الثمانينات وقيام الشاب المناضل الجزائرى يوسف منتصر بالتصـــدى لهؤلاء الارهابيين مع قوات الأمن الســـعودية ·

وفى حياة أبطال روايات تيليلى هنــاك دائما امرأة ، ومواجهـــة ضد الهشاشة والخديعة الداخلية · ويرى الكاتب فى هذه الروايات أن نيويورك مدينة رائعة من اجل المنفى · انها نفس المدينة التى عاش فيهـــا الكاتب ثلاثة عشر عاما · وأبطال رواياته دائما من المناضلين ويؤمنون بالقضايا التى يدافعون عنها · مثل مولاى منتصر الذى مات برصـاصة غادرة عند المســجد الحــرام ·

ويهمنا أن ننقل ذلك الحوار الراقى بين الأم وابنها جلال فى رواية « غضب الأمعـــاء » :

---

(١) المصدر السابق ·
Le dictionaire des auteurs maghrébiens.

ـ يا بنى ٠ سيكون الله معك لو انشغلت بتحسين نفسك ٠

ـ نعـــم يا أمى ٠

ـ يا بنى ٠ تذكر اجدادك ٠ فأنت ابن شريف ٠ ولن تفعل الشــر ابـــدا ٠

ـ أجـل ٠ أعـــدك يا أمى ٠

ـ صل ليل نهـار كى يرحمك الله ٠ وان يحفظك من الشر ٠

ـ ليكن الله معنا يا أمى ٠

ـ ليحفظك من شر هذه الأرض ٠

ـ ليكن الله معنا يا أمى ٠ ومع كل مخلوقات الأرض ليقتلع الشر من الأرض ٠

ـ ليحفظك لأمك يا ابنى ٠ لذا فصل ليل نهار ٠ دائما استيقظ فى الليل بغتة بعـد أحلام مزعجة ٠ وتضرع فى الصلاة لله حتى ينبلج الصبح من أجلك ؛ لأننى ليس لى سواك يا بنى » (١) ٠

واغلب الروائيين التونسيين الذين يبدعون باللغة الفـرنسية يكتبون رواياتهم عن تجاربهم الخاصة ٠ ومثل هذه الروايات تعتبر بمثـابة سيرة حياة للكاتب ٠ مثل رواية « الطلسم » ٠ وهى الرواية الوحيـدة للكاتب عبد الوهاب مدب ، ومنشورة عام ١٩٧٩ حيث يعتبـر بطلها رجـلا يبحث عن جذوره بين لغته والأماكن التى ينتمى اليهـا ٠

---

(١) La rage aux tripes, Mustapha Tlili, Gallimard, Paris, 1975.

قائمة بأهم أدباء تونس الذين يكتبون بالفرنسية

اصلان ، محمود (١٩٠٢) :

ولد فى تونس من أسرة ذات أصل تركى . والأم مصرية . درس فى المدارس الفرنسية العربية . ثم استكمل دراسته الثانوية فى مدرسة سوق العطارين . وسافر الى باريس عام ١٩٢٣ . وعمل موظفا ثم عاد الى تونس . وظل يتنقل بين البلدين وتزوج من امرأة فرنسية . عمل فى الصحافة المحلية فى تونس لسنوات طويلة . كتب الرواية والمسرحية . من أهم أعماله « مشاهد من حياة الريف » عام ١٩٣٢ ، « بين عالمين » مسرحية عام ١٩٣٢ ، ورواية « عينا ليلى السوداوان » عام ١٩٤٠ . و « حكايات الجمعة » عام ١٩٥٤ .

برعوى ، حدى (١٩٣٢) :

ولد فى صفاقس . درس فى فرنسا ثم الولايات المتحدة . قام بالتدريس فى جامعة تورنتو . شاعر . من أعماله الشعرية « مرتعد » عام ١٩٦٩ ، « بلا حدود » ١٩٧٩ . ثم « طريق حيتو » عام ١٩٨٠ .

بقاوى ، كلود (١٩٢٢) :

(انظر الفصل السابع) .

بوهدية ، عبد الوهاب (١٩٣٢) :

ولد فى القيروان . وحصل على بكالوريوس فى الفلسفة . ثم دكتوراه فى الأدب من السربون . يدرس فى جامعة تونس . كما قام بالتدريس فى العديد من الجامعات الأوروبية والأفريقية . شاعر وكاتب مقال . من أهم أعماله « لآلىء الوهم » شعر ١٩٥٠ ، «الجنس فى الاسلام» عام ١٩٧٥ .

جارمادى ، صلاح (١٩٣٣) :

(انظر الفصل السابع) .

الحص ، عبد المجيد (١٩٤١) :

(انظر الفصل السابع) .

خليفـــة ، صـــلاح :

شاعر ٠ يقوم حاليا بتدريس التـاريخ والجغرافيا ٠ نشر ديوانه الأول « دائرة الجوعى » عام ١٩٧٣ ٠ ثم « أمير الدم » عام ١٩٧٤ ٠

عـــزيزة ، محمـد (١٩٤٠) :

درس فى باريس وعمـــل فى الاذاعة الفرنسية كمخـــرج ٠ وقـام بالتدريس فى الجـزائر ٠ كتب المقال والدراسات الأدبية والحكايات ، من اهم اعماله « المسرح والاسلام » عام ١٩٧٠ ، و « الاسلام والصورة » ١٩٧٨ ، و « اسطرلاب البحـر » ١٩٨٠ ٠

غانم ، منصف (١٩٤٧) :

(انظـر الفصـل السابع) ٠

نعمـــان (١٩٣٨)

روائى ومراسـل صحفى ، نشر روايته الأولى تحت اسم مستعار هو كولمان تحت عنوان « السارى » ١٩٧٠ ، ثم نشر روايته الثانية «عبودية الانســــان » عام ١٩٧١ ٠

هاشمى باكوس (١٩١٧ —)

(انظـر الفصـل السابع) ٠

(★) ملحوظة : اعتمدنا فى الرجوع الى هذه الاسماء على كتاب le dictionaire des auteurs maghribiens ومن الواضـح أن القسـم الخـاص بتونس قد ضـم اسـماء اقل بكثير مما جاء فى قسمى الجزائر والمغرب ٠ وكانت اغلب الاسـماء التونسية تعمل فى مجال الكتابة غير الابداعية ٠

الفصل الثامن

أدباء عرب •• يهود •• يكتبون بالفرنسية

لم تبرز مسألة الدين لدى الأدباء العرب الذين يكتبون بالفرنسية ، مثلما يحدث فى الكثير من الآداب العالمية •• فقد كتب كل من المسلمين والمسيحيين واليهود باللغة الفرنسية • وذلك لأن ابناء الأديان الثلاثة قد وجدوا انفسهم فى ظروف اجتماعية • وفى أسرات تتكلم اللغة الفرنسية • وقد ارتبطت هذه الظاهرة بالطبقات الاجتماعية التى ينتمى اليها هؤلاء الأدباء بصرف النظر عن اديان كل منهم • فقد كانت المدارس المسيحية فى مصر تضم فى تلاميذها الكثير من المسلمين • وأيضا من اليهود • ومن المعروف ان المسلمين قد ارتفع عددهم كثيرا فى هذه المدارس عن المسيحيين • ولم تكن مسألة الأديان حساسة بالتالى عند الأدباء الذين كتبوا بالفرنسية •

كما أن اغلب الأدباء الذين كتبوا بالفرنسية قد هاجروا طواعية الى فرنسا باعتبارها الأرض الخصبة للغتهم • وباعتبار أن دور النشر يمكن أن تفتح لهم ابوابها مثلما فتحت لأقرانهم الذين سبقوهم • فتدفقوا الواحد تلو الآخر • وقد هاجر هؤلاء الكتاب من مسلمين أيضا ومسيحيين ويهود ومعهم اديانهم التى لم يفتقدوها فمارسوا شعائرها فى أى مكان ذهبوا اليه • ولم يكن هناك افتقاد للشعور الدينى • ولكن كان الافتقاد الأكبر هو الحنين الى الوطن الذى عاشوا فيه • وتربوا هناك اثناء طفولتهم • ودائما ما تكون الطفولة أسعد الأيام ، وبها أجمل الذكريات لدى الكثيرين •

وهناك سمة فى الأدباء اليهود الذين يكتبون باللغة الفرنسية ، والذين تركوا بلادهم العربية ، تحسب لهم • وهى أنهم جميعا لم يهاجروا الى اسرائيل مثلما فعل أغلب اليهود فى الشتات • بل اتجهوا لفورهم الى فرنسا • وفى القائمة التى لدينا عن هؤلاء الأدباء فانهم لم يعملوا فى مجال السياسة • ولم يصل الى مسامعنا انهم سافروا الى اسرائيل •

وذلك مثلما فعل أغلب الأدباء اليهود من الاشكيناز الذين باركوا قيـــام اسرائيل ، وأيدوها فى سياستها ضد العرب · بل ان شـــاعرا مثل ادمون اليابس قد بكى مصر كثيرا عندما هاجر منها بعــد أن طردت الثورة أبنــاء الجالية اليهودية فى مصر وامتلأت أشــعاره بالحنين لبلاده حتى مات فى عـــام ١٩٩١ ·

وقد وصلت الدرجة بهــؤلاء الكتاب أنهم اعتبروا أنفسهم فى شــتات بعد طردهم من مصر · أو بعد أن خرج منها بعضهم طواعية مثلمـــا فعلت جويس منصور عام ١٩٥٣ · ليس الشــتات المقصود به هـــو البعد عن اسرائيل · ولكنه شتات عن مصر · بلد طفولتهم · وصباهم ·

وبمطالعة القائمة التى لدينا ، والتى سنقدم بعضا من نماذجهـــا هنا ، سوف نرى أن هذا المهجر قد ميز الأدباء اليهود القادمين من مصر الى فرنسا · بينما أسماء اليهــود القــادمين من شمال المغرب قد ظلت شــبه مجهولة الا من اسم أو أكثر · ففى الأدب العربى المكتوب بالفرنسية تبرز أسماء كتاب مصريين أمثال ادمون اليابس وجويس منصور وألبيــر عدس وغيرهم · ولكن من المغرب العربى يلمع اسم الكاتب المغـــربى ارمان المالح · وذلك باعتبار أن المغرب لم تطرد أبناءها من اليهــود · باعتبارهم مواطنين مغاربة ·

وقد تركزت الطائفة اليهودية فى كل من المغرب وتونس · ومن بين الأســـــماء التى وردت فى قاموس الأدباء المغــاربة » الــذين يكتبون بالفرنسية » نقــدم أسماء الأدباء اليهود فى مراكش وهم اليزا شمنتى · وأدمون ارمان المالح · وايلى ملقا · أما محمــــد هاجر فيقــول القــاموس انه كاتب مجهول الهوية · وقد نشر كتابا عام ١٩٧٣ يحمل عنوان « مجنون باسرائيل مجنون بالله » · وهى رواية عن لقـــاء اليهود بالمسلمين · « يجب الا يعتبر اليهود والعرب أنفسهم كأعـــداء · فنحن بشر · وفى بلادنا جميعا مغاربة » (١) ·

أما الكتاب التونسيون فهناك روبير عتال ، وألبير ميمى ، وسيزار بن عطار ، وبول غيث ، وريفل ــ واسمه الحقيقى رفاييل ليفى ، وجاك فيل · وأوزيت فاسيل · وكما نرى فانها أسماء لم تصبها الشهرة العريضة مثلما حدث للأدباء القادمين من مصر · ولعل العبارة التى وردت فى كتاب محمد هاجر لخير دليل على الاعتبارات التى يضعها المغاربة فى دخائلهم · فهم فى المقام الأول مغاربة · ويدينون باليهودية وقد حدث هذا أيضا لدى

---

(١) Dictionnaire des auteurs maghribiens. Karthala 1983, p. 238.

الكتاب المصريين الذين احتفظوا بهويتهم حتى اللحظات الأخيرة من حيواتهم ٠

ادمون اليابس (١٩١٢ ـ ١٩٩١) Edmond jabes

ولد ادمون اليابس فى القاهرة فى ١٦ أبريل ١٩١٢ ، من أسرة ذات أصل ايطالى ٠ ودرس فى مدارس الفرير ٠ ثم فى الليسيه الفرنسية فى العاصمة ٠ وكتب الشعر فى سن مبكرة من حياته فنشر أعماله وهو فى سن السابعة عشرة ٠ ثم اكتشف الشاعر ماكس جاكوب ففتن بـه وباعماله وتاثر به تاثرا واضحا ٠ كما تاثر بالشاعر جابرييل بونور ٠ وكان ادمون مشغوفا كثيرا بالصحراء فى مدينة القاهرة ٠ ويحب كثيرا المساحات الشاسعة من الرمل المتدة أمام عينيه ٠ وقد سافر ادمون الى فرنسا من أجل استكمال دراسته ٠ وهناك سرعان ما اختلط بالحركات والمدارس الفنية التى كانت منتشرة بشكل ملحوظ ، وخاصة السرياليين التى جذبت الكثير من المصريين ٠ وهناك التقى بماكس جاكوب وقامت صداقة بين الاثنين استمرت عندما عاد ادمون الى القاهرة وكان لا يتوقف عن مراسلة جاكوب ٠

وفى مصر أصبح ادمون عضوا فى جماعة « الفن والحرية » التى اسسها جورج حنين ومارى كافاديا وأسس الثلاثة معا دار نشر تحمل اسم « حصة الصحراء » فى عام ١٩٤٧ ٠ ثم مالبث أن انفصل عن الدار ٠ وفى عام ١٩٥٧ كان على ادمون اليابس أن يترك بلده بعد أن اصدر جمال عبد الناصر أمرا بترحيل اليهود من مصر ٠ وتقول مجلة « لونوفيل أوبسرفاتور » ان كل أعمال ادمون قد كرست من أجل الكتابة عن الشمس الأصيلة فى مصر (١) ٠ أما كتاب « الأدب العربى الفرانكفونى » فيقول : « انه بالرغم من أن ادمون قد اختار لنفسه أن يكتب باللغة الفرنسية ٠ الا انه لم يندم على شىء قدر ندمه بأنه بعيد عن اللغة العربية ، وانه قد ابدع اشعارا رائعة ، وأجمل الأغنيات المليئة بالأنوار والموسيقا التى لا نجدها سوى عند الشاعر الفرنسى رينيه شار ٠ وبول ايلوار ٠ وايضا جورج شحاده ٠ ففى هذه النصوص يبدو الشرق وهو يتنفس من اتساع الصحراء ٠ كما يبحث مبدعوها عن معانى الأشياء ٠ « عن بياض الكلمات ٠ وسواد المعانى » ٠

نشرادمون ديوانه الأول فى باريس تحت عنوان « أوهام عاطفية » عام ١٩٣٠ أما أعماله التالية فقد نشرت فى القاهرة مثل : « ماما » التى نشرت فى مجلة « الأسبوع المصرى » التى كان يعمل فيها جورج

(١) E. Jabes, le nouvel observateur, 11-7-1991, p. 86.

حنين وذلك عـــام ١٩٢١ · وفى « مجـلة القــاهرة » نشــر ديوان « الأقدام فى الهواء » مع رسالة موجهة الى ماكس جاكوب · وذلك فى عام ١٩٣٠ ، اما أعماله التالية فقد نشرت فى القاهرة مثـل : «مـامـا» « آنات مصرية » · وفى عام ١٩٤٥ نشر مجموعة من الرســائل التى أرسلها لماكس جاكـوب مع مقـدمة كتبها الأديب الفرنسى اتمبـل · وقـد نشر فى عام ١٩٤٧ ديوانه « أعمـاق الميـاه » · ثم نشر له فى باريس ديوانان هما « أغنيـة لوجبـة الفول » و « ٣ بنـات من حينا » · وفى عام ١٩٤٩ نشر فى القـاهرة ديوان « صوت اللهب » وبعد ذلك نشر كتبه كلها فى باريس ومنهـا « اشيد مسكنى » عام ١٩٥٩ ، و « كتـاب المسائل » عام ١٩٦٣ ، وكتاب « يوكـل » عام ١٩٦٤ ، ثم « عودة الكتاب » عام ١٩٦٥ ، و « بيل » ١٩٦٧ ، و « ايلى » عام ١٩٧٢ ·

والكتابة عند ادمون اليابس بمثابة غوص فى الأعماق · وهى خلق الزمن كى يستمر العــالم · وتدخل فى مسالة الخلق شـعلة الحياة · وذلك مثل خلق العــالم · والكتابة عملية مستمرة متجددة فى كل لحظة · والكتابة تعتبر بمثابة سؤال موجه الى الزمن ·ومهما انتهى الكاتب من مخطوطه فان الكتابة لا تنتهى ·

وربما لهذاالسبب فان أبيات قصائد الشاعر طويلة ، مثل قصيدته الغريبة « اليك اتكلم » المنشورة فى ديوانه « أشيد بيتى » ، وهى أشــعار كتبها بين عامى ١٩٤٣ و ١٩٥٧ فى مصر · ولكنه نشرها فى باريس عقب سفره الى هناك · ويقول :

اليك اتكلم ايها الصدى ·· ايتها الأغانى المنقولة · ايهــا الخبـر اللامع · اعلن لك رغبتى · فالبحر بلا مسيرة فى الفم ·

اليك ، يا ربيبة ذروة راسى النـــوعم · وحركة الجليـد · هنــاك · لا مثيـــل لك ·

اليك ، ايها الحب المغتاظ ، والحقائق الأولى · والأجـل المربوط بالحجـارة المثبتة ·

اليك ، اليك وحـدك ، يا صراع الشموع ، ولحن الصحراء · وبطاقة مليئة بالتوقعــات ·

أنا مجروح فى براءتى · وطهارتى · والروابط المتوحدة فى الهواء والماء · انقذت مرة · أكثر جمالا · وقد عرضت مشاعرى · وسباتى ، وصـــحبة العميـــق ·

وعقبة الحب فى الهروب الســـهل ·

وفى نفس الديوان نشر ادمون قصيدة تحمل عنوان « الزقاق » تختلف تماما فى معانيها وطول المقطع · فهو يقول :

مسقط المياه
والبهجة
وخطوة المطر
فى الالم
تؤثر بلا امل
ونسيان الزقاق
والخطى تطيع السلالم
كل الصيحات راضية
ويختطف المجداف الصوت
وتخطو النداءات من باب لباب
وتتبادل المجهول بين الجيران
مسقط المياه
انتقام المياه
فوق المظلات
الألم وحده
بلا أوخاز

لقد آمن ادمون اليابس أن معرفة كلمة ، والتوغل فيها اشبه بمعرفة كتاب باكمله والتوغل فيه · وهو يرى أن الشعر كان سلوته وهو فى المنفى : « يجب أن نتوه وأن نرتبط بالخير أو الدروب كما نلحظ ، فى النهاية فاننا لا نترك ذوينا فى اية لحظة » · وقد كتب ادمون فى ديوانه الأخير المعنون « كتاب الضيافة » المنشور فى عام ١٩٩١ قبل وفاته بأشهر عديدة أن كل شىء قد تمت اعادة كتابته ·

وهو يقول فى هذا الديوان ان « الكتابة الآن مصنوعة من أجل أن نعرف انه ذات يوم سوف أتوقف عن الوجود · وان كل شىء من أعلاى ومن حولى قد أصبح أزرق وكثيفا ، متمددا فى فراغ كى أطير طيران النسر ذى الجناحين القويين وهو يضرب بهما · وهو يتجه نحو مجهول مشيرا اشارات وداع للعالم » ·

« اجل · بالضبط كى نؤكد أننى توقفت عن الوجود فى اليوم الذى يبقى فيه طير الكواسر وحيدا فى فضاء حياتى وكتابى الذى يحكم

سادته · ويتخلص مما كان يبحث عنه في داخلي · وقد تولد عندما كنت أعبر » ·

ومن الواضح أن الشاعر في هذه الأعمال الأخيرة قد اختار شكلا جديدا تماما للقصيدة · ليست بالطبع القصيدة النثرية التي كان يكتبها أحمد راسم باللغة الفرنسية · ولكنه شعر مليء بالموسيقا ، وقد بدا الشاعر فى هذه القصائد كأنه قادم الى خلود قاتم اللون · « الأسود هو لون الخلود » · وقد اختار لديوانه الأخير عنوانا غريبا هو « رغبة بداية المعاناة في النهاية الوحيدة » ·

الجدير بالذكر أن ادمون اليابس قد عرف نشاطا مكثفا فى الابداع خلال السنوات الأخيرة من حياته · ففى ١٩٨٥ نشر ديوانا يحمل عنوان : « مسافات » ، وفى عام ١٩٨٧ نشر ديوانا يحمل عنوان : « الصحراء فى كتاب » و « كتاب الاقتسام » · ومن عنوان الكتابين يبدو مدى صدق الجملة التى سبق ان سقناها أن ادمون قد ظل محبوسا بابداعه فى صحراء مصر حيث يقول : « انت تعتقد أن العالم مثل دودة فى الصحراء تفكر فى المحيط · لقد خلق الله الدنيا بعد ان خلق الصحراء · يسكن النسر فى الحجر الصوان وهو يطير فوق الرمال » والصحراء هنا هى صحراء مصر كما يقول الكاتب فى مجلة لونوفيل أوبسرفاتور(١)·

وفى عام ١٩٩٠ نشر أدمون اليابس مجموعة من القصائد التى كتبها بين عامى ١٩٤٧ و ١٩٨٨ تحت عنوان « عتبة الرمل » · والديوان ضخم الحجم يقع فى أكثر من ٤٠٠ صفحة وأغلب هذه القصائد من ذوات المقاطع الطويلة · بل ان فقرة بأكملها ، كما سبق أن رأينا ، يمكن أن تكون قصيدة أو بيتا من قصيدة :

« فى الواقع فاننا لم نستسلم للقطيعة · بأن نطرد من مصر · لقد جئت الى باريس وعشت فى المدينة التى يعيش فيها الشعراء الذين أرغب فى أن أكون وريثا لهم · وبدلا من أن أرتبط بهم · فعلى العكس فاننى ابتعدت عنهم · وجدت نفسى على مسافة منهم · ليس على مسافة · ولكن فى ابتعاد · لأننى انا مرتبط بمكانى » (٢) ·

ويقول اليابس فى نفس الكتاب عن الصحراء : « عندما نتعرف على الصحراء · فاننا نبقى فيها الى الأبد · ومن الصعب نسيانها · فصمت الصحراء ينخر فيك · فانت هناك تكون نفسك · بمعنى لا شيء » ·

---

(١) المصدر السابق ·

(٢) le seuil du sable, Gallimard, Paris, 1990.

« لأنه قبل أن تكون كلمة » فان الكتابة سماعية • أنا شخص مرئى • أنا أرى الكلمة • أراها تتكون وترسم • وفى نفس الوقت أسمعها • هناك أولا نوع من الحركة تخرج فجأة من الكلمة وتروح تأخذ معناها • وهكذا الشعر • كما أن بعض الشعر يبقى صامتا • ليس هناك سوى الصوت الذى يمكن اضافته ، والخيال الذى يدخل الجزيرة فجأة •

« الكتابة حياة اختفت • الشعر يوقظ أو ينبه فينا الذكرى • وطالما أنه يمكن أن يكون أيضا • فانه يثير ذكرياتنا • وفيه تبدو الدهشة أمام الجملة التى تتفكك تقريبا دون أن تعنينا كثيرا • كى نعبر عن الحب • لا نريد أن تقول « أحبك » ثم سيصبح للشعر حركته وحبه الذاتى » (١) •

جويس منصور (١٩٢٨ ـ ١٩٨٦)

تنتمى الشاعرة والروائية جويس منصور الى عائلة يهودية كبرى عرفت فى مصر من خلال أنشطتها الاقتصادية والتجارية وهى عائلة عدس • فجويس هى ابنة تاجر كبير اقتضى عمل الأب أن ينتقل بين بريطانيا ومصر • وفى أثناء احدى هذه الجولات ولدت جويس فى عام ١٩٢٨ (٢) •

ورغم أن جويس الصغيرة قد أتقنت اللغة الانجليزية بحكم ترددها الدائم على بريطانيا • الا أنها التحقت فى القاهرة باحدى المدارس الفرنسية • باعتبار ، كما أشرنا ، أن هذه اللغة تمثل انعكاسا للرقى الاجتماعى أكثر من الانجليزية فى تلك الآونة • لذا فقد قرأت الأدب الفرنسى • وراحت تعبر عن مشاعرها بهذه اللغة • ثم انتهت من كتابة أول قصيدة وهى فى الخامسة عشرة • فى عام ١٩٤٨ كانت قد انتهت من جمع ديوانها الأول « صرخات » وفى تلك الآونة كانت قد تعرفت بالشاعر السريالى جورج حنين الذى راح يشجعها • وكان أكثر الشخصيات التى تأثرت بها •

وقد تمتعت جويس منصور بقدر من الجمال قل أن تتمتع به امرأة فى عصرها • هذا الجمال كان أيضا مفتاحا للدخول الى عالم رحب وواسع • وكم أحست الفتاة أن الله وهبها كل ما تتمناه أية امرأة فى

---

(١) المصدر السابق •

(٢) تم الرجوع الى الأعمال الكاملة التى صدرت للشاعرة جويس منصور من خلال ما ننشره هنا عن الشاعرة • والكتاب منشور عن الناشر acies sude عام ١٩٩٠ •

الوجود ·· الجمال الباهر والثراء الشديد والثقافة العميقة · والابداع المتميز · بل وايضا الزوج الذى تحلم به كل النساء · فقد تزوجت من شاب مصرى اكثر جاذبية ويؤمن بموهبتها · فراح يشجعها ودفعها الى السفر الى باريس عندما وجد أن فرصة نشر شعرها المكتوب بالفرنسية أفضل · ففى عام ١٩٥٣ نشر ديوانها الأول بعد خمس سنوات من الانتهاء من تاليفه لدى الناشر ·

وفى باريس كان اللقاء عاصفا ومدويا · فقد علق أندريه بريتون انه من أجمل ما قرأ من شعر فى حياته · وطلب لقاء الشاعرة · وراح يعبر عن دهشته لجمالها « الفرعونى » حين التقاها مع زوجها · وهو يقول : « أنت أول امرأة امكنها أن تكتب عملا غريبا كشف عن كل ما يمكنون صدرها » ·

ولم تقطع جويس منصور علاقتها بالقاهرة · وقد كتب أنيس منصور عن الصالون الأدبى الذى كانت تعقده فى جريدة أخبار اليوم ـ ٦ سبتمبر ١٩٨٦ ـ قائلا : « كان الحاضرون من رجال ونساء ياكلون ويشربون حول حمام السباحة ويتحدثون فى الشعر والأدب والفن بالفرنسية والانجليزية والايطالية والعربية ·· وكانت معجزة هذا اللقاء أو الغذاء طفلة تلقى شعرا باللاتينية · فعكفنا جميعا على الترجمة والتفسير والنقد والمقارنة » ·

ويقول : « كأننا فى قمة جبال الأوليمب ·· أو جبل بارناسوس حيث يلتقى الآلهة وانصاف الآلهة والشعراء والمطربون فى كورس سماوى ·· كأنهم ليسوا على هذه الأرض وكأنهم ليسوا منها ·· لم اكن أعرف ذلك · ولا تخيلت · ولكنه امكن » ·

فى العام التالى ١٩٥٤ نشرت جويس ديوانها الثانى تحت عنوان « تمزقات » الذى أثار ضجة جديدة حول هذه الموهبة وكتب عنه أدباء بارزون مثل أندريه بيير وهنرى ميشو · ومنذ ذلك الحين أصبحت جويس وزوجها صديقين حميمين لأندريه بريتون الذى كان لا يخفى أن المرأة هى ملهمته لكل اشعاره · كما انتقل هذا الالهام لأغلب الشعراء والرسامين السرياليين الذين أعجبوا بجويس كشاعرة وكامرأة جميلة · فكم رسموا لها من لوحات ! · كما راحت الشاعرة تنشر قصائدها فى كتالوجات معارض رسامين عديدين مثل الفنان الكندى جان بنوا والاسبانى « باتا » الذى صورها كثيرا تحرق صدر الفنان · ثم ألفريدو لام · وبيير الشينسكى · وسافنبرج · وتوين · ولينور فينى ·

وقد عبر أندريه بريتون عن ابداع جويس منصـور قائلا انهـا « حديقة هذيان هذا القرن » • كما أكد أكثر من عرفها أنه لا يوجد اختلاف بين أناقة هذه المرأة كما عرفها الناس • وبين أناقة شعرها ، وكأنهما كيان واحد •

في أعمالها الكاملة نجد كافة نصوصها النثرية وقصائدها المنشورة والتي ظلت تكتبها حتى وفاتها في ٢٨ أغسطس عام ١٩٨٦ • وقد تم ترتيب هذه الأعمـال حسب النوع الأدبي • فهناك نصوص قصصية نثرية نشرتها عام ١٩٥٨ تحت عنوان « الراقدون الراضـون » • ومسرحيـة قصيرة منشورة عام ١٩٦٨ تحت عنوان « ازرق الأغوار » ومجموعـة قصص قصيرة منشورة عـام ١٩٧٠ باسم « هذا » أما دواوينها الشعرية فهي « صرخات » عام ١٩٥٣ • ثم « تمزقات » ١٩٥٤ • و « كواسر » ١٩٦٠ » ثـم « المـــريع الأبيـض » ١٩٦٥ ، و « اللفـــتات » عـــام ١٩٦٧ ، و « فالوس والمومياء » عام ١٩٦٩ ، ثم مجموعات من القصائد المتناثرة كتبتها في كتالوجات معـارض الفنانين ــ كما أشرنا ــ « الابن الكبير » عام ١٩٨١ ، و « نيران مستعمرة » ١٩٨٥ ، و « ثقوب سوداء » عام ١٩٨٦ •

وفي ابداع جويس منصور تجـد الفنـان المؤمن بحـرية التعبير • وبانطلاقة القدرة على العطاء ، فلا حواجز يمكن أن تقف أمامه من أجل أن يعبر عن مشاعره • فنحن في الأحلام نرى كل شيء مباحا • والكوابيس مثلا تمثل حقلا خصبا لتحطيم الأزمنة ، والأماكن والألوان والتركيبات المألوفة •

ومن المعروف أن السرياليين كانوا يؤمنون بثلاثة فنون ويتعاملون معها في المقـام الأول عن بقية الفنون وهي على الترتيب الفن التشكيلي ، والقصيدة ، ثم السينما ، ففي هذه الفنون يمكن للفنان أن ينطلق دون أن تعرقله حدود • وهو لا يصبح أسيرا الا لما يعتمل في نفســه • أما الرواية وفن القصة بشكل عام فان الفنـان غالبا ما يجد نفســه فيـه مخبوسا في اطار الحدوتة • ومشاعر الآخرين • أما في القصيدة فان الشاعر مجبر على أن يعبر عن نفسه في المقـام الأول • وفي اللوحة فان الريشة والألوان هما نبض الفنـان وخفقات قلبه •

ولذا ، فلا يمكن أن نعتبر تلك النصوص النثرية التي قدمتها جويس منصور بمثابة ابداعات قصصية • كما لا يمكن ادراجها تحت تقسيم الشعر المنثور • فهي نصوص طويلة مختلفة الشـكل ، فيهـا الأشخاص يتحركون ، لكننا لسنا أمام موضوع قصصي محدد ، مثلما نحن في اللوحة

السريالية ننتقل من عالم هلامى لآخر دون أن نتساءل عن السبب • ولا نعرف النتيجة •

وفى اقصوصة « مارى أو شرف الخدمة » تمزج الكاتبة بين أزمنة وأماكن عديدة • فهى تشير فى السطور الأولى الى أن الأحداث تدور فى بدء الخليقة • ثم نعرف انها تدور فى شمال افريقيا داخل فندق صغير تحفه الشوارع الواسعة المكتظة بالناس • ومارى بطلة القصة تتمتع بحسية واضحة • وفى القصة هناك سفاح يجالس الناس ويضحك معهم • ومارى تشعر بالقلق لأن السفاح قد يغيب بضعة أيام • تجلس الى جوار النافذة تنتظر ظهوره • تتعمد الا تتحدث الى أختها جيرمى عن انتظارها • لكن قلقها لا يمكن اخفاؤه • ومارى امراة تعشق الأحلام •• ففى كل ليلة تنام مرة واحدة • وتعيش الحلم ببكارته فى روحها • ترى نفسها تجرى بلا ملابس وسط رياح مستعرة أن تكشف سرها • وتحس بالمياه ثقيلة • وترى طائر الكوندور يحلق فى السماء • والطيور تصدح • وتتقلب مارى كى تتمتع أكثر • فتقدم نفسها وعفتها فوق آخر شعلات العفة • وترى الشارع وقد افقده الأسمنت عفته • فتهرول فى ضباب المدينة • وتحس بارتعاد أصابعها وتلمس جلدها الطرى والرخو تحت اشعة القمر • فتسبح فى الرمال ، والضباب والمستنقع والسماء • وترتطم المصابيح بين السحب العابرة كأنها الكعكة • وتتشكل الأزرار فى جوهر كل حقل ، وتمسك مارى بزهور المرجريت • وقد اغرورقت عيناها بالدموع • وامسكت فى سعادة بالأوراق الوردية المثنية » •

ومن هذه الفقرة نرى اننا لا يمكن أن نعيش مثل هذه الأجواء الا فى أحلامنا - حيث تتعاقب الأشياء دون اقناع أو تتابع • وتتدفق دون ترتيب أو انتظار • فرغم اننا أمام علاقة غير موجودة بين مارى وسفاحها الذى لا نعرف عنه الكثير ، الا أن مارى فى حالة حلم وتفكير ومعايشة لخيالها طيلة أوقاتها • سواء عندما تنام أو وهى تجلس على مقربة من النافذة تنتظر وصول هذا السفاح أو طوال ساعات النهار •

حتى هذا السفاح ، فان مارى تراه بمنظورها الخاص • فهو « بشر » مثلها يمتلك خيالا واسعا • ويعيش داخل ذكرياته • يردد : أنا صاحب أسرة متزمتة ومحترمة • تتمتع بصحة طيبة • ولديها افكار تربوية • انا رجل فريد ووحيد •

وهذا السفاح ياتى الى مارى ، ربما فى خيالها ، من أجل قضاء لحظات حب غير ملموسة • يقول لها : « قفى • سوف تعيشين تبعا

لرغبتى • تذكرى عقدنا معا » • وعندما يغيب السـفاح ترقد مارى فوق مضجعها • وتنظر الى البيضـاء تناديه بدلا من السفاح الحاضر الغائب • وقد تقرض بعض الأشعار • وتهتف أكثر من مرة باسـم السـفاح • « تتنهد مارى • وتترك نفسها تسبح لحظة طويلة بين حالتين من الوعى ودون أن تضيع فى قطيفة نومها • ليست لديها قوة التفكير ولا القدرة على التنفس • تبدو أفكارها باردة كأنها أشياء تتسلق بتكاسل فوق فروة رأسها • وصور رخوة غير محددة الأشكال » •

وفى هذه الأقصوصة الغريبة لا تنسى جويس منصور أنهـا شاعرة • فمارى تقرض الشعر وهناك مقاطع من قصائد تنطق بها • والقصـة لا تضم سوى شخصيتين فقط هما مارى والسـفاح الذى ليس بقاتل • « غنى السفاح بصوته الجميل كرجل فخور بقوته • وتتبعـه النسـاء متكاتفات الأيدى ، وواثقات فى أنفسهن ، نظرت الى الباقيات من كوخها وقالت بحزن : لست سوى فأرة فى فندق • انسانة مسكينة ثم انسـالت الدموع على خدها • وهبت رياح شريرة • الزهور والعصافير والأشـياء ذات الألوان اللامعـة والروائح العطرة ، هبت من الضوء المعتم فى الروح الممتدة وسط حالتى النوم واليقظـة » •

ورغم أن « مارى أو شرف الخدمة » هى الأقصوصة الأولى فى كتابها « الممددون الراضون » ، الا أن الناقد لا يمكن أن يضعها فى تقسيم أدبى معين • فهى ليست بالأقصوصة لأنها تقع فى أكثر من سبعين صفحة ضخمة الحجم ، وهى ليست رواية بالمعنى المتعـارف عليه الا اذا أدرجناها تحت تسمية « الرواية الجديدة » • أو الابداع السريالى • وكما أشرنا فان النصوص الروائية التى كتبها السرياليون نادرة للغـاية •

والنساء فى بقية نصوصها القصصية غارقات فى أحلامهن مثلمـا كانت مارى ، وهن يعشن فى عالم غامض مثـل كلارا فى أقصـوصة « السرطان » ، فهى لم تخـرج أبدا من منزلها ولم يسـبق لهـا أن شاهدت أحدا •

كما أن الموت موجود ككائن رئيسى فى أغلب ابداع جويس منصور النثرى • ففى أقصوصة « السرطان » تموت بين ذراعى حبيبها الراوية الذى يفاجأ بالشرطة تقبض عليه ثم تخلى سبيله عندما تعرف سر موت كلارا : « ماتت فى الرابعـة صباحا • والذكرى التى احتفظ بها عن هذه الليلة هى أننى لن أستطيع أبدا أن ألقاها • هناك مقعد من الضباب حولى • وبعض الحبر الردىء فى دمى • فغدوت كالمجنون » •

أما فى مجموعة النصوص القصصية التى تحمل عنوان « يوليوس قيصر » فان الموت موجود فى الدماغ : « ماتت رأسى معه • لست سوى

كتلة من الرماد المكتوم والتى ترحل كل صـــباح من المصنع حتى اكسب حياتى . لأنه يجب أن نستمر على قيد الحياة . حتى ولو كنا بدون رؤوس . لقد تركت آخـر أسنانى اللبنية فى فم زوجى الذى مات من التضـــخم الاقتصادى ، ورحت اعد نفسى لاجراءات الدفن .

« ارتديت ثوبا أسود . به ألف ثنية من الذكريات ، بالغ الاتســاع عند الفخذين . وبالغ الضيق على الصدر . لقــد دفنت صــديقى يوم خطبتنا » .

ورغم شهرة جويس منصور كشاعرة . الا أنه بمراجعــة أعمالها الكاملة فان مساحة اعمالها النثرية تكاد تعادل كل ما ابدعته من شـــعر لكن يبدو أن مقولة الكاتب عباس العقاد ، أن خمسين قصة لا تعــادل فى قيمتها بيت شعر متميز ، صادقة . فلا تكاد تذكر جويس منصور بين كتاب القصة القصيرة ، ولا الابداع النثرى بالمرة . رغم أهمية هذه النصوص كما رأينا . ولا تجىء أهمية هذه النصوص فقط فى ســلاستها ولغتها الراقية . بل لأنها بذلك تكون من بين السرياليين الذين سعوا لافساح مجال الابداع أمام عطائهم . فكما اشرنا فان القليلين من السرياليين قــد اتجهــوا الى فن القص . وقد تعمدنا أن نعود الى هذه النصوص ونقتطف منهـا لنتأكد الى أى حد افادت جويس منصور النثر بشاعريتها .

وجويس منصور ظلت وفية لسرياليتها حتى آخر كلمة كتبتها قبل وفاتها . ليس فقط لأنها اخذت كافة اعمالها الى أندريــه بريتون رائد الحركة السريالية . ولكن أيضا لأنها رسمت فى نثرها عشرات بل مئات من اللوحات السريالية . ولم تنس أبدا أنها شاعرة وهى تكتب النثر سواء النصوص القصصية أو المسرحية ذات الفصل الواحد التى تضمنها الأعمال الكاملة .

لكن ، من الواضح أن نثر جويس منصور قد اختلفت ابعــاده طوال السنوات الابداعية ، ففى مجموعتها «هذا» المنشورة عام ١٩٧٠ بدت كأنها تتكلم وتصف ظواهر الأشياء اكثر من أعماقها . لكن الموت ومراسيم الدفن لا تزال ماثلة فى ذهنها . ففى اقصوصة « النقطة » تصف جنازة بتفاصيل دقيقة من خلال المراسيم نفسها . ومن المعروف أنها فى النصوص التى سبقتها عن مثل هذه الشـــعائر ، كانت تتعامل معها كأنها اشـــياء من الأحلام ، نابعة من الوعى والماضى والحاضر والمستقبل معــا فى مزيج من الصعب تحديد هويته ، أو معرفة أبعاده ..

الا أنها تتحدث عن هذه الأمور فى هذه القصة مثلا على النحو التــالى : « تم الدفن فى اليوم الرابع . بدت الأم كأنهــا تنتحب وســط الخطبة . بدا النحيب طويلا ومثيرا للملل رغم هذا المشهد الدائر فى غاية

« ماری كيلو » • قالت مارى اننى لم أسمع شيئا عندما حضرت الحقل ، بل رأيت الأم تتمخط مرات عديدة بقوة » •

وكما نلاحظ فان أغلب هذه القصص لا تنتمى الى البيئــة العـربية مثلما فعل ادباء آخرون • لكننا بشكل عام أمام حالات انسانية مجردة • فرغم الأســماء غير العربية • الا أن النحيب ، مثــلا ، عند المقابر ظاهرة انســانية •

وبملاحظة القصة التى كتبتها فى الثمانينات تحت عنوان «انقيلولة» نجد أن جويس منصور قد ابتعدت بشكل ملحوظ عن أعمــاق النفس البشرية وتصـويرها ، واهتمت بالحديث عن البشر من الخارج أكثر • فالراوية هنا يراقب الآخرين كيف يمشون ويتحركون • وهو يسجل رؤيته لما تراه العين أكثر مما يحدث للمــرء من تأثر نتيجــة لهذه الرؤية • ورغم تغير أسلوب الكاتبة ، فاننا نجد نفس الهم الذى طاردها دوما • فالكاتبة التى أصيبت بداء السرطان سنوات لا تزال تتحدث عن الموت ، وعن هذا المرض اللعين بانكسار شديد : « راح ظل السرطان ينعكس فوق شاطىء مجهول • سريره خاو الآن •• وتبدو الهموم قابعة فوق وجوه مجموعة صغيرة من الزوار• بدءوا يفهمون أن عليهم أن يتمتعوا كى يتعلموا » •

وكتبت جــويس منصور مسرحيتين قصــيرتين • احــداهما لا يتجاوز عدد صفحاتها الاثنتين • وفى هذا النوع من المسرحيات نجد أنفســنا أمام شخصيات قليلة للغاية • فنحن فى غرفة شبه خاوية حتى الجــدران فى مسرحية « أزرق الأغوار » • ومن الشخصيات هناك رجل عجوز وامرأة جميلة تدعى مود ثم ابنتها الصغيرة • أما الجو العــام للمسرحية فهــو الموت • فالمرأة ترتدى زى الحداد • والرجل يتألم من المرض • وهى ينظــر الى ماضيه بحسرة • فقد كان يتمنى أن يصبح كاتبا ذات يوم ولكنــه الآن لا ينتظر سوى الذهاب الى الطبيب • أما الصــغيرة جيروم فهى تنطـــق شعرا وترقب ما يحدث فى البيت دون أن تمتلك حلا لما يدور حولها • تسمع أمها تقول :.« كم أحس بالبرودة • فى كل مرة أريد أن أتجمل • أحس أن على أن أحطم المرآة • لا أجرؤ أن أرى أثداء الأخــريات أكبر من صدرى »، ومود امرأة مليئة بالأحــزان • وعليها أن تتخيل نفسها بالغــة السعادة حتى تتخلص من آلامها الحقيقية •

والمسرحية بمثابة محاورة تتكشف فيها العلاقات الممزقة بين الأب وابنته وحفيدته • فهو يذكر ابنته أنه بمثابة أب • فهــو الرباط الوحيــد بينها وبين طفولتها • أما الصغيرة جيروم فانها تتخيــل وجود شخصيات خيالية قابعة خلف زجاج نافذة غرفتهم الضيقة •

أما المسرحية الثانية « سكرة المدن الكبرى » فهي محاورة بين رجل وامرأة اثناء لحظة هوى يبدوان وكأن كلا منهما يحطم الآخر ·

هذا هو عالم جويس منصور النثرى · فماذا عنها كشاعرة ؟

لا شك أن شكل القصيدة قد تغير كثيرا عند جويس منصور · ففى ديوانها الأول « صرخات » اتسمت ابياتها بالعبارات القصيرة · وبمقاطع لا تزيد عن خمسة الأبيات غالبا فى كل منها · ثم أصبحت هذه المقاطع طويلة · وبشكل عام فان جويس منصور مهمومة فى شعرها بالحب والرجل ، والحياة · وايضا الموت والمرض · وفى قصائدها الأولى كانت تستعذب الحب · الا أنها فى قصائدها الأخيرة استعذبت المرض والألم · وفى كل عشقها للأشياء ذهبت جويس منصور الى اقصى الحدود · أحبت حتى النخاع · ولدرجة اسالة الدماء · ولم يكن يهمها فى ديوانها « صرخات » أن تعنون أشعارها · فبدا الديوان كله وكأنه بمثابة قصيدة واحدة · ثم أصبحت لكل قصيدة فى دواوينها التالية عناوين وموضوعات·

وقد تخطت جويس منصور الكثير من قيود القصيدة · وان كانت قد التزمت بموسيقا الشعر · وفى اغلب قصائدها هناك دائما تساؤلات ممزوجة بالتعجب · لا اجابات عليها · ويهمنا هنا أن نقتطف بعضا من نماذجها الشعرية فى مراحل عطائها المختلفة · ففى « صرخات » تقول :

رأيتك عبر عينى المغلقة
تتسلق سور احلامك الخائف
وتفقد قدما من قدميك على العشب النائم
ترقد عيناك فوق المسامير الناتئة
بينما اصرخ دون أن افتح فمى
كى افتح رأسك لليل ·
تقبل صلواتى
التهم افكارى الملونة
وتقتنى · حتى تتفتح عيناى
لترى ابتسامة السفاح الداخلية
نقية ولو لمرة ·
اصلبنى يا يهوذا ·

وفى نفس الديوان « صرخات » أو فلنقل فى نفس القصـــيدة التى لا تكاد تنتهى تقـــول :

الذباب فـوق السرير
فوق السقف فى فمك وعينيك
نائما فوق ملاءة حتى رقبتـه
هنـاك رجل ماكر جـاهل
اترك لى جـــلدى
ولا تفـــرغ بطنى ·
وليس لظلك فـم
وليس لغرفتك باب
وعينـــاك بلا نظـرات
وبلا رحمــة ·· بلا لون
وخطـــاك تســـير
بلا أثــر
نحــو الضوء المثير
انه جحيمى ·

ويكاد يكون ديوانها الثانى « تمزقات » المنشور عام ١٩٥٤ مشابها للديوان الأول ، سواء فى شكل القصيدة ، أو فى موضوعها وأيضا فى لغتها · لكن كل هذا بدا يحدث شكلا جديدا فى ديوان «كواسر» المنشور عام ١٩٦٠ · فنحن أمام قصائد متعددة · ولكل منها هوية محددة · ولأول مرة تكتب جويس منصور القصيدة ذات التفعيلات المتعددة · مثل قصـــائدها « لأنه ليست لك ساقان » ، و « الموتى فى رؤوس الكلاب » و « عيـون الأصدقاء » ، الا أنها استعملت التفعيلة الواحدة فى ديوانها الرابع «المربع الأبيض » المنشور عام ١٩٦٥ · ويكاد يكون هذا الديوان بمثابة نحـــوى لقصائد متعددة التفعيلات · ويهمنا هنا أن نقتطف بعضا من أبيات قصيدتها « باب الليل مقفول بالقفل » :

ابحث عن الصـــحراء
فوطنى جلف وسرى
والحيـــاة هى نفســها
والمطـــرب نائم فى السرايات العميقة

وســـجاد ٠
يمشى فى الحديقة المغلقة ٠
و ٠٠٠

ولم تستطع الشاعرة أن تخفى آلام المرض فى ديوانها الأخير «ثقوب سوداء» المنشور عام ١٩٨٦ ٠ فقد تحولت الأحــــلام الوردية والمشاعر الحسية التى ملأت ديوانها الأول الى تأوهات ألم ٠ واختفت مشاعر الحب بشكل واضح ٠ فهى تقول فى آخر قصيدة نشرت لهـا قبل رحيلها :

نحن لا نعيش مع الموتى
فهم ينزلقون فوق ملاءات النســـيان
نحو ثقوب سوداء
يسبحون ويرتعدون فى رياح المساء
وتخوى عيونهم كأنهم الحمـام
وتختنــق أعضــاؤهم
فى وحل الذكريات
نحن لا نعيش مع الموتى
فأفواههم مليئة بالزبد
ومهما بذلنـا من جهـــد
فان تنهداتهم الجائعــة تمزق الهــواء
كم تتحـــاب
لكنهم لا يذكرون شيئا
مشغولون بمن يكونون
ويتمتعون بحدادهم
مشغولون بمن يكونون
ويتمتعون بحدادهم

ومن الواضح أن الشــاعرة جويس منصور قد ابتعدت كثيــرا عن عالم الباطن الذى يشغف به السرياليون كثيرا ٠ وصنعت عالما جــديدا تماما فى قصائدها الأخيرة ٠ عالم سوف تذهب اليه راضية ٠ ومثلمـا كرمت مشاعر الحب فى قصائدها ٠ ومثلما مجدت الحياة فى أشعارها ٠ فلم لا تفعــل ذلك تجاه عالمها الجديد الذى تتجه اليــه فبدت كأنهــا تضع لنفسها رثاءها الخاص بها ٠

ادمون المليح (١٩١٧) :

عرف ادمون عمران المليح فى الثقافة المغربية الحديثة ، كواحد من كبار الفلاسفة ، وكبار المهتمين بالفكر الشيوعى وذلك حتى عام ١٩٨٠ ٠ حيث نشر روايته الأولى «مسيرات ساكتة» أى وهو فى الثامنة والستين من العمر ٠ والطريف ان هذا الفيلسوف الذى بدا الكتابة الابداعية وهو فى هذه السن قد نشر ثلاث روايات فى خلال ست سنوات ، ففى عام ١٩٨٣ نشر روايته الثانية « عيلن عيلن أو ليلة الحكى » Ailen Ailen ou la niut de recit وبعد ذلك بأربعة أعوام نشر روايته الثالثة « ألف عام ، يوم واحد » 1000 ans, un jour .

والمليح من مواليد مدينة صافى المغربية فى عام ١٩١٧ من عائلة يهودية ٠ وفى عام ١٩٤٥ انضم الى الحزب الشيوعى الذى كان فى طور التكوين ٠ ثم تولى وظيفته كسكرتير شباب الحزب ٠ وفى عام ١٩٤٨ انضم الى اللجنة المركزية بالحزب ٠ ثم الى المكتب السياسى ٠ وقد اشترك المليح فى النضال من أجل استقلال بلاده ٠ ثم استقال من الحزب عام ١٩٥٩ ٠ وقطع علاقته نهائيا بالسياسة ٠ وفى عام ١٩٦٥ سافر الى فرنسا واختارها مستقرا له ٠

والجدير بالذكر ان الكتب الثلاثة التى نشرها المليح ، ليست روايات بالمعنى المفهوم عن فن الرواية ٠ ولكنها أقرب الى نصوص روائية ٠ يسترجع فيها الكاتب سنوات الحنين التى عاشها ، خاصة فى المغرب ٠ وفى هذه الروايات تتكرر نفس الشخصيات مثل شخصية « عيلن » التى كانت بطلة روايته الثانية ٠ لذا ، فكما جاء فى جريدة « لوموند ــ ٢٣ مايو ١٩٨٦ ــ فان رواياته الثلاث بمثابة ثلاثية ٠

ورواياته ، كما أشرنا ، هى روايات ذكريات ٠ خاصة روايته الثالثة: «ألف عام ويوم واحد» ٠ فهو يصور حياته كما عاشها «على المرء أن يكتب عن حياته دون أية علامات تنقيط٠ احترم أن تطرح هذه العلاقات نفسها أمام عينى ٠ انها مرتبطة معا بنفس الطريقة التى يرتبط فيها الزمن بالحياة ٠ احب الزمن الممتد امامى ٠ واحب تقطيع المشاهد ٠ لقد رفضت التقسيمات دوما ٠ فترى هل هذا الكتاب رواية ٠ لنقل انه نص أدبى ولكنه ليس الشكل التقليدى للرواية ٠ فقصة الحياة تثير فى الشجون ٠ ولكننى لن أرويها باسلوب تقسيم النبات فى علم النبات » (١) ٠

---

(١) Edmond el maleh. le monde 23-5-1986.

وبطل الرواية يدعى نسيم · وهو يبحث عن أودسيوس كى يرحــل معه فى مركبه التى تسافر عبر البحار · وان يسلم امره اليه · وبينما هو فى رحلته ، يتــأمل المصـــــير الغــامض لشعب يبحث عن آثاره · فى ومضات التــاريخ · وفى العنف الذى ســاد البشرية · والصــداع واللحظات البارزة من انتصارات واخفاق فى تاريخ البشر ·

يتصرف المليح كانه اذا اراد أن يتكلم عن نفسه ، فليجعل آخــرين يفعلون ذلك نيابة عنه · ويروى الكاتب الحياة التى عاشها اليهود العرب مع أقرانهم من المسلمين فى المغرب طوال الف عام · هذه العلاقات بدأت الآن فى التغير « ليس هذا الكتاب مصنوعا من أجل الشباب اليهود الذين لم يعرفوا هذه الجماعات · ويتساءلون مثــل كل الشــباب المغــربى · فالمغرب التى أتكلم عنها لم تعد موجودة الآن طالما انها افتقدت واقعهــا الحــــالى » (١) ·

ويتحدث المليح عن رحيل مجموعة من اليهود المغاربة · انه فى أعماقه مغربى أولا · ثم يهودى ثانية حتى لو عاش فى فرنسا أكثر من عشرين عاما · وذلك مثلما فعــل الشاعر المصرى ادمون اليابس · ويختلف المليح فى أن ذكرياته عن بلاده التى جاء منها ليست مليئــة بالمــرارة · مرارة الحنين بأنه يود أن يعود مرة أخرى · فالمليح يمكنه أن يعود · أما اليابس فليس ذلك فى مقدوره · ان ادمون المليح ملىء بمشاعر الحنين ولــكن يكفيه انه عاش هناك كل هــذه الســنين ·

فى روايته « الف عام يوم واحد » عام ١٩٨٦ يتحــدث الكاتب عن حرب لبنان · فهو يحس ان لبنان هى أيضا وطنــه · لأن هنــاك عربا مثله· ويتكلم بصفة خاصة عن الغــزو الاسرائيلى للبنان فى صيف يونيه عــام ١٩٨٢ · وكيف كان اثر ذلك على الذين عاشوا تحت سماء باريس · اقــد تمــزق الكاتب من ذلك العنف المتوحش «هل حقيقة ما يحدث هناك ؟» (٢)·

وقد عبر الكاتب فى الصفحات الأولى من كتابه أن ما حدث فى لبنان كان الدافع الأول لتاليف هــذه الرواية · « لا شــك أن هذا الكتــاب مرتبط بحرب لبنان ، لكننى لا أريد أن أغلق على نفسى باب الســياسة · فليس هذا الكتــاب بمثابة رواية ملتزمة ، بل انه ضــد كل ما كنت أتمنــاه أن أخرج من كل رسوم الكاريكاتير · وأن أهرب من كل الشعارات » (٣)·

---

(١) المصدر السابق ·

(٢) mille ans, un jour. Edmond el maleh, la pensée sauvage, 1986..

(٣) المصدر السابق.

لا شك أن عمران المليح يعـرف عما يتكلم بالضبط • فقد سـبق أن اشترك فى تحرير وطنه ، المغرب ، من الاستعمار • ولكنه عندما كتب هـذه الرواية لم تكن لديه أية قدرة كى يناضل من جديد • لذا ، فهـو يكتب كتابا لعله يكون رسالة بدلا من السلاح الذى حمله فيما قبل • فهو ، عـلى سبيل المثال ، يصف كيف بدأ اليوم جميلا فى مخيمى صبرا وشاتيلا قبل أن تجىء القوات الاسرائيلية • فى هذا اليوم كان العشب ينمـو فـوق الأرض الممتدة • لكنه انتهى وقد تلون باللون الأحمر من كثرة الدم • فى هذا اليوم توجه نسيم بطل الرواية ، الى الشاطىء فى المغرب • الناس هناك تتصرف كأن شيئا لم يحدث • فالمحـلات مفتوحة ، والناس تثرثر ، والاصدقاء يلتقون • ويلتهمون الفول الساخن ويستمعون الى اغنيـات الحب المصرية فى شرائط الكاسيت » •

ويقول الكاتب أن اسم نسيم مكثف بالحروف الناطقة • اسم حقيقى يأتى منه الزمن والكلام • وكذلك اسم حامد • وهـو اسـم الطفـل فى الرواية • والجدير بالذكر ان شخصيات هذه الروايات لها موقف من العالم ومن السياسة بصفة خاصة • وهذه سمة قد لا نلاحظها ، السياسة، كثيرا لدى الأدباء الذين يكتبون بالفرنسية • فنسيم له رأيه الخاص فى الموت • وهو لا يريد أن يموت • لكنه لا يريد للآخرين ان يموتوا • وهو يتساءل هل يمكن للموت أن يصنع للآخرين هويتهم ؟• هؤلاء الآخـرون الحبالى بالنسيان • كما أن موقفه مما يحدث فى لبنان على أيدى قـوات الغـزو الاسرائيلية واضح فهو يرفضه بعنفه ووحشيته ، كما أنه يرفض سلبية العرب من وجهة نظر أخرى • ولا شك أن الكاتب يسكب من أفكاره وفلسفته على سلوك بطله • والكاتب يسمى البطل بالرجـل ذى الألف قيمة • وصاحب الألف وجـه والألف تيمة •

البيـر ميمى (١٩٢٠) :

ولد فى ١٥ ديسمبر عام ١٩٢٠ فى أسرة يهودية بتـونس • كـان ابوه يعمل فى صناعة البرادع ولغته الأسـاسية هى العـربية • التحـق بالمدرسة الحاخامية • وانضم الى حركة الشباب اليهودى • ومدرسـة كارنو • درس الفلسفة فى الجـزائر • ثم سافر بعد الحرب الى باريس ليكمل دراسة الفلسفة فى جامعة السوربون ، وتزوج من فرنسية ثم عـاد الى تونس حيث عمل مدرسا واقام معملا للدراسات النفسية الاجتماعية • كما عمل مدرسا للفلسفة • واصبح مسئولا عن الصفحة الأدبية فى صحيفة « لاكسيون » • ثم رحل الى فرنسا فى عام ١٩٥٦ عقب اعلان استقـلال تونس • وعمل مدرسا فى جامعة نانتير • ثم مديرا لمجموعة الأبحـاث حول الاستقلال والأدب فى المغرب • وقد نشر ألبير ميمى روايته الأولى ،

« تمثال من ملح » عام ١٩٥٢ بمقدمة من البير كامى · ثم جاءت روايته « آجار » عام ١٩٥٥ · وتتابعت أعماله الروائية « صورة مستعمر تسبقها صورة استعمارى » عام ١٩٥٧ · و « صورة يهودى » عام ١٩٦٢ · و « الرجل السائد » عام ١٩٦٨ · ثم مجموعة مقالات تحمل عنوان « يهود وعرب » عام ١٩٧٤ · وقد توقف عن كتابة الرواية فى السنوات الأخيرة بعد روايته « الصحراء أو حياة مغامرات جبير على الميمى » عام ١٩٧٧ · وفى عام ١٩٨٢ نشر كتابا عن « العنصرية » ·

ويقول جان ديجو فى كتابه « قاموس الأدباء المغـاربة » : « ان ميمى أراد أن يوسع مدارك الأفق ويزوج العـالم · ولكنه ادرك الاختلافات فى المزيج المتحـد · فتابع ابحـاثه حول الاختـلافات وسيكولوجية الانسان المغلوب على أمره كى يصل الى الايمان فى التفكير حـول الاستقلال · وفى نفس الوقت الذى يحقر فيه مفاهيم العنصرية والاختلافات المتعارضة فى داخـله » ·

وفى كتاب « الأدب الفرانكفونى » أن ميمى رغم مغادرته تونس فى عام ١٩٧٦ ، الا انه صرح بعد ذلك بعشرين عاما أنه رجـل وفى لانتمـائه التونسى وليس الى اسرائيل ، فتونس هى الهامه وهى اللوحة التى يرسـم عليها · فهو يقول : « أرضى هنا · وقد وجدت فيها عالمى وكتبى » (١) ·

وفى نفس الكتاب اشـارة ان ميمى اعتبر نفسه يهوديا · وقـد عكس تجربته الخاصة فى جميع كتبه سواء أكانت روايات أم مقـالات : « فى حياتى · فان تجربتى المعاشة تعطى وحدتها لعملى » ·

والكاتب فى روايته متمرد من خلال أبطاله على كل كافة اشـكال الضغط على الانسان · وهو يرى أن الرواية هى وسـيلة للمواجهـة · وفى رواياته الأولى يمكن أن نكتشف أن للكاتب جيتـو خاصا يسـمى « الحـارة » ، وما لبث هذا الجيتو ان اختفى فى أعماله التالية · وأصبح هناك اشراق خاص يعبر عنه · ففى روايته الأولى « تمثال من ملح » يحكى عن طفولته وسنوات المراهقة · انه شخص يحس بالمهانة والمرارة والتمرد · ويعانى كثيرا من اللغة الفرنسية التى يتكلمها فى المدرسة · ولغته العربية الأم التى يتكلمها خارج جدران المدرسة · انه طفـل من أسرة بسـيطة · وفقيرة · لكن هذا لا يمنعه أن يلحظ أن الثقافة الغربية التى يتلقاها فى المدرسة تسيطر على الثقافات الأخرى · لذا ، فهو يتركها خلفه ما ان يترك المدرسة · « انا اسمى موردخاى · الكسندر بن لوشى » ·

---

(١) la litterature francophone ; Paris 1980, p. 220.,

« آه ! هذه الابتسامة الرقيقة من زملائى ؟ هل هى زقاق مسدود ، أم درب ؟ · كنت أجهل اننى أحمل اسما سخيفا · فى المدرسة أعى اسمى فى المقام الأول ، لا أعرف سوى اسمى الذى أخرجه من حافظتى · ومن خجلى » ·

يجد الصغير نفسه يحمل العديد من الأسماء الثقيلة النطق · ولا يعرف الى أى منها ينتمى · وهو لا يستطيع أن يعتاد على أى منها ·· « سم نفسك بيير أو جان · وغير عاداتك وغير تمثالك الظاهر فى هذا البلد « أنا يهودى » وبشكل محدد أنا أسكن الجيتو » أو « أنا التمثال الكريه ، أو أنا رجل شرقى العادات » أو « أنا مسكين » · وعلى أن أرفض كل هذه المقولات الأربع · والا أخجل منها بعد كانت مبعث احتقار · أو أن يسخر منها البعض ابان طفولتى » (١) ·

وفى روايته الثانية « أجار » يتحدث الكاتب عن تجربة الزواج المختلط ، والبطل هو تقريبا صورة مكررة من المراهق فى الرواية الأولى، لكنه أصبح طبيبا وتزوج من فتاة فرنسية جاءت الى تونس · ويرى الكاتب ان الزواج من أجنبية قد أعطى البطل تجربة جديدة عليه ان يتعلم منها · فعلى الزوجة أن تواجه عالما يختلف عن عالمها · ويقول الكاتب ان هذه الرواية بمثابة محاولة لكشف النقاب عن بعض الأمور السلبية من أجل الوصول الى انجاح الزواج المختلط · والأخوة بين الشعوب » ·

وقد عاد الكاتب الى نفس الشخصية فى روايته « العقرب » المنشورة عام ١٩٦٩ · فنحن أمام الطبيب اليهودى مارسيل · انه أحد الذين ظلوا فى تونس عقب الاستقلال · وهذا الطبيب عليه أن يقوم بترتيب أوراق أخيه الأديب اميل الذى اختفى فى ظروف غامضة · ويعثر فى أحد أدراجه على بعض الأوراق · فيعكف على دراستها ·

« سألته عن مهنته · كى نستريح · ولأن هذا يسبب له المتعة دائما · لم نبق طويلا فى هذا المستوى الأول · انه فقير · نصف أعمى ·

---

(١) نفس المصدر ·

رحل أبناؤه جميعا ٠ تزوجوا ٠ واستقروا ٠ ولكنه لم يطلب منهم شيئا ٠ بدا غير يائس ٠ وبفضل هذه الآلة التى تملأ الغرفة ٠ كان يغزل الخيوط الصفراء والحمراء ٠ والخضراء ٠ والبيضاء فى لفات طويلة » ٠

« اذا لم تود الا يعاملوك كفقير ٠ فالتزم الصمت » ٠

« ولكن هل كنت فقيرا ٠ ضعيفا ٠ مجهولا من الآخرين ياعم مخلوف ؟ » ٠

« أجل ، يا بنى ، أجل ٠ لكن عم تتكلم ؟ لست فقيرا ولست واهن القوى ٠ هل تود أن تقول انك فاقد اهلية الاحترام ؟ هذا خطأ ٠ من المهم أن تهين الآخرين ٠ هل تعنى انك غاضب على نفسك ؟ أسرع وعش فى سلام يا بنى ٠ والا ستظل فقيرا ومنقسما » (١) ٠

وكما سبقت الاشارة ، فان هذه النماذج من الأدباء العرب اليهود تؤكد أننا امام أدباء وطنيين ، تجاه أوطانهم التى تربوا وعاشوا فيها ٠ وعندما رحلوا عنها ، أو ظلوا فوق ارضها ، فان ابداعهم مستمد من أديم هذه الأرض العربية ٠

---

(١) نفس المصدر ٠

الفصـــل التاســـع :

أدب المهجر الناطق باللغة الفرنسية

اغلب الأدباء العرب الذين كتبوا باللغة الفرنســية ، بدءوا حيواتهم الأدبية فى بلادهم العــربية ثم ســافر الكثير منهــم الى باريس الى حيث فرص النشر الأفضل · والى امكانية أحسن للتواجد · خاصة أن عمليــة نشر الكتب المطبوعة بالفرنسية فى الوطن العربى بدأت تتقلص بعد نهــاية الحرب العالمية الثانية ·

ومع سنوات الستينات والسبعينات لاحت فى أفق هذا الأدب ظاهرة جديدة ، وهى ظاهرة ابناء المهاجرين الى أوروبا · لقد وجد هؤلاء الأبناء انفسهم بين ثلاثة محاور · فهم ينتمون الى مجتمع عربى مسلم جاء منه الأهل · ثم هم يعيشون فى مجتمع غربى يختلف · وهنــاك محــور ثالث يمثل مزيجا بين الاثنين السابقين ·

وقد ذكرت آنى كريجيه كرينكى أن شــابا من الجيل الثــالث من المهاجرين الجزائريين قد تحدث اليها قائلا : « نحن نتلقى ثلاثة انماط من التعليم تعليم من آبائنا · وآخر من مدرســينا · وثالث من الحيــاة . وهذه الأنماط الثلاثة تتضارب » (١) ·

فابناء هذا الجيل الثانى ، أو الثالث عليهم أن يعيشوا فى ازدواجية ملحوظة · فهم فى المدرسة قد يضطرون الى تغيير اسمائهم · فيتحول محمد الى ميمو أو موريس · وجميل الى جيمى · كم هم فى أمس الحاجة الى الجمــاعة · وأن يذوبوا فى داخلهم · ويخشون أن يبدوا مختلفين عنها · انهم قد يخجلون من أصلهم الذين جاءوا منه · ويدفعهم هــذا ، كما قالت السيدة / كرينكى ، الى تغيير اسمائهم وارتداء الزى الأوروبى

---

(١) Les muslumans en France. A. K. Krinikl, maison neuve Paris, 1986.

كالجينز والحذاء الطويل والبلوز · ويصبح من الصعب عليهم السير فى ركاب آبائهم اثناء رحلات العطلات الاسبوعية وهم يرتدون زى البدو · ولا توجه هذه المشكلة الغلمان وحدهم ، بل الفتيات ايضا · فالفتاة لا ترغب ان تكون سندريلا ، ولكنها تحاول أن تبدو طبيعية فى مجتمع أكثر تحررا من مجتمعها الذى يرى أنه يجب أن تتزوج الفتاة مبكرا ·

ولا شك أن مثل هذه التجربة يمكن أن تولد أعمالا فنية وأدبية متميزة · فهؤلاء الأدباء من الجيل الثانى والثالث لم يعيشوا فى بلادهم الا القليل من سنوات الطفولة الأولى · أو لعل بعضهم لم يطأ قط الأرض العربية لكنه يحمل هويتها وجنسيتها · وهو مسلم عليه ان يلتزم بتعاليم الدين فى المجتمع الغربى ·

ولذا ، فان تجربة هذا الكاتب قد اختلفت كثيرا عن أدب الأديب الذى عاش ردحا من شبابه الأول فى الوطن العربى · فمن المعروف أن أندريه شديد والبير قصيرى وأمين معلوف والطاهر بن جلون وكاتب ياسين وغيرهم قد تركوا بلادهم وهم فى سن النضج · لذا ، فان اغلب اعمالهم تدور فى الساحة العربية بغض النظر عن الزمن الذى تجرى فيه أحداث رواياتهم ·

وبينما وجد الكثير من أبناء الجيل الثالث ان السينما والمسرح هما افضل سبل الابداع · فان هناك نماذج أخرى قد اتجهت فقط الى الكتابة · وسوف نختار هنا نموذجين متقاربين متناقضين · الأول أديب نشر روايته الأولى عام ١٩٨٣ · ثم سرعان ما تحول الى السينما · فجاءت شهرته فى عالم الفن السابع أكبر من شهرته ككاتب · وهو مهدى شرف · أما النموذج الثانى فهو لكاتبة عاشت اغلب سنوات حياتها فى فرنسا وهى ليلى صبار ·

مهدى شرف (١٩٥٢) :

يقول مهدى شرف فى حديثه الى مجلة « سينما توجراف » : « ولدت فى قرية صغيرة جدا على مسافة خمسين كيلو مترا من مدينة « تلمسان » فى الجزائر · وذلك فى عام ١٩٥٢ · وكنت اتصور اننى سأعيش وأموت فى هذه القرية الصغيرة · الى ان وقع ذات يوم حادث غير مجرى حياتى · فقد ماتت أختى وقررت أمى أن ترحل عن القرية الى المدينة · ودفع هذا بأبى الى أن يسافر الى فرنسا بحثا عن فرصه عمل · حدث هذا أيام حرب التحرير · وأصبح من الصعب على ابى ان يعود الى الجزائر · لذا رحلنا الى فرنسا للحاق به · وأصبح اندماجنا صعبا فى المجتمع الفرنسى · وعندما أتحدث عن العنصرية فانا اذكر المدرسة بشكل

خاص ·· كنت صبيا عربيا · ولذا فقد تم ايداعي في فصل للمتخلفين في مركز لاصلاح الشباب المنحرف ·· كان كل الصبية من أصحاب المشاكل أو من أبناء مدمني الخمر وبنات الهوى » (١) ·

ومهدي شرف لم يتلق تعليما منتظما · ولكنه عمل في المصانع الباريسية لسنوات عديدة ·حيث عمل في البناء وفي أعمال أخرى وضيعة · ومنذ صغر سنه وهو فريسة لهذا التناقض الحضاري، الذي يعيش فيه · وقد استفاد مهدي شرف من هذه التجربة · فكتب روايته الأولى « الشاي في مخدع آرشي أحمد » والعنوان قد يبدو غريبا بعض الشيء · لكن من سياق الرواية سنعرف مدى المعاناة التي عاشها البطل الذي ليس سوى صورة من شرف نفسه ·

فنحن هنا أمام قصة صداقة تربط بين شابين مراهقين · الأول عربي مهاجر في باريس والثاني فرنسي · هذا الشابان انخرطا في زمرة الشباب ، ولا يملكان الكثير من المفردات للتعبير عن رغباتهما · أو لتحقيق أحلامهما · هناك حيث البطولة سائدة في الأحياء الشعبية أو الأحياء التي يسكنها المهاجرون العرب · وفي هذه الأحياء تزداد حوادث السرقة والاغتصاب وتبرز العنصرية وعدم المساواة · بينما يحاول الكثيرون من الناس المحافظة على معاني الصداقة والحب ·

وفي الرواية نرى امرأة فرنسية تدعى جوزيت تترك ابنها لامرأة جزائرية تدعى ماليكة · وابن ماليكة يعمل في البناء : « ماذا هناك من فجوات في أعمال الفرسان · ففي القلب تماما مثلما في الحياة · يبدو كل شيء صغيرا · ولكنه يتسع مع مرور الزمن · ويزداد اتساعا ويبدو أشبه ببحيرة · تمزق · وندوب لا تعالج ·· لقد عادت هذه الفجوات · ويجب أن نهتم بها والا اختنقت · لذا فالمرء تنتابه الرغبة في الصراخ والرغبة في الانفجار » (٢) ·

كثيرا ما يدور حوار بين جوزيت وماليكة في الهاتف · أما الابن الصغير مجيد فانه يصحب أباه كثيرا الى مدينة الغجر التي جاء اليها الكثير من المهاجرين · وبعد أن سقط الأب من السقف فان على مجيد أن يصحب اباه بنفسه ·

والرواية تعبر عن الصعوبات التي يعانيها الشاب العربي ، وهو يتلقى تعليمه في هذه البلاد · فهو لا يمكنه أن ينطق بكلمة « ارشميدس »

---

(١) Cinematograph, Juillet, Paris, 1985

(٢) Le the au harem d'archi Ahmed, M. Sharef, mercure de France, Paris, 1983.

الا لو قسمها ونطقلنا بمفهومه الخاص « آرشي · أحمد » ثم يدمج الكلمتين معـــا ·

والمهاجرون فى الرواية لا يتحدثون عن الوطن · ولكنهم يتحدثون عن البلاد التى يعيشون فيها الآن · فهم يخرجون فى يوم العطلة مثــل الآخرين من أجل النزهة · ولكن هذه المرأة المسلمة تمارس شعائرها التى تعلمتها بنفس الطـريقة · انها فى البيت امرأة عـربية · فهى ترى ان التليفزيون قد يكون مفسدة للأبناء عندما يعودون من الخارج · ويقول مهدى شرف فى جـريدة لوموند ـ ٢ مايو ١٩٨٥ : « لقـد كتبت الرواية كى أنشرها · ولم تبع الرواية لفترة طـــويلة فبدأت أفـكر فى تحـويلها الى سينما » · ويقول أيضا فى نفس الجريدة : « يتخيل البعض أن الناس الذين يسكنون المناطق الشعبية يعيشون فى جحيم ، أردت أن اظهر العكس وأنه يوجد فى هذا المحيط الهـائل حنان كبير » ·

والجدير بالذكر أن هذه الرواية قد فازت بجائزة أدبية بارزة تحمل اسم الأديب جان فيجو عام ١٩٨٣ ، ثم حولها مهدى شرف الى فيلم فى أول محاولة له فى الاخراج السينمائى عام ١٩٨٥ وحصل من خلال هذه التجربة على جائزة أحسن مخرج فى جوائز سيزار عام ١٩٨٦ · وقـد اجرى تعديلا فى عنوان الرواية الى «الشاى فى حريم ارشميدس» ·

وبعد ذلك انشـغل مهـدى شرف بالسينما · فأخرج فيلمـا عن المهاجرين عام ١٩٨٧ يحمل عنوان « الآنسة منى » ثم بدأ يقـدم افـلاما فرنسية الموضوعات لا توحى أن مخرجها من المهاجرين · الا أن المفاجأة الحقيقية هى عودته فى عام ١٩٨٩ الى الابداع الروائى من خلال عمله الثانى « حركى مريم » le Harki de Meriem ، لدى نفس النـاشر ·

وفى روايته الثانية عاد مهدى شرف للحديث عما يدور فى أحيـاء العرب بباريس · ففى هذا الحى تبرز العنصرية واضـحة · ويموت شاب عـــربى على أيدى العنصريين · تدور الأحـــداث هنـا فى ســنوات الخمسينات · وسليم بطل الرواية فى الثانية والعشرين من عمره · وهو ابن لرجـل جزائرى من المناضـلين · كان أبوه متطوعا فى الجيش الفرنسى فى شمال افريقيا فى زمن الاستعمار · ولد عــز الدين ابو سـليم وتربى فى فرنسا وكان يحمل الجنسية الفرنســية · اذن ، نحن هنا امام جيلين مختلفين من العرب الذين يعيشون فى فرنسا · الأول انتمى تماما الى الفرنسيين وخدم فى صفوفهم · والثانى دفعته ظروفه أن يعيش فى فرنســا

ووالد سليم يدعى عز الدين • كان عليه ان يعمل سائق أوتوبيس • ويعيش مع ولديه وزوجته فى المدينة • وهو رجل جاد ويتسم بالخلق الكريم • ولديه اعتزاز واضح بكرامته • وقد قام عز الدين بالحاق ابنه فى مدرسة تحفيظ القرآن ، بفرنسا وذلك بدافع الا ينسى الصغير سليم القرآن الكريم ولا اللغة العربية • ومع ذلك فان زملاءه فى الكتاب يسمونه « الفرنسى » •

وعندما كبر سليم قرر أن يدرس القانون بناء على رغبة أبيه الذى تمنى أن يراه محاميا كى يمسح عن نفسه كل احساسه بالمنفى • ويدفع هذا بسليم الى التفوق • ويزداد احساس الأب بالفخر • فيقول لزوجته مريم : « أصبح ابننا أقوى من الفرنسيين » • ويصبح سليم محط أنظار المدينة • فعمدة المدينة يستقبله • ومدير المدرسة يقف الى جواره كى تلتقط له الصور •

وسليم هذا ، المتفوق ، عليه أن يدفع حياته ثمنا لعنصرية بعض الفرنسيين ضد العرب • ففى الليل وبينما هو عائد الى بيته يفاجأ براكب دراجة بخارية يعترضه ثم يطعنه بالمطواة •

ويقول محمد عبد القوى : « فى نهاية سنوات الخمسينات لم تكن كلمات الحرب والاستقلال موجودة فى الريف الذى كان يعيش فيه عز الدين • بعيدا عن العاصمة الجزائر أو عن الأوراس • لذا ، فقد كان يسخر حين يسمع أن هناك حربا أو استقلالا • كان فى الرابعة والعشرين من العمر عندما انضم الى الجيش الفرنسى • ليس ضد أحد • ولكن ضد الجوع • والبطن الخاوية • وأرضه الجافة • والشمس التى جففت النهر الذى يخترق التربة • كانت الأرض شديدة القسوة وتشبه ثعبانا يولى الفرار • ليس فيها شيء الا ونفق • مات أخواه الأكبر والاصغر • فهرب من الريف يدفعه الجوع • وهو الذى لم يبق له شيء فى حياته كى يعطيه لأقرانه » (١) •

عز الدين هو بالطبع الأدب الذى سافر الى فرنسا كما تحدث مهدى شرف عن أبيه • فعندما هاجر الى فرنسا كان يتصور أن الحياة فتحت أبوابها له • ولكن بعد أن أنجب لها ولدا متفوقا ومتميزا فانه يحصد موته على أيدى نفس الأشخاص •

الأرض العربية غير موجودة بالمرة فى هذه الروايات • ولكننا أمام عرب يعانون فوق الأرض التى هاجروا اليها • ولا شك ان الحنين

(١) Discours de la litterature, notre libraire, 1992, Paris, p. 129.

هنا أضعف كثيرا من نوع الحياة التى يحاول أبطـــال مهدى شرف أن ينجحوا فيهـا مهما كان الثمن ٠

ليـلى صـــبار (١٩٤١) :

الكاتبة الثانية التى تنتمى الى هذا الجيل الثـانى من المهـاجرين هى ليلى صبار ٠ انها لا تعرف مثل مهدى شرف من اللغة العربية سوى كلمات مكسورة الأحرف ٠ ولكنها تحاول أن تخرج من هذه الازدواجية الثقافية التى تعيش فيها ٠ والتى عبرت عنهـا بنفسهـا فى الـكثير من المواقف ٠ فقالت فى كتاب « المسلمون فى فرنسا » : « لا يمكن أن نقول أن مشاكل الهجرة المغربية أكثر عنفا وألما، وإن هناك بلادا قد تحررت وتجاوزت الحروب وتعيش فى حرية ٠ فماذا عن هؤلاء القادمين من الجزائر أو المغرب أو تونس ٠ يشعرون انهم ليسوا على ما يرام ٠ سواء فى فرنسا أو فى الجزائر ٠ لكن لماذا جاءوا الى هنـا ؟ ربمـا لانهم لا يشعـرون بالراحة فى بلادهم الأصلية ٠ وإن هناك نظاما سياسيا للنساء ، بشكل خاص ، وعلى الرجال أن يعيشوا الحيـاة التى يرغبـون فيهـا سـياسيا واجتماعيا وثقافيا » (١) ٠

ولدت ليلى صـــبار فى ١٩ نوفمبـر عـام ١٩٤١ فى قرية آفلو لأب جـزائرى وأم فرنسية ٠ عاشت فى الجـزائر الى أن بلغت سـن السـابعة عشرة ٠ ثم سافرت الى فرنسا للاستقرار هنـاك ٠ حيث عملت مدرسة - وليلى صبار تكتب المقال والرواية والشعر ٠ نشرت مجموعة من المقالات عام ١٩٨٠ تحت عنوان « انهم يقتلون الفتيات » ثم جاءت روايتها الأولى فى نفس السنة تحت عنوان la pédophile et la maman ثم نشرت روايتها الثانية « شهر زاد » عام ١٩٨٢ ٠ و « تكلم يا ولدى » Parles fiston عام ١٩٨٤ و « شىء يبحث عن شقيقة روحه » عام ١٩٨٧ ٠

ويقول حسن محمد موسى ان تجربة المنفى عند ليلى صبار تنطوى على بعد شخصى أصيل ومميز ، وهى قد ولدت وعاشت طفولتها وصباها فى الجزائر لم تتعلم من العربية الا النزر اليسير ٠ فالفرنسية بالنسـبة لها هى لغة التخاطب والتعبير الأدبى ٠ والمنفى عندها يراوح بين لغتى أمها وأبيها : « كانت أمى فى منفاها تتكلم لغتها وكان أبى يكلمنى بلغـة أمى ٠ كان هو الآخر منفيا فى لغة أخرى ، لغة المستعمر ٠ لغة ابى كانت فى اذنى وعلى الدوام ٠ لكنها بقيت قريبة ومبعثرة فى آن ٠ ورغم ذلك كنت اعشق سماعها ملغمة بالمفاجآت وبالمصاعب فى كل لحظة ٠ حـين يشرع ابى يتحدث لغته ، لا افهم سـوى بعض كلمـات معـزولة اترجمهـا

---

(١) المرجع السابق ٠

أى ارتق منها خرقة معنى ، لكننى لا أبحث عن المعنى . اننى أسمع فحسب وأندهش للأصوات والنبرات وأتمنى لو ان أبى لا يتقطع عن الكلام .

« حين حضرت الى فرنسا انقطعت زمنا عن سماع العربية ، لغة أبى ، وقد عزلتنى ذريعة الدراسات العليا عن الجـزائر الأم . وخن الأب . لم ألاحظ احساسى بالوحدة فى لغة أمى ، ولأمى وطنها فأنا لست منفيــة هنا اذ أكتب بلغـــة أمى نصــوصا أكاديمية للجـامعة فى لغة دراسـية اصطلاحية . وكنت احاول الكتابة الأدبيـــة خـارج اللغـة الدراسـية فتستعصى على فكأننى فقدت الذاكرة » (١) .

ومن المعروف ان ليلى صبار قد تبنت الدفاع عن حقوق المرأة وكتبت فى هذا المضمار مقالات كثيرة نشرت فى العديد من المجلات الفرنسية منها مجلة « العصور الحديثة » كما نشرت لها مقالات تحمل توقيعها فى مجـلة « اليوم الســـابع » .

وقد اعتبر خميس خياطى أن ليلى صبار ــ فى مجلة اليوم السابع ، أكتوبر ١٩٨٧ ــ كاتبة فرنسية .. وهو يرى أن لرواياتها طعما خاصا . طعم البحث عن الهوية والأم والابتعـاد عن الأب والعـالم الخـارجى المأساوى والشقى . أما ثقافة الشمال الغربية فهى ممثلة فى كل صفحة مما تكتبه ليلى صبار عبر بيئة ثقيلة ، ثقل الآمى ، لكنها تحمل وراءه طعم الحرية . شهرزاد التى تجوب أنحاء فرنسا بحثا عما يكون شـخصيتها العربية . فقد سافر الابن كثيرا لكنه لم يجد ما يقوله لأمه التى لا تترك له أية فرصة كى يتحـدث اليهـا .

وفى روايات الكاتبة ، كما يقول الخياطى ، « تبحث ليلى صبار عن مخرج يمزج بين ثقافتين . وذلك حال جيل عربى بأكمله ولد فى فرنســا ولكنه لا يعتبر نفسه فرنسيا . ولد بعيدا عن موطنه الأصلى ولكنه لا يعرف عن هذا الوطن الا الخرافات والحواديت . جالس بين كرسيين ، ولا يعنى بهـذا أو ذاك » (٢) .

وفى روايات الكاتبة هناك دائما النساء اللائى يعشن بين عالمين متناقضين . وهناك مسافات فى حياة هؤلاء النسـاء سـواء مسـافات زمنية أو مكانية . ومثلما حدث فى رواية «الشاى فى حريم آرشى احمد» ، فان رواية « شىء يبحث عن شقيقة روحه » نجــد صداقة بين فتى من أصل عربى وآخر فرنسى . واذا كانت الصداقة قد نمت بين الشخصين

---

(١) كتابة فى منفى اللغــة ــ مجلة اوراق ابو ظبى ــ العدد ٣٠ .

(٢) جعفر رولان فى الزنزانة ، خميس خياطى ، اليوم السابع ، باريس ، . اكتوبر ١٩٨٧ .

عند مهدى شرف فى أزقة باريس العتيدة ، فان صداقة جعفر بالفرنسى رولان قد نمت فى زنزانة ٠

وفى السجن تاق جعفر الى مخاطبة العرب من امثاله ٠٠ لذا فلم يكن يميل الى محادثة المساجين الفرنسيين الذين لا يخلو سلوكهم من العنصرية ، ومن خلال قصاصات الصحف تمكن من معرفة عنوان فتاة عربية راح يراسلها ويخبرها أنه فى سجنه يبحث عن شقيقة لروحه ٠٠ فتصله رسالة من فتاة عربية تسكن فرنسا تخبره انها أيضا تفتش عن هذا الشقيق ٠

ويبدأ جعفر فى الاحتكاك بالعالم الخارجى الداخلى ٠ فهو يريد أن يعبر عن شعوره للفتاة بأن يرسل لها قصيدة مسجلة على شريط ، الا ان صوته يزعج زميل الزنزانة الفرنسى ٠ ومن هنا تقوم الصداقة بين جعفر ورولان ٠

ويتعلم رولان هذه التجربة الجميلة من السجين العربى ٠ فيرسل خطابات الى فتاة فرنسية تدعى « آنى » مشغوفة بمسألة الغيبيات ، وتدور الرسائل دافئة تعبر عن افكار الانسان وتعكس ما فى روحه ٠

وعندما يخرج جعفر من السجن يفتش عن الفتاة العربية التى كانت تراسله فلا يجدها ٠٠ لعلها كانت خيالا لا وجود له ٠ وفى وسط زحمة بحثه عنها يلتقى بفتاة تدعى « ليز » ، انها المرأة التى كانت سببا فى دخول رولان ، السجن ٠ « لقد كان للعامل الثقافى تأثيره فى علاقة ليز بجعفر ٠ ترى ليز فى جعفر صورة الفارس العربى ويرى جعفر فيها الطبيعة الفرنسية والأرض الفرنسية التى يود امتلاكها ٠ وفى فصول شيقة القراءة تصور ليلى صبار التحام جعفر بالريف الفرنسى بوالدة ليز بالطبيعة الفرنسية وكأنه وجد فى كل هذه العناصر اوجها عديدة من شخصيته الدفينة ٠ فتستغل ليز هذا التماثل وتؤثر على جعفر للقيام بسرقة أحد بائعى المجوهرات ، وتفشل السرقة ويرمى بجعفر مرة أخرى فى السجن ، فيلتقى ثانية برولان ، ويتغلب عليه الصمت » (١) ٠

اذن ، فليلى صبار قد فعلت ما فعله مهدى شرف ٠ فليست أرض هذا النوع من الروايات فقط هى فرنسا ٠ بل ان الأبطال الآخرين ، غير

---

(١) المصدر السابق ٠

العرب ، هم أيضا من الفرنسيين · وقليلا ما نجد ان هناك صداقة بين عربى وآخر · بل على العربى ، فى هذه الروايات ، ان يختار اصدقاءه من الفرنسيين سواء من الذين يدفعونه فى الحياة · أو من الذين يقتلونه ، ويدفعون به الى الهاوية · وقد اختلفت هذه السمات عما كتب بعض الفرنسيين أنفسهم حين صوروا حياة العرب فى الأحياء التى يعيشون فيها ومنهم مثلا رواية « هى نقطة الذهب «Gout d'or التى كتبها ميشيل تورنييه عام ١٩٨٥ · فالعرب فى هذه الرواية يعيشون فى عالم عربى لا يخرجون منه الا عند الضرورة القصوى ·

الفصل العاشر :

السينما العربية الناطقة باللغة الفرنسية

شكلت اللغة التي يقدم بها الفنان العربي أعماله في المهجر عقبة في التواصل مع المجتمع الذي ينتمي اليه ، أو ذلك الوافد تجاهه .. فالفنان العربي الذي هاجر الى أوروبا في ربع القرن الأخير يمكنه أن يتقن لغة واحدة للتعبير . اما لغة البلد الذي هاجر اليه . أو يظل يحتفظ بلغته العربية في أسبقيته عند التعبير ..

وقد ظلت مشكلة اللغة تطارد الفنان العربي ، خاصة القادم من شمال أفريقيا الى فرنسا فظل الفنان يقاوم رغبته في أن يقدم ابداعه الفني بلغة أجنبية لأن فنه موجه في المقام الأول من نبع تجربته العربية سواء أكان جمهور هذا الفنان هو العربي أم أي شخص آخر في العالم . لكن هذه المقاومة بدأت تقل بصورة ملحوظة خاصة مع نظام المنح الذي تقدمه وزارة الثقافة الفرنسية للمخرجين السينمائيين الذين يعملون في افلام تتفق مع الثقافة الفرنسية .

وهنا بدأت المقاومة تجاه استخدام اللغة الفرنسية في التعبير الفني تقل : فظهرت في السنوات الأخيرة مجموعة افلام ناطقة بالفرنسية تتناول أحوال المهاجرين العرب الى فرنسا وأوروبا من ناحية أو التجرد من هذه التيمة التي أصبحت مستهلكة والتوغل في الحديث عن مشكلات الانسان الأوروبي المعاصرة .

تطرح الباحثة آني كريجيه كرينكي تساؤلا في كتابها « المسلمون في فرنسا » المنشور في عام ١٩٨٥ . « هل يمكن لثقافة مهاجرة حقيقية أن تتولد فعلا ؟ لقد بدأ المهاجرون في صناعة سينما خاصة بهم تسمى بسينما المهاجرين ، وبدأ يظهر مسرح جديد به الكثير من اصالة البلاد التي جاءوا منها لكنه يختلف . وحدث نفس الأمر للفن التشكيلي .. » .

أما المخرجة والروائية آسيا جبار فتقول حسبما نشرت مجلة جون افريك : « الأهم هو تعريب العقل · وتعريب النفس ، وبعد ذلك يأتى تعريب الأعمال الأوروبية ··

وترى آسيا جبار أن السينما هى البديل الرائع للكتابة : لأن الشخصية تظهر بمختلف أبعادها ، تماما كما هو الفرق بين الرسم والنحت ··

ويمكن حصر الزوايا التى ارتبطت بها السينما العربية الناطقة باللغة الفرنسية فى ثلاثة محاور أساسية هى :

★ المحور الأول: سينما الأقدام السوداء· وهى تعنى مجموعة الأفلام التى اخرجتها مجموعة من المخرجين الفرنسيين الذين عاشوا فى الجزائر والمغرب العربى ابان الاستعمار الفرنسى ، وقد عاش هؤلاء الفرنسيون فى الجزائر على انها موطنهم الأول الذى تربوا فيه · ولم يعرفوا وطنا آخر بديلا له · وكانت صدمتهم شديدة حين اضطروا للرحيل عن المغرب العربى الى فرنسا فتمزقوا بين انتماءين : انتماء الى الجزائر التى تربوا فيها ، وانتماء آخر الى فرنسا التى يحملون جنسيتها · واغلب أعمال مخرجى الأقدام السوداء تدور ضمن هذا المحتوى · وكما قال احدهم : « لم تكن بلادنا هى وطننا · كنا نتكلم لغة جاءت من مكان بعيد ، من ناحية أخرى هناك الكثير منا لم يذهب الى فرنسا · هذا الوطن ، وهذه اللغة بمثابة اسطورة ، فكل منا ينطقها على طريقته · حتى اقتربنا من الأصل اللاتينى الذى وضعت فى البداية منه الجملة التى قد تكون أكثر أهمية » ·

ويقول نفس الكاتب : « لم يكن وطننا أبدا بلدا لنا · ولم تكن جغرافية فرنسا هى تاريخنا أو جغرافيتنا · وكان اقراننا يتمتعون بعيون زرقاء وشعر اشقر ، مما جعلنا اقل عبثية بالنسبة للأطفال هناك · كانت مدننا تنتمى الينا · وكان وجودنا هناك مؤقتا ، لذا فقد كتب أصحاب الأقدام السوداء تاريخهم وجغرافيتهم من أجل تصوير الواقع · وقد ضاع كل هذا الآن ، لم تكن الـ ١٣٢ عاما حية هنا ، الا انها تمثل تاريخ البشرية » ·

وقد أطلق تعبير الأقدام السوداء Pieds Noire على هؤلاء الذين عاشوا فى الجزائر وقد ظهر هذا التعبير كما يقول فردريك موسور عام ١٩٥٦ فى مجلة الاكسبريس فى الزمن الذى كانت فيه الجزائر جزءا من فرنسا · وذلك على غرار زنوج أمريكا · أو ما يسمى بفرنسيى الجزائر واعتقد ان بعضهم قد تجاوز هذا الاحساس وقد جاء التعبير من الميثولوجيا اليونانية عندما وطأ هيراقليس بقدميه أرض آسيا فاستعمرها لأن سكانها رأوا قدميه كبيرتين ·

وأشهر مخرجى الأقدام السوداء هم الكسندر أركادى وروجيه حنان • وروبير حسين ودنيز عمار • ويعتبر اركادى أكثر هؤلاء تأثرا بحياته فى الجزائر ، أخرج للسينما أربعة أفلام حول هذه الظاهرة هى، «ضربة حظ» ١٩٧٩ ، «العفو الكبير» ١٩٨١ ، « المهرجان العظيم » ١٩٨٣ ، و «آخر ليلة فى طنجة» • واركادى ـ كما جاء فى مجلة «ستوريا» ـ أغسطس ١٩٨٧ ـ مثل العديد من أبناء هذه الثقافة يحمل تمزقه فى داخله منذ ربع قرن • فهو لا ينسى قط بلد طفولته • «فنحن لا نتخلص بسهولة من الجذور • لأنها أشد قوة من أن نجتثها » • ومع هذا فهو لا يحمل فى داخله أى شعور بالمرارة ، وهو قادر من خلال السينما أن يصور كل أشباح الماضى، ومن خلال الكاميرا يمكنه أن يكون شاهدا على هذه اللحظات التاريخية • ويتحدث عن فيلمه الأول أنه أحس بالحاجة لاخراجه ، والرغبة فى ترجمة مشاعره الى صور ، وقد أصبحت الصور رمزا للجنون والفن والمعرفة • ولكل ما عرفه أصحاب الأقدام السوداء فلكل أسرة من الأقدام السوداء عشرات الحكايات التى ترغب فى أن تقوم بسردها » •

ويقول أركادى انه يعود دائما الى الجزائر من أجل أسباب مهنية • ويرى أنه « يوجد اختلاف كبير بين جزائر طفولته والجزائر المعاصرة • ففى كل مرة يجد نفس الديكور واللون الأبيض الذى تطلى به البيوت • والبحر الذى لا يزال يحتفظ بزرقته » ، بل انه يرى نفس مقابر الفرنسيين : « لم تتغير طوال عشرين عاما • لم تود أمى التى ولدت فى الجزائر أن تسمع شيئا حول العودة للماضى وقد ألححت عليها منذ عامين• وقررت الحضور الى الجزائر • ولم تندم على هذا • فقد كانت زيارتها رائعة • حيث التقت ببعض صديقاتها وعادت الى سنوات طفولتها وشبابها » •

لقد ظل كل شىء فى ذاكرتها عن الجزائر محفورا دون أى ندم واذا داعبت حنين الماضى فسوف تتعلم أن تعود لتعيش فى الجزائر •

★ المحور الثانى : وهو محور العرب الذين هاجروا الى فرنسا فى أوائل الستينات • عقب تحرير الجزائر ـ مثلما تقول آنى كريجيه كرينكى ـ والذين ارتبطوا بثقافتين : ثقافة البلاد التى جاءوا منها وثقافة البلاد التى هاجروا اليها • ولغة التعبير الأولى عند هؤلاء هى الفرنسية • أما اللغة العربية فتجىء فى الدرجة الثانية خاصة عند التعبير فى الفنون كالرواية والشعر والسينما • وفى حالات الأدب كثيرا ما يصعب على هؤلاء الكتابة باللغة العربية بنفس الطلاقة التى تحدث باللغة الفرنسية مثل حالة المخرجة والكاتبة المغربية آسيا جبار •

وقد بدأت هذه الظاهرة فى جذب الانظار عندما قام شاب جزائرى يدعى عبد الكريم بهلول باخراج فيلمه الأول « شاى بالنعناع » عام ١٩٨٣ · وفى نفس العام قام شاب من العمال العرب المهاجرين الى فرنسا بنشر روايته الأولى تحت عنوان : « الشاى فى مخدع آرشى احمد » فى دار نشر ميركور ، ولكن الرواية ذابت مثل العشرات من الروايات فى أروقة المكتبات الفرنسية الى أن عرضها مؤلفها مهدى شرف على المنتجة ميشيل راى زوجة المخرج كوستا جافراس التى تحمست لانتاجها ـ من الجدير بالذكر أن عشرات الروايات العربية المكتوبة بالفرنسية لم تجد طريقها بعد الى الشاشة العربية سواء الناطقة بالفرنسية أم العربية ـ وهنا بدأت مرحلة انتقال السينما العربية الى اللغة الفرنسية والتمويل فى اغلب هذه الأحوال يتم من قبل الحكومة الفرنسية · فمثل هذا العمل لم يكن له أن ينتج فى العالم العربى بدليل أن احدا لم يتحمس لانتاج الروايات الأخرى المكتوبة بالفرنسية لأدباء آخرين ·

ورغم أن أسماء عديدة انضمت اخيرا الى قائمة المخرجين العرب المهاجرين الى فرنسا والذين يعملون بتمويل فرنسى ، ولا يعبرون قط باللغة العربية ، الا أن مهدى شرف هو أهم هذه الأسماء فهو منذ أن أخرج فيلمه « الشاى فى مخدع أرشميدس » ١٩٨٥ يقدم فيلما جديدا كل عام · وهو يحظى فى السينما العربية الناطقة بالفرنسية بنفس المكانة التى يحظى بها الطاهر بن جلون فى الأدب العربى المكتوب بالفرنسية أما اهم الأسماء الأخرى فهناك رشيد بوشارب صاحب فيلمى « باتون روج » ١٩٨٧ و « شاب » ١٩٩٢ ·

ولأن رواية مهدى شرف عربية مغتربة داخل اللغة الفرنسية ، فلا يمكن الا أن نعتبرها رواية عربية · وفى طاقم العاملين لفيلمه الأول المأخوذ عنهذه الرواية التى تغير اسمها قليلا، وهناك العشرات من الأسماء الفرنسية ·· الا أن مهدى استعان أيضا بالكثير من العرب المقيمين فى فرنسا · وهكذا حمل الفيلم الهوية العربية رغم أنه تمويل فرنسى ·

ومهدى شرف مولود فى مدينة ماغينيا الجزائرية فى ٢٤ اكتوبر ١٩٥٢ · رحل الى فرنسا عام ١٩٧٠ وعمل فى العديد من المصانع الباريسية · وحتى عام ١٩٨٣ حيث نشر روايته التى استقاها من تجربته الخاصة · حول العرب المهاجرين الى فرنسا · وهذا الموضوع هو شاغل مهدى شرف فى العديد من الروايات والأفلام التى يكتبها مثلما حدث فى السيناريو الذى كتبه للمخرج السويسرى آلان تانر تحت اسم «الأرض الحرام » ، عام ١٩٨٥، حول بعض الشباب الذين يهربون المخدرات عند الحدود السويسرية ، ومن بينهم فتاة عربية لا ترضى أبدا لحبيبها الأوروبى

ان يفض بكارتها الا بعد الزواج · ثم أخرج مهدى أفلاما أخرى هى « الآنسة منى » عام ١٩٨٦ و « كاموميل » ١٩٨٨ ·

تقول ميشيل راى : « لن ننسى ان كوستا جافراس مهاجر · وقد قرر أن يجمع كل المعلومات التى تتعلق بالجيل الثانى من المهاجرين ، عن الأطفال الذين وصلوا الى فرنسا فى نهاية الستينات وما بعدها · وكانت المصادفة أن وقعت عيناى على مقال حول كتاب مهدى شرف ، وقررت أن أنتج هذه الرواية · رغم أن الأمر بدأ أشبه بنزوة » ·

والجيل الثانى الذى تقصده ميشيل راى هو الذى وصل عقب نجاح الجيل الأول فى البقاء ، وقد اقترب بناء هذا الجيل الآن من العشرين ويردد أحدهم كما جاء فى كتاب «المسلمون فى فرنسا » : «نحن نتلقى ثلاثة أنماط من التعليم : تعليم آبائنا وآخر من مدرسينا وثالث من الحياة وتتضارب هذه الأنماط الثلاثة » · ومن أبرز أبناء هذا الجيل الروائية ليلى صبار ·

وتتناول رواية مهدى نفس الموضوع الذى يلح على الانسان العربى فى المهجر ، فالمخرج عامل بسيط استطاع أن يكافح فى حياته · ويعيش بين تضارب الثقافتين اللتين انتمى اليهما · عمل فى البناء وعن هذا العالم صاغ أحداث روايته فالعمل ينتقل حيث توجد مبان جديدة · وفى الرواية يتحدث الراوية أن النطق باسم أرشميدس أمر بالغ الصعوبة فاختار أن ينطقه هكذا أرشى أحمد ·· لكن ما أن اندمج داخل اللغة الفرنسية حتى ينجح فى النطق الصحيح فكثيرا ما أزعجته نظرية ارشميدس « لقد كتبت الرواية كى أنشرها · ولم تبع الرواية لفترة طويلة فبدأت أفكر فى تحويلها الى سينما » (لوموند ٢ مايو ١٩٨٥) ·

والفيلم حول قصة صداقة تربط بين شابين مراهقين : أحدهما عربى والثانى فرنسى · عن حياتهما وانخراطهما فى زمرة شباب حيث لا يملكان الكثير من المفردات للتعبير عن رغباتهما · وأيضا بدافع الحشمة · هناك حيث البطولة سائدة فى الأحياء الشعبية · والتهريب والسرقات والعنصرية والتعصب والظلم يحافظ بعضهم على معانى الصداقة والحب والدعابة والضحك · ويقول المخرج : « يخيل للأشخاص الذين لا يسكنون المناطق الشعبية أن العيش فيها جحيم ، أردت أن أظهر العكس وانه يوجد فى هذا المحيط المتسع حنان هائل » ·

وعن نفس العالم أيضا تحدث شرف فى فيلمه الثانى « الآنسة منى » حيث تدور الأحداث من خلال شخصيتين احداهما عربية والأخرى فرنسية العربية هى سمير ، شاب ينتمى للعائلات المهاجرة التى تسكن الأحياء

الشعبية بباريس ، انه يعيش هناك بلا بطاقة هوية · لهذا فهو عاطل دائما · صديق للتيه والبرد والداعرات · فيقرر ان يصادق رجلا مخنثا يدعى الآنسة منى · وهذا الرجل يريد اخراج سمير من ظروفه · وأن يوفر له المسكن فيحاول ، سرا ، أن يساعده رغم أنه لا يختلف كثيرا عنه · فهو عاطل مثله ويسعى الى جمع مبلغ من المال لاجراء عملية يتحـول بعدها الى امرأة ، ووسط البحث عن النقود تحدث جريمة قتل وتتحول الأشياء الى سوداوية ·

أما ثالث أفلام مهدى شريف «كاموميل» فهو يختلف قليلا ، حيث رأى المخرج أن عليه ان يخرج من جعبة الهجرة والمهاجرين ولكن ليس عليه أن يبتعد كثيرا فهناك قصة حب رقيقة بين فتاة وشاب من الأحياء الشعبية، لقد انقذ الشاب الفتاة من موت محقق ويحاول أن يساعدهما بدوره فى الحياة بعيدا عن المعاناة ·

★ المحور الثالث : وهو يدور حول السينمائيين الذين سعوا للاستفادة من التمويل الفرنسى للأفلام غير الفرنسية التى يتم انتاجها من قبل فنانين متأثرين بالثقافة الفرنسية ويطلق عليهم عادة اسم الفرانكوفونيين · أو الناطقين باللغة الفرنسية· وقد سعى أكثر رجال السينما العرب والأفارقة لايجاد تمويل فرنسى لأفلامهم قدر الامكان · البعض نجح والبعض لا يزال يحاول · بعض هذه الأفلام ناطق باللغـة العـربية · وحين يعـرض فى أوروبا تتم دبلجته الى اللغة الفرنسـية · أما البعض الآخـر فهـو يتكلم مباشرة باللغة الفرنسية · بل ان بعض المخرجين يستعين فى أفلامه بطاقم فرنسى مثلما فعل محمد الأخضر حامينا فى « الصورة الأخيرة » ·· وقد نجح أربعة مخرجين مصريين فى تدبير التمـويل الفرنسى منهم يوسف شـاهين فى انتـاج « الوداع يا بونابرت » و « اليـوم السـادس » و «المهاجر» ثم يسرى نصر الله فى «سرقات صيفية» و «مرسيدس» أما تجربة « اختانون » لشادى عبد السلام فلم تر النور لرحيل صاحبها · كما تـم تمويل فيـلم « شحاذون ونبـلاء » لأسماء البـكرى عن رواية للكاتب البير قصيرى من قبل القناة السابعة الفرنسية · كما تم تمويل فيلمهـا الثانى « كونشرتو فى درب سعادة » من نفس القناة ·

ومن فلسطين يبرز ميشيل خليفى ، كما أن هناك من الجزائر محمود زمورى والأخضر حامينا ومرزاق علواش ، ورضا الباهى من تونس · ولأنه من الصعب ان نتحدث عن كل هذه النماذج فسوف نختار بعضا منها · والغريب أن بعض المخرجين يداعب أفكار الغرب ربما اكثر من الأفلام الفرنسية · مثل قصص الحب المصنوعة على طريقة «روميو وجولييت» بين العرب واليهود فى « حب فى باريس » « لمرزاق علواش » و « الصورة

الأخيرة » لحامينا · و « رياح السد » لنـــورى بوزيد ·· وهنا يلعب المخرج العربى المتحدث بالفرنسية لعبة مغازلة الثقافة التى تقوم بتمويله بالاضافة الى النقد الذاتى للثقافة والعادات العربية المهاجرة · أو التى تسعى للهجرة، حتى وان ظلت فى مكانها · وهكذا فان المخرج يضمن لفيلمه مغازلة الثقافة التى مولت الفيلم · ونعيد القول بأن تجربة مهدى شريف وحصوله على التوزيع العالمى المضمون من خلال شركات التوزيع الفرنسية · دفع وراءه الكثير من المخرجين المقيمين فى العـالم العربى أن يسيروا فى نفس الدرب بعد أن حصل على جائزة « ســيزار » عام ١٩٨٥ عن فيلمه الأول ·

تقول موسوعة السينمائيين العرب التى أصدرها جان ميشيل كلونى باللغة الفرنسية ان محمد الأخضر حامينا هو صاحب الفضـل فى انشاء سينما جزائرية · وقد خصصت له أكبر عدد من الصفحات ، أكثر من أى فنان سينمائى عربى آخر · وحسب البيان الفيلمى للمخرج فان كل أفلامه قد أنتجت من خلال مؤسسة السينما الجزائرية · فقد بدأ حياته السينمائية عام ١٩٦٤ بفيلم « زمن العودة » وهو فيلم قصير ، ثم فاز فيلمه الروائى الأول « رياح الأوراس » ١٩٦٧ بجائزة العمل الأول فى مهرجان كان ، كما نال جائزة أحسن سيناريو من اتحاد الكتاب السوفييت · ثم تتابعت أفلامه ومنها «وقائع السنوات الجمر» ١٩٧٥ ، ونال جائزة السعفة الذهبية فى مهرجـان كان فى نفس العـام · ثـم كانت آخـر أفـلامه العـربية « ريح الرمل » ١٩٨٢ ·

لكن ، ما الذى دفع حامينا أن يقدم فيلما يختلف على الأقل بالنسبة للغة ؟· لقد أسند بطولة فيلمه « الصورة الأخيرة » ١٩٨٦ الى مجموعة من الممثلين الفرنسيين منهم فيرونيك جانو وميشيل بوجناح ــ وهــو يهودى تونسى لمع فى المسرح والسينما الفرنسية · كما اســتعان بولديه الصغيرين مالك ومروان حامينا ·

تدور أحداث الفيلم فى قرية أبو سعادة ، التى تقـع على مسـافة ٣٠٠ كم من مدينة الجزائر ، ويسمونها بوابة الصحراء ، كما صور أجزاء من الفيلم فى قرية ميسر التى ولد بها المخرج فى عام ١٩٣٤ ·

اذن ، فالفيلم عربى رغم أن اللغة غير عربية ، ويقول المخرج ان القصة التى اختارها لفيلمه قد حدثت فى الواقع · فى نفس الأماكن التى قـام بالتصوير فيها ، ويقول انه شهد أحـــداث هذه القصة فى عـام ١٩٣٩ : « أحكى قصة كلير بوبيه من خلال منظور طفل صغير يدعى مولود يقوم

بدوره ابنى الأصغر مروان » . المدرسة هى فرونيك جانو . التى عاشت فى الجزائر ابان سنوات الاحتلال وهى تنتمى الى الاقدام السوداء » .

فى هذه القرية ، تعيش المدرسة حياة هادئة . لكن هناك بعض « الخصوم » الذين يريدون ايذاءها . أحدهم من الفرنسيين يحب العرب ولكن لا يميل الى اليهود منهم . ولذا يكره كلير . ويراها عاهرة . هناك نماذج أخرى يقدمها الفيلم مثل بعض سكان القرية وبعض المدرسات وناظر المدرسة . أما الصغير مروان فانه يحب المدرسة الفرنسية أما سيمون ـ ميشيل بوجناح ـ فهو يلعب دور اليهودى الجزائرى ، الذى يلقى معاملة سيئة من الآخرين ، فيطاردونه وينغصون عليه وقته ، خاصة فيما يخص علاقته بكلير .

يقول الأخضر حامينا فى مجلة برومبير ـ يناير ١٩٨٦ ـ ان فرنسا قامت بتمويل فيلمه بمبلغ ١٣ مليون فرنك . ومع ذلك فقد بقى الفيلم جزائريا » .

بدأ عطاء مرزاق علواش فى السينما الروائية عام ١٩٧٦ بفيلم « عمر قتلته الرجولة » . ولم يخرج حتى الآن سوى خمسة افلام منها « مغامرات بطل » ١٩٧٨ ، « الرجل والنوافذ » ١٩٨١ . ثم « حب فى باريس» ١٩٨٨ و « باب واد الحوم» ١٩٩٤ . والأفلام الثلاثة الأولى ناطقة باللغة العربية من انتاج مؤسسة السينما الجزائرية . أما الفيلم الرابع فهو انتاج فرنسى وناطق باللغة الفرنسية ويقول حول هذه التجربة فى مجلة اليوم السابع ـ ٨ فبراير ١٩٨٨ : « كل ما حدث لى مع هذا الفيلم ، يختلف اختلافا جذريا عما حدث لى مع افلامى الأخرى لتأخذ عملية الترويج بالنسبة للأفلام الأخرى . فليست تلك مسالتى بل هى مسالة الدولة : أنها لا تمتلك ، الوقت الكافى لمحاسبة فيلم معين ، المسالة بالنسبة لى اليوم شائكة على مستويات حرية محاسبتى .. هناك من يقول : لنتركه يصور فيلما فى فرنسا ، فيفشل ، الخطورة موجودة على مستوى الانتاج . ولكنها غير موجودة على مستوى الابداع . أقول انه ابتداء من فيلم « حب فى باريس » فانى سأخرج أفلامى سواء بمساعدة رسمية أو بدونها » .

ومريم بطلة هذا الفيلم فتاة يهودية جزائرية . ترحل الى باريس لأول مرة وقد اعتزمت ان تتبوء مركزا محترما فى عالم الأزياء ، وفى أول الأمر يساعدها بعض الأصدقاء من باريس فتقرر العمل فى مهنة أخرى بسيطة . حيث تعمل كموظفة خزانة محل سوبر ماركت . وهناك تلتقى بشاب فرنسى ذى أصل جزائرى خارج من السجن لتوه . يتعرفان على بعضهما ثم تقوم بينهما علاقة قوية . وهذا الشاب ـ على ـ يرفض العودة

الى بلاده · ويريد أن يصبح من رواد الفضاء، انه حلم يراوده منذ سنوات الطفولة · حاول اقناع الطرف السوفيتى بتدريبه على تحقيق هذا الحلم فلم ينجح · وعليه أن يقنع الطرف الأمريكى ، لذا ، فقد قرر السفر الى قاعدة هيوستن لمقابلة المسئولين هناك · ويعتمل هذا الحلم فى داخل على لدرجة أنه يوافق على معاودة الاتصال بزملاء الشر من أجل تدبير الأموال · وفى المطار الذى سيرحل منه مع فتاته تقف مريم تنتظر لكنه لن يأتى··فهى لا تعلم أنه قد تم القبض عليه أثناء احدى العمليات الاجرامية ·

ويقول خميس خياطى فى تعليق حول هذا الفيلم : « مريم ، هذه الفتاة اليهودية الجزائرية تمتلك شيئا ما يجعلها جزائرية ويهودية · ولو الغينا أحد هذين العنصرين لأصبحت مريم فرنسية ، تحلم بأن تكون عارضة أزياء وينتهى الأمر · كان على مرزاق علواش الذى ألفنا منه العمل المتقن والقوى فى الشخصيات ، كان عليه أن يعطينا من خلال هاتين الشخصيتين نظرته لعالم هؤلاء العاملين فى الأرض ، بيد أنه استسلم الى السهولة ·· وبعض الاستفزاز والكثير من « الغازات » الخاصة بالحى اللاتينى » (اليوم السابع ٨ فبراير ١٩٨٨) ·

وفى السنوات الأخيرة تغيرت معالم الكثير من السينما العربية الناطقة باللغة الفرنسية · فقد أصبح الكثير من المخرجين العرب المهاجرين الى فرنسا أداة اخراجية بين يدى التمويل الفرنسى ·· واستطاع هذا المال ان يوجه المخرج حسبما يشاء · فاذا كان مهدى شرف على سبيل المثال قد بدأ حياته بتقديم افلام وروايات عن العرب المهاجرين · فان أفلامه الأخيرة مثل كاموميل » و « فى بلاد جولييت » عن الفرنسيين أنفسهم · حدث هذا أيضا مع مارون بغدادى الذى كان عليه أن يقدم فيلما عن «ماراصاد» وفيلما آخر يتبنى فيه وجهة نظر صحفى فرنسى اتخذته بعض الأطراف اللبنانية رهينة أثناء الحرب الأهلية يحمل عنوان «خارج الحياة» ·· وبدت الأعمال الأخيرة لهؤلاء المخرجين وكأنهم قد تفرنسوا · أو كأنهم قد ذابوا داخل المجتمع الفرنسى ·· وذلك أشبه بالأوربيين الذين تمت أمركتهم فى السينما الأمريكية · وقد حدث هذا أيضا مع أسماء عديدة منها عبد الكريم بهلول وآخرون ·

حاولنا فى هذا الفصل تناول منظور السينما العربية الناطقة بالفرنسية من خلال علاقة التمويل باللغة وواضح من اهتمام الممول ، وأيضا الساعى الى تمويل فيلمه (المخرج) أن اللغة هى العامل الأساسى فى أحداث التمويل · واللغة عند الممول الفرنسى كافية تماما لصبغ الفيلم بالفرنسية مهما كان مضمون هذا الفيلم · وذلك كنوع من الفرنسة التى

صبغها الاستعمار فى بعض الدول التى أقام فيها فترة طويلة وخاصــة الجــزائر • ومنذ أعوام قليلة أقامت فرنســا مؤتمرا للدول الناطقـــة بالفرنسية • أكدت فيه أن لهــذه البلاد هوية خاصة • لأنها تتكلم اللغة •• ومن يتكلم اللغة فهو ذو ثقافة خاصة •• رغم تأكيدنا أن هذه الســينما عربية فى المقــام الأول لحمــا ودما وتفكيــرا ؛ لأن مبدعيها من العــــرب وموضوعاتهم عن أبناء عشيرتهم • فان لغة المال تحكم وتســيطر •• وعلى كل فلهذا النوع الجديد من السينما أكثر من زاوية يمكن من خلالها تحليل ظواهر لم تكن موجودة من قبــل •

المراجــع

— Achour C. : Dictionneire des oeuvres algerienne Française, Paris, L'Harmattan. 1990.

— Arnaud, Jaqueline : (Colloque) : litteratures maghrebins L'Harmattan, Paris, 1990.

— Bonn. CH., Le Roman algerien de langue françeise, l'Harmattan, Paris, 1985.

— Dejeux Jean : Dictionnaire des auteurs maghrébins de langue française, Karthala, Paris, 1984.

— ———— : La littereture maghrébin d'expression français, que-saisje Paris, 1992.

— Dugas, G. La litterature judes-maghrebins d'expression français, Paris, L'Harmattan, Paris, 1990.

— Fakkar. R. : L'influence française sur le formation de la pesse litteraire en egypte au XIX siécle, Geuthner, Paris, 1973.

— Fontain, J. : La litterature Tunisienne Contemporaine CNRS, Pàris, 1990.

— Joubert d-c : Les litteratures francophones depuis 1945, Paris, 1985.

— Khatibi A. : Le roman maghrebin, SAER Rabal, 1979.

— Kriniki A. : Les musulmen en france, maison-neuve, Paris, 1985.

— Luthi, Jean Jaques : Le français en egypte, Beyrouth, 1982.

— ———— : introduction a la litterature d'expression français en egypte, edition de l'école, Paris, 1974.

— Memi, Albert, Ecrivains francophons du Maghreb 'Anthologie, Seghers, Paris, 1985.

— Selim Abou : Le bilinguisme arabe — français au Liben. Du. F. 1962.

— Yequotte, Ragaa : Albert Cossery, Alazhar, 1990.

مراجـــع عربيـــة

تتمثل المراجع العربية فى كافة المجلات ، والصحف ، المشار اليها داخل متن الكتاب ، خاصة مجلة « اليوم السابع » ، ومجلة « أوراق » ، والعدد ٢٩٢ من مجلة رسالة اليونسكو حول « المهاجرون بين ثقافتين » . ومطبوعات أخرى عديدة .

للمؤلــــف

فى الروايـــة :

١ ـ لـــــــماذا
(دار المطبوعات الجديدة ١٩٨١)

٢ ـ أوديســـانا
(دار المطبوعات الجديدة ١٩٨٢)

٣ ـ الثـــــــروة
(المجلس الأعلى للثقافة ١٩٨٣)

٤ ـ البديـــــــل
(هيئـــة الكتـــــاب ١٩٨٧)

٥ ـ وقائع سنوات الصبا
(مركز الانماء الحضارى ـ حلب ١٩٩٤)

٦ ـ زمن عبد الحليم حافظ
(المركز الفضى ١٩٩٦)

فى الترجمـــة :

١ ـ ألهة الذباب ط٢ (عن ويليام جولدنج)
(دار الهلال ١٩٨٤ ـ ١٩٩١)

٢ ـ شـــحاذون ومعترون (عن البير قصيرى)
(هيئة الكتاب ١٩٨٧)

٣ ـ العاشق (عن مرجريت دوراس)
(هيئة الكتاب ١٩٩٠)

٤ ـ منزل الموت الأكيد (عن البير قصيرى)
(سعاد الصباح ١٩٩٢)

٥ ـ العنف والسخرية (عن ألبير قصيرى)
(دار الهلال ١٩٩٣)

٦ ـ اللا اخـــلاقى (عن أندريه جيـد)
(الدار المصرية اللبنانية ـ ١٩٩٤)

فى الدراســات :

١ ـ الرواية اليهودية فى الولايات المتحدة وفرنسا ط١
(آفاق عــربية ١٩٨٦) ٠

٢ ـ الاقتباس فى السينما المصرية ط٣
(نهضة مصر ١٩٩١)

٣ ـ رواية التجسس والصراع العربي الاسرائيلى
(نهضة مصر ١٩٩١)

٤ ـ الخيال العلمى ٠ أدب القرن العشرين
(الدار العــربية للكتاب ١٩٩٣)

٥ ـ جائزة نوبل ٠ أضواء وأسرار
(دار المعارف ١٩٩٣)

٦ ـ موسوعة الأفلام العربية (مع آخرين)
(بيت المعرفة ١٩٩٤)

٧ ـ موسوعة جائزة نوبل
(مكتبة مدبولى ١٩٩٦)

٨ ـ سينما عــادل امام
(المركز الفضى ـ ١٩٦٦)

فى ادب الأطفال :

ـــ اجمــل حكايات الدنيا (٥٠ كتــابا)
(نهضة مصر ١٩٩١)

ـــ ألغـاز الشروق (٢٠ كتـابا)
(دار الشروق ١٩٩٣ ـ ١٩٩٦)

ـــ مغامرات رأفت الهجان
(دار الهــلال ١٩٩١)

ـــ اجمل حكايات البحر/حكايات سينمائية مثيرة/بستان الحكايات/ حكايات غيرت الدنيا (جـ ٢) شارلى المتشرد ـ العملاق ـ آلة الزمن العجيبــة ٠
(دار الهلال) ٠

ـــ خيــال × خيــال (٦ كتب)
(دار الشروق ـ ١٩٩٦)

ـــ طه حسين ـ حسين القبانى (عظماء عاشوا بالأمل) ٠
(دار المعارف ١٩٩٥)

ـــ حكايات علمية مثيرة
(دار عثمان ـ ١٩٩٥)

ـــ اعـرف عصرك (٥ كتب)
(دار الهــلال ـ ١٩٩٦)

ـــ مغامرات آلة الزمن العجيبة
(هيئة الكتاب ـ ١٩٦٦)

اقرأ فى هـذه السـلسلة

العنوان	المؤلف
احلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند رسـل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى · رادونسكايا
نقطـة مقـابل نقطـة	الدس هكسـلى
الجغرافيا فى مائة عـام	ت · و · فريمـان
الثقـافة والمجتمـع	رايموند وليـامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر · ج · فوربس
الأرض الغـامضة	ليسـترديل راى
الرواية الانجليـزية	والتـر الـن
المرشـد الى فن المسرح	لويس فارجـاس
آلهـة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشـاشة	د· قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة	أولج فولـكف
الهوية القومية فى السينما العـربية	هاشـم النحـاس
مجمـوعات النقـود	ديفيـد وليـام ماكدوال
الموسيقى – تعبير نغمى – ومنطق	عـزيز الشـوان
عصر الرواية – مقال فى النوع الأدبى	د· محسن جاسم الموسـوى
ديـلان توماس	اشراف س · بى · كوكس
الانسـان ذلك الكائن الفـريد	جـون لويس
الرواية الحـديثة	جـول ويست
المسرح المصرى المعـاصر	د· عبد المعطى شعراوى
على محمـود طـه	أنـور المعـداوى
القـوة النفسـية للأهـرام	بيـل شـول وأدنبيت
فن الترجمـة	د· صـفاء خلوصى
تولسـتوى	رالف ئى ماتلـو
سـتندال	فيكتـور برومبير

العنوان	المؤلف
رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سيدنى هوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف ٠ ع أدنيكوف
ادب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
أحمد حسن الزيات	د٠ نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د٠ فاضل أحمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د٠ روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا ٠ سبنسر
النحل والطب	د٠ ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د٠ لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د٠ جون شندلر
الصحافة	بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	د٠ غبريال وهبة
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د٠ رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د٠ محمد نعمان جلال
الفكر الأوربى الحديث (٤ جـ)	فرانكلين ل ٠ باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الاسرية والابناء الصغار	د٠ محيى الدين أحمد حسين

نظريات الفيلم الكبرى	ج· دادلى أندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد	د· جوهان دورشنر
حرب الفضاء	طائفة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدولية	د· السيد عليوة
الميكروكمبيوتر	د· مصطفى عنانى
مختارات من الأدب اليابانى	صبرى الفضل
الفكر الأوربى الحديث ٢ ج	فرانكلين ل · باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابرييل باير
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطونى دى كرسبنى
كتابة السيناريو للسينما	دوايت سوين
الزمن وقياسه	زافيلسكى ف · س
أجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر رداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
التجربة اليونانية	س · م بورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د· عاصم محمد رزق
العلم والطلاب والمدارس	رونالد د· سمبسون ونورمان د · اندرسون
الشارع المصرى والفكر	د· أنور عبد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت وتيمان روستو
تبسط الكيمياء	فريد س هيس
العادات والتقاليد المصرية	جون بوركهارت
التخطيط السياحى	آلان كاسبيار
التذوق السينمائى	سامى عبد المعطى
البذور الكونية	فريد هويل
	شاندرا يكراماسينج
دراما الشاشة (٢ ج)	حسين حلمى المهندس
الهيروين والايدز	روى روبرتسون
نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس
صور أفريقية	دوركاس ماكلينتوك

المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية اسماك الزينة	ديفيد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ جـ)	جمعها : جون ر ٠ بورر وميلتون جولد ينجر
الفكر التاريخى عند الاغريق	ارنولد توينبى
قضايا وملامح الفن التشكيلى	د٠ صالح رضا
التغذية فى البلدان النامية	م٠هـ٠ كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جوزيف داهموس
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د٠ السيد طه أبو سديرة
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	اريك موريس وآلان هو
اخناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
التوافق النفسى	توماس ا ٠ هاريس
الدليل الببليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى أرمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الاوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشاهنامة (٢ جـ)	الفردوسى الطوسى
الحياة الكريمة (٢ جـ)	بيرتون بورتر
كتابة التاريخ فى مصر	جاك كرابس جونيور

من النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد ميـــرى
ترانيم زرادشـت	اختيار / د٠ فيليب عطيـة
الســـينما العـــربية	اعداد / مونى براخ وآخـرون
دليـــل تنظيـم المتـاحف	آدامز فيـليب
ســقوط المطر وقصص أخـرى	نادين جورديمـر وآخرون
جماليـــات فن الاخـــراج	زيجمـونت هبنـر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)	ستيفن أوزمنت
الحملة الصـــليبية الأولى	جـوناثان ريـلى سـميث
التمثيـل للسـينما والتليفزيون	تـونى بـار
العثمـــانيون فى أوربا	بـول كولنـــر
صـــناع الخـــلود	موريس بيـــر برايـر
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ ج)	الفـــريد ج ٠ بتـــلر
رحـــلات فارتيمـا	رودريجـــو فارتيمـا
الهم يصـــنعون البشر (٢ ج)	فانس بكـارد
فى النقد الســينمائى الفرنسى	اختيار/ د٠ رفيق الصـــبان
الســـينما الخيـــالية	بيتـــر نيكوللز
الســـلطة والفـــرد	برتداند راســـل
الأزهـــر فى ألف عـــام	بينـارد دودج
رواد الفلســـفة الحـــديثة	ريتشـــارد شـــاخت
ســـفر نامة	ناصر خسرو عـــلوى
مصر الرومانيـــة	نفتـــالى لـــويس
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر	جـــاك كرابس جونيـــور
الاتصال والهيمنة الثقـــافية	هـــربرت شـــيلر
مختارات من الآداب الآســـيوية	اختيار / صـــبرى الفضـــل
كتب غيرت الفكر الانسانى (٥ ج)	أحمـــد محمـــد الشـــنوانى
الشموس المتغيـــرة	اســـحق عظيمـــوف
مدخـل الى عـلم اللغـة	لويتـــو تـــود

حديث النهر	اعداد/ سوريال عبد الملك
من هم التتار	د. ابرار كريم الله
ماستريخت	اعداد/ جابر محمد الجزار
معالم تاريخ الانسانية (٤ جـ)	هـ . ج . ولز
الحملات الصليبية	ستيفن رانسيمان
حضارة الاسلام	جوستاف جرونيباوم
رحلة بيرتون (٣ جـ)	ريتشارد ف . بيرتون
الحضارة الاسلامية	آدمز متز
الطفل (٢ جـ)	ارنولد جزل
افريقيا الطريق الآخر	بادى اونيمود
السحر والعلم والدين	فيليب عطية
الكون ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
حرب المستقبل	مارتن فان كريفلد
الفلسفة الجوهرية	سونداري
الاعلام التطبيقى	فرانسيس ج . برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	ج . كارفيل
فن المايم والبانتومايم	توماس ليبهارت
تحول السلطة	الفين توفلر
التفكير المتجدد	ادوارد وبونو
السيناريو فى السينما الفرنسية	كريستيان سالين
فن الفرجة على الأفلام	جوزيف م . بوجز
خفايا نظام النجم الأمريكى	بول وارن
بين تولستوى ودستويفسكى (٢ جـ)	جورج ستاينز
ما هى الجيولوجيا	ويليام هـ . ماثيوز
الحمر والبيض والسود	جارى ب . ناش
انواع الفيلم الأميركى	ستالين جين سولومون



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٦/٣٩٤٨

ISBN — 977 — 01 — 4745 — 1



ليس الكتاب الذى بين يديك فقط هو الأول من نوعه فى المكتبة العربية بل هو أيضًا الأول من نوعه الذى يفرد مثل هذه الصفحات عن الأدب العربي المكتوب باللغة الفرنسية فى كل الوطن العربي وخارجه وقد أوضح هذا الكتاب فى فصوله العديدة أن الأدب «العربي» المكتوب باللغة الفرنسية ليس أبدًا أدبًا فرنسيًا رغم أنه منشور فى دور النشر الفرنسية ورغم أنه مكتوب باللغة الفرنسية لكن اللغة لم تصنع أبدًا هوية قومية مختلفة للكتاب الذى ولد عربيًا وقد حاول هذا الكتاب أن يرصد بانوراميا الكثير من الأسماء المهمة فى عالم الأدب العربى المكتوب باللغة الفرنسية من خلال شبه قاموس لكل بلد فى نهاية الفصل الخاص به هذا بالإضافة إلى إلقاء الأضواء مركزة على أبرز الأسماء فى بلادها من خلال البحث والتحليل والرصد لهذا الأدب.

من أهم هذه الأسماء: قوت القلوب الدمرداشية والبير قصيرى وأندريه شديد وأحمد راسم وجورج حنين من مصر ومن لبنان جورج شحادة وفؤاد أبو زيد وجان اركاش وايفيلين بطرس ومن فلسطين إبراهيم الصوص ومن الجزائر محمد ديب ورشيد بوجدرة وجان عمروش ومن المغرب عبدالله بارودى وعلوى بلزمين وعبدالقادر بلهاش ومن أدباء المهجر مهدى شرف.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب